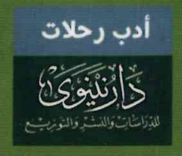
السّوريون المعاصرون

ملاحظات حول المجتمع المحلي
في بيروت ودمشق وحلب وجبل لبنان وجبال الدروز
في الأعوام 1841 - 1842 - 1843م

ترجمة: خالد الجبيلي

أدب رحلات



السوريون المعاصرون

أو

ملاحظات حول المجتمع المحلي في بيروت ودمشق وحلب وجبل لبنان وجبال الدروز في الأعوام ١٨٤١ و١٨٤٢ و١٨٤٣

عنوان الكتــاب: السوريون المعاصرون
اســم المترجـم: خالد الجبيلي
المـوضـــــوع: مذكّرات
عدد الصفحات: 242 ص
القيــــــاس: 14.5 × 21.5 سم
الطبعـة الأولى: 1000 / 2018 م - 1439 هـ
ISBN: 978-9933-38-075-5



سورية . دمشق . ص ب 4650
تلفاكس: +963 11 2314511
هاتــــف: +963 11 2326985

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
 Ayman ghazaly

العمليات الفنية:
التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

السوريون المعاصرون

أو

ملاحظات حول المجتمع المحلي في بيروت ودمشق وحلب وجبل لبنان وجبال الدروز في الأعوام ١٨٤١ و١٨٤٢ و١٨٤٣

ترجمة

خالد الجبيلي

The Modern Syrians
Or
The Native Society
in Damascus, Aleppo and the Mountains of the Druses

from notes made in those parts during the years
1841 - 2 - 3

المحتويات

الفصل الثاني والعشرون

الفصل الثالث والعشرون

الفصل الرابع والعشرون

الفصل الخامس والعشرون

مقدمة

في أثناء زيارتي لمكتبة نيويورك العامة، بحثاً عن كتب دوّنها رحالة زاروا منطقة الشرق، لفت اهتمامي كتاب طبع في لندن عام ١٨٤٤ عنوانه:

"**The Modern Syrians**, or The Native Society in Damascus, Aleppo and the Mountains of the Druses"

وما أثار اهتمامي أكثر هو عدم وجود اسم للمؤلف، إذ اكتفى الناشر بأن ذكر على الغلاف "بقلم طالب دراسات شرقية". وكان مؤلف الكتاب قد قام برحلة إلى سورية وجبل لبنان في الأعوام ١٨٤١ و١٨٤٢ و١٨٤٣. والأمر الذي يثير الاستغراب هو السبب الذي جعل المؤلف ألاّ يذكر اسمه، وما هدفه من هذه الرحلة التي استمرت طوال ثلاث سنوات، انطلاقاً من الإسكندرية ووصولاً إلى بيروت التي انطلق منها إلى جبل لبنان ودمشق وحلب والساحل السوري حتى السويدية وإنطاكية الإسكندرونة. فإذا كان الهدف من رحلته الإطلاع على أحوال الناس والأوضاع السياسية السائدة في جبل لبنان وسورية عامة، وتدوين ملاحظاته وانطباعاته عنها، فلماذا لم يذكر اسمه لكي يُعترف بفضله، أم كان هدفه تعلم اللغة العربية، أم غير ذلك من الأهداف غير المعلنة للرحّالة؟ في جميع الأحوال، ستظل هناك أسئلة كثيرة وتكهنات أكثر. ولكن ما يهمنا هو ما دوّنه الكاتب من أحداث وانطباعات قد تلقي الأضواء على فترة لم تحظ بالكثير من عناية الباحثين. ولعل الكتاب يوفر للباحثين والدارسين المهتمين مادة هامة عن تلك الفترة التاريخية.

ويسعدني أن أقدم للقارئ العربي هذا الكتاب النادر والهام عن سورية أو "بلاد الشام" في منتصف القرن التاسع عشر، الذي يمكن أن نضيفه إلى المكتبة العربية إلى جانب كتاب "تاريخ حلب الطبيعي: حلب في القرن الثامن عشر"، الذي كتبه الطبيبان البريطانيان الأخوان ألكسندر وباتريك راسل في الأعوام ١٧٤٣ - ١٧٦٢، الذي طبع في لندن عام ١٧٩٤، وكتاب "القرابة الحقة: دراسة اجتماعية عن الأسرة والمجتمع الحلبي في العهد العثماني"، بقلم الباحثة الأميركية الدكتورة مارغريت لي. ميري وزر.

وفي الختام، أرجو أن أكون قد وفقت بإضافة عمل جديد من أعمال الرحالة الذين قاموا بزيارة منطقتنا وسجلوا انطباعاتهم عنها والتي تقبع في بعض المكتبات في أنحاء العالم، والتي تحتاج منا إلى نفض الغبار عنها.

خالد الجبيلي

الفصل الأول

الإسكندرية - السفر إلى بيروت - بيروت - جبل لبنان

بعد سنوات عديدة من الترحال في أرجاء القارة الأوروبية، اعترتني رغبة شديدة لرؤية عجائب الشرق. وفي خضم الدراسات الشرقية التحضيرية، أتيحت لي الفرصة لزيارة منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، وتمكنت من مشاهدة الكثير من الأشياء الرائعة. وقد أحدث أول مشهد رأيته انطباعاً لا يمكنني أن أنساه ما حييت. فقد دخلت السفينة البخارية الفرنسية التي كنت على متنها ميناء الإسكندرية، الذي كانت ترسو فيه آنئذ الأساطيل المشتركة للسلطان ومحمد علي، التي بلغت خمسين سفينة حربية، منها تسع عشرة سفينة شراعية.

أخذت السفينة البخارية تتباطأ، وبدأت تسير بين صفين من السفن الحربية. وكنت ترى هنا وهناك سفينة ضخمة ذات ثلاث طبقات تجثم بكل ذلك الفخر والبهاء، وروعة الهندسة البحرية. وكنت ترى هناك الحارس واقفاً دون أن يأتي بحركة، جاثماً في مؤخرة السفينة، وحربة بندقيته تلمع تحت أشعة الشمس المائلة للغروب، ولون طربوشه الأحمر يبدو متجانساً مع لون قرص الشمس الغاربة، ووجهه المكفهر الذي يبدو مثل تمثال من الغرانيت الوردي. وما أن رست السفينة حتى غابت الشمس، وبدأت الطبول تقرع من سفينة إلى أخرى، ثم أُطلقت المدافع المسائية، وتصاعد خيط رفيع من الدخان محدثاً ستاراً رمادياً غطى الأفق الأحمر المتوهج،

ورحت أستمع خلال ذلك، ولأول مرة في حياتي، إلى تلك الألحان الجادة والرائعة لأذان الصلاة المنبعث من المآذن على الشاطئ.

ورغم تنوع الموضوع وجاذبيته، فلن أتحدث عن مصر. فلم أمكث فيها سوى الفترة المحددة لي، ثم سرعان ما ودعّت النيل والأهرامات ومكتب وكالة واغورن. وفيما كنت أُعدّ نفسي لكي أتوجه إلى رصيف الميناء والإبحار إلى سورية، لم يكن بانتظاري سوى جمهرة من الحمير التي كانت تتجشّأ، والتي كانت ركبها مكسورة، وعيونها دامعة.

"ألن تمتطي حماري؟" قال أحد أصحاب الحمير؛ "إنه حمار جميل يا سيدي، فهو يسير كالسفينة البخارية اللعينة". ومن المؤكد فإنه ليس بمقدورك أن تقارن روبينز الكلاسيكي، وتاتيرسال العبقري، الذي انتصب برعايته معبد هيجيا إلهة الصحة الإغريقية، في مستنقعات منطقة لينكولنشاير، حيث تصبح الخيول الجامحة والتي لا تتوقف عن الركل لطيفة ولينة العريكة، مع مدرسة الإسكندرية الحديثة.

وخلال الرحلة، لم يكن لدي مورد سوى صحبة زميل مسافر، الذي كان يؤمن بأن القلب الودود والمعدة الدافئة ليسا سوى أمرين متطابقين. إذ كان يزيل المزاج السيئ باحتساء بيرة هوجسون الشقراء، ثم يغسل البيرة بالكثير من البراندي والماء.

وكان جبل ورأس الكرمل الشيء الرائع الوحيد في الرحلة، حيث قام صديقي الذي آلى على نفسه أن ينعش ذاكرتي الجغرافية بلطف، بتعيين موقع الأرض المقدّسة بكل جدية ووقار في أسلوبه. وقد وصلت إلى بيروت في ٢٤شباط ١٨٤١.

تعد بيروت متحفاً شرقياً، مدينة هجينة تضم مجموعة مختلفة من الأشياء. فقد رأيت فيها الكوميديا المرحة للحياة الأوروبية، وغصت بعضاً من الوقت في عاصمة شرقية واسعة، مظلمة الجوانب. ومع ذلك فهي تعتبر الكنز الدفين للرسامين. إذ كاد المشهد الطبيعي الإيطالي أن يكون قد استهلك. ولا يصعب عليّ أن أتصور أن الفنان لينجيلباخ، الذي لم يكن رساماً يعتد به، قد اكتسب شهرته من العبقرية الفطرية للمواضيع التي كان يستقيها من المشرق.

إذ تشمل لوحة المارينا التي رسمها جميع العناصر الرائعة. وهي اسم على غير مسمى لرصيف بحري، يتكون من أعمدة متداعية، ونصب لبيروت القديمة، وتلك القلعة المتداعية المحطمة التي شيدها فخر الدين المعني، التي كانت تتصل ذات يوم باليابسة بجسر. وعند غروب الشمس، يمكنك أن ترى البحار الذهبية التي رسمها الفنان كلود، ومنحدرات الجبل الهائلة التي كان غاسبار بوسين مولعاً برسمها. ثمّ يا للتنوع في الأشخاص وأنواع الثياب! فالحارس التركي بملابسه الوسخة، والألباني الذي يحمل مسدساً ويرتدي تنورة داخلية، وسائس البغال الجبلي، والرجل الإنكليزي الأنيق من أفراد طاقم المركب الحربي. أما بالنسبة للأشياء الداخلية، فما أجمل ما صوّره Ostade وTenirs عن الخمارة اليونانية التي تشبه الكهف بروادها المشاغبين، أو لوحة دي هوج عن الباحة الخلفية لعائلة مشرقية، حيث تتلاعب أشعة الشمس بقوة على الرصيف الفسيفسائي، وترتد بهدوء إلى الكوة البعيدة، التي تشكّل سحر البيت السوري.

إن نفاد صبري لرؤية البلاد من الداخل جعلني اختصر إقامتي في بيروت، وما هي إلا بضعة أيام حتى أخذت أصعد جبل لبنان باتجاه المتن.

وكان الطريق في بادئ الأمر سلساً متدفقاً، ثم بدأت أصادف منحدرات مختلفة، ثم صخور من جميع الأحجام. وكاد انهماكي في صعود الجبل يجعلني أنسى تعطشي لرؤية مشهد الجبل الذي منحني إياه مشهد رمل الصحراء الليبية ووداعة دلتا النيل. ولم أشعر بأني قد حصلت على مكافئتي لهذا الجهد إلا بعد أن تجاوزت عدّة حافات، وأصبح بوسعي أن أنظر إلى صفحة البحر الممتدة تحتي. هرعت إلى هضبة مجاورة، وعندها رأيت الشيء الرئيسي في سلسلة جبال لبنان، جبل صنين، الذي تكسو قمته الثلوج. وأخيراً وصلنا إلى أحد الخانات. ورب سائل ما هو الخان الجبلي؟ وأجيب إنه منزل طويل ذو سقف واطئ، وأرضية طينية، وفيه رواق من الخشب الصلب مكسو بأغصان شجر الصنوبر. ولا توجد فيه نافذة ولا مدخنة. وكان ثمة رجل عجوز غير حليق الذقن، يعدّ القهوة للمسافرين في زاوية البيت المظلمة. وكان يبدو في وهج الفحم المشتعل أشبه بخيميائي من العصور الوسطى وهو في مختبره الذي يكسوه السخام بقوة. ويُقدم في تلك الخانات التي تقع على الطريق في لبنان، بيض مسلوق وحليب مخثر، يسميه الأتراك يورت، ويسميه السوريون اللبن، ورغيف مسطح من الخبز الأسمر الخالي من الخميرة. مما يضطر جميع المسافرين الأوروبيين إلى أن يحملوا معهم زوادتهم من الطعام. ولم يكن الدخان في داخل البيت أقل إزعاجاً من الغبار في الخارج؛ وذلك لأن قافلة صغيرة كانت قد وصلت للتو، وكانت الدواب التي أُفرغت من حمولتها تجد متعة غريبة في التدحرج على الطريق، وفي حك ظهورها بالأرض ورفس حوافرها في الهواء. وفيما كان السائسون يسقون دوابهم ويعلفونها، اقترب مني بعض الأتراك الجورجيين، الذين قطعوا الطريق من القوقاز سيراً على الأقدام، وأراني أحدهم، بعد أن نزع عمامته،

جرحاً جديداً على رأسه أحدثته ضربة بالسيف بالقرب من مدينة حمص، حيث سُلبوا كذلك. وقد صدقت ذلك بسهولة؛ وذلك لأن انسحاب عرب الهنادي* من الطريق الذي يصل بين دمشق وحلب جعله عرضة لغزوات من أفراد عشيرة العنيزة، الذين يشغلون المثلث الكبير الذي يشكّله نهر الفرات والحدود الشرقية لسورية وصحراء الجزيرة العربية. إذ إن حكومة السلطان تحظى بشعبية لدى الأعراب أكبر بكثير مما كانت تحظى به حكومة المصريين. وقد سأل صديق لي ذات مرة أحد الشيوخ من عرب بني عدوان عن السبب فقال له: "لماذا؟ لأننا الآن نفعل ما نشاء".

كان سائس البغل درزياً؛ ولمّا لم يكن لدي خيمة أبيت فيها، قبلت عرضه عن طيب خاطر بأن أحوّل طريقي وأمضي الليلة في قريته، التي كانت تقع في منطقة الجرد، وتملكها أسرة عبد الملك.

توجهنا جنوباً على طريق دمشق؛ ولدى وصولنا إلى قاع الوادي وجدنا أنفسنا في مكان يشبه القِدر، وكنا نسمع صرير طاحونة تبدو بدائية أضافت إلى بؤس المشهد وإقفاره: وبعد أن صعدنا بمشقة وصلنا القرية، التي كانت تقع في أرض منبسطة، والكرمة مزروعة على جانبي الطريق.

كانت جميع بيوت القرية مبنية من أحجار مصقولة، يقارب حجم كلّ واحدة منها حوالي قدم مربع، وكانت مرصوصة بعناية من الداخل، ومطلية بالأبيض. ولدى وصولنا إلى منزل مضيفي، أعجبت بنظافته التامة: فقد

---

* "الهنادي" قبيلة وضعها جيش إبراهيم باشا المصري في حربه مع الأتراك في شمال ووسط سورية. أصولهم من بلدة هنادي المصرية القائمة حتى الآن. ووفق ما ذكر الجبرتي فإن سكان هذه البلدة كانوا منبعاً للجيوش المصرية. (المترجم).

كانت تكسو الطرف العلوي من البيت سجادة قماشية ذات وبر رمادي، وكان يقبع في إحدى الزوايا مهد طفل رضيع مرصّع باللؤلؤ. وكانت الأرضية مرصوفة بكتل من الأحجار أو الرخام الأسود المنقوشة، يقارب حجم كل منها ١٨ بوصة مربعة. وكان بجانب إحدى الفتحات المحفورة موقد مبني من أحجار مصقولة، توضع عليه أوعية وقدور عديدة. وكان جزء من القدور معلقاً فوق النار. وكانت المقدمة مخصصة للشواء؛ وكانت هذه الطريقة اقتصادية جداً للتزود بالنار، إذ إنه عندما تسخن الحَجَرة لم تكن هناك ضرورة لإضافة قدر أكبر من الوقود.

بعد أن أفرغنا الحمولة من فوق الدابة التي استأجرتها، ومد مضيفي سجادتي عند الطرف الأعلى من المسكن، بدأت تتوافد مجموعة من الزوار من القرويين، فما أن سمعوا بأنني رجل إنكليزي حتى امتلأت الغرفة. وسرعان ما تبين لي أن جميع القرويين يظنون أن الأوربيين جميعهم على معرفة بفن المعالجة. فقد كانت عين رجل عجوز مصابة بالتهاب شديد، ولم يكن الأمر يتطلب مني مهارة كبيرة لأن أنصحه بأن يبعد عينه بقدر الإمكان عن الشمس. وبالتأكيد فإن العمامة تعد غطاء ممتازاً للرأس في المناطق ذات المناخ الحار، فهي تقي من ضربات الشمس. فكم من أوروبي لقي حتفه لأنه لم يعر أي اهتمام لما أثبتته التجربة العملية على مر العصور. وبالإضافة إلى غطاء الرأس، فإن غطاء الجسم، والنطاق الشرقي بطياته الكثيرة، يبعث على الصحة.

لذلك فإننا نقول لكلّ مسافر في مصر وسورية: " ضع حزاماً فوق وسطك" وهي تعني "احفظ نفسك من الحمّى والزحار". غير أن العمامة

لا تكفي، لأنها لا تحمي العينين جيداً. إذ لا بد أن يزداد انتشار الرمد في هذه البلدان، رغم أنه يعزى إلى التعرّض للهواء الليلي، وللرمل الناعم في مصر، وللغبار الطباشيري في سورية، وذلك لأن العمامة لا تقي جيداً العينين من أشعة الشمس. ويبدو أن العمامة ذات الحواف العريضة التي يعتمرها اليهود هي أفضل غطاء للرأس قيد الاستخدام في سورية.

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى الزوار من القرويين. فقد وجدت نفسي مضطراً لأن أجس نبض، وأفحص ألسنة ما يقرب من عشرين شخصاً. وقد مارست هذه المهزلة بجد كبير لا يمكنني أن أتصوره، وأعقب ذلك مناقشة عامة. وقد انهالت عليّ أسئلة عن إنكلترا؛ وأشار مضيفي إلى بندقيتين معلقتين على الحائط، من الواضح أنهما كانتا من طراز براماجيم.

" لا جزية بعد الآن"، وليحيا الإنكليز! "دوّى صوت في أرجاء البيت.

ورغبة مني في الإطلاع على المنطقة المجاورة قبل أن يحين موعد الغروب، أجّلت الجلسة ومضيت عبر أشجار التوت إلى أحد المنحدرات التي كنت قد وصفتها. وعلى حافة الهوّة الواسعة كانت توجد صخرة هائلة، بدا أنها على وشك، بأقل حافز، أن تهوي إلى القاع. إلا أن ما فاجأني هو رؤية العديد من الصبية يلعبون ويقفزون فوقها! وكانوا يتضاحكون وهم يحرّكونها، وللمرة الأولى في حياتي أرى صخرة تتأرجح.

وكما أدركت فيما بعد، فإن رؤية إفرنجي في هذه البقعة النائية من البلاد كانت تكفي لتثير اهتمام الإناث القابعات في الأكواخ المجاورة، وعلى سطوح البيوت القريبة التي تعج بالنساء والأطفال. وكان معظم الشباب

يتمتعون بطلعة جميلة؛ وقد اقترب مني أحدهم وتحدث معي بلغة تركية ركيكة، وكان طويلاً، أسمر وقد اكتسبت ملامح وجهه تقاسيم مخادعة. وكان هذا الشاب قد سيق إلى الجندية، وخدم في الجيش في مصر ومن ثم انتقل إلى ماراش بقيادة إبراهيم باشا: وكانت ملاحظاته الشريرة وفضوله وحب استطلاعه الماكر تثبت أن التدريب الذي كان قد تلقاه في المعسكر جعله وغد القرية.

قدم لي مضيفي على العشاء طبقاً من الأرز ودجاجة مشوية مع زبيب، ثم قدم لي القهوة. وبعد الغروب غصّت الغرفة بالقرويين مرة أخرى، وجدّدت معرفتي بالعُقَّال*. وسُئلت إن كان يوجد عُقَّال في إنكلترا؟ فقلت "نعم، يوجد الكثير منهم". "وهل يوجد جُهَّال؟" فأجبت "نعم، يوجد الكثير منهم".

* يقسم الدروز إلى عُقَّال وجُهَّال.

الفصل الثاني

دمشق - الأسواق - الخانات - البيوت
المقاهي - الشوارع - الحمالون الهنود

في اليوم التالي توجهت إلى البقاع، الذي يقع بين لبنان وسلسلة جبال لبنان الشرقية. ويبدو أن تربة هذه الجبال، أصيبت بالحت نتيجة عملية عضوية، وأصبحت عارية وانجرفت إلى السهل: ولا تبدو أرض أكثر جدباً وحمرة، كمشهد هذه السلاسل من البقاع، ولا يبدو شيء أكثر خصباً بشكل طبيعي أكثر من البقاع عندما تنظر إليه من لبنان ومن فوق سلسلة جبال لبنان الشرقية، الذي يمتد على مدى البصر، حيث تقبع لومبارديا الصغيرة، التي لعلها صور البندقية. إلا أن هذا الوادي الغريني الواسع، الذي كان يعجّ بالسكان فيما مضى، يكاد يكون مهجوراً في العديد من الأماكن، شأن الريف في روما. والقرى البائسة التي لا ترى من بعيد قليلة جداً. وقد تُركت هذه الأراضي الشاسعة، التي يجري فيها عدد كبير من السواقي التي تنبع من التلال، لكي ترعاها قطعان الماعز، بدلاً من أن تنتج محاصيل رائعة من القمح.

بعد أن تجاوزت البقاع، بدأت أهبط من سلسلة جبال لبنان الشرقية، وشققت طريقي عبر وادي القرن. وبعد أن أمضيت ليلة في قرية بائسة مؤلفة من أكواخ من الجلد المدبوغ، تدعى خان ديماس، وصلت بعد وقت طويل إلى دمشق.

توجهت إلى الدير الإسباني، لكني سرعان ما أحسست بالتعب بسبب الرحلة، رغم الدماثة التي أبداها لي رئيس الدير. وعندما عدت إلى جدران الدير العارية، انتابني شعور بالكآبة والسخط بسبب التباين الكبير بين الترف الرائع في البيوت التي رأيتها في خلال زياراتي. وبعد فترة طويلة، أقمت في منزل أحد السكان المحليين، بعد أن عثرت على غرفة تدخل البهجة إلى النفس تطل على حديقة سور المدينة، وفي مكان قريب جداً من المكان الذي هرب منه القديس بولس في سلة كما تقول الروايات.، وكنت أدفع عشرين قرشاً في اليوم، أو شيئاً يقل عن الدولار، لقاء إقامتي في هذه الغرفة مع وجبة طعام، وذلك لأن الطعام رخيص جداً في دمشق.

وبسبب غباء الدليل السياحي الذي كان يرافقني وكبر سنه، صرفته من خدمتي، واستعنت بشخص حسن الإطلاع ينتمي إلى طائفة الروم الكاثوليك، الذي أصبح دليلي لكي أطلع جيداً على المعالم الخارجية للمدينة.

سرنا على طول الدرب المستقيم: فبعد أن زرت الحي المسيحي أولاً، الذي لا يوجد فيه شيء يجعله مميّزاً، والذي يبدو من الخارج أكثر بشاعة من شوارع دمشق غير الجميلة بشكل عام، وصلنا إلى سوق فيه محلات لبيع الأطعمة والمشروبات. صحون كبيرة عميقة من الرزّ، مكوّمة فوق بعضها، يزينها البيض على نحو رائع، وتحفها جرار من اللبن والسمن والعسل. ومعظم هذه الجرار مصنوعة من الزنك، وعليها نقوش. وبما أن الأسواق مغطاة جيداً، وتُرشّ بالماء عدة مرات في اليوم، فإنها تصبح شديدة البرودة في الطقس الحار.

واصلنا طريقنا عبر قوس روماني أصبح مع الزمن أسود فاحماً، وكان ينبعث دخان شواء لحم الخروف (الذي يباع هنا لتناوله لطعام الفطور)، وكان الطريق شديد الانخفاض مما يدل على أن التربة الأصلية كانت أدنى من المستوى الحالي بعدة أقدام. ثم وصلنا إلى سوق العبي، وهو سوق تباع فيه الصناديق الخشبية والمفاتيح، وكان مظلماً وكئيباً في أثناء الظهيرة. ولدى انعطافنا فجأة إلى اليمين، دخلنا سوقاً مضيئاً، كانت الدكاكين فيه مطلية بطلاء جديد ومذّهبة: وكنت ترى هنا أكواماً من تبغ النارجيلة. إذ يفضل الناس هنا تدخين النارجيلة على تدخين القليان. وهي واسعة الانتشار في سورية كلها، وتشكّل مادة رئيسية للواردات من بغداد.

وينفتح على هذا السوق خان أسعد باشا، الذي يعتبر من أجمل الخانات في دمشق، ويُعد صرحاً عظيماً. وقد بناه أسعد باشا المعروف، مؤسس أسرة العظم الثرية وذات النفوذ. وقد حكم أسعد دمشق في حوالي منتصف القرن الماضي بعدل ورقة وحماس. وقد شغل أكثر من ثلاثين فرداً من أفراد هذه الأسرة منصب باشا منذ نشأتها وحتى أفولها.

وقد عرّفني صديقي إلى بعض التجار، ودار الحديث حول المبادلات التجارية، والواردات من الصناعات البريطانية. فقد قال أحد التجار: "بدأت النقود تصبح شحيحة سنة بعد أخرى. فقد ازدادت واردات المنتجين البريطانيين على نحو مروّع؛ ففي الوقت الذي تبيعون فيه منتجاتكم المحلية في دمشق بأرخص الأسعار، ولا تشترون منتجاتنا في المقابل، فإن هذا الأمر يعتبر سيفاً ذا حدين، إذ إن ذلك يستنزف الذهب من البلد".

وقلت: "قصّروا بكرة الحرير بدلاً من كونها طويلة هكذا، وعندها سنشتري من التوت الذي تنتجونه أكثر مما تستطيعون إنتاجه. ثم لا تتوقعوا منا أن نشتري القطن السوري الرديء، في الوقت الذي يمكننا فيه أن نشتري القطن المصري أو الأمريكي الجيد".

وهنا تدخل تاجر بغدادي مسن وقال مبتسماً: "يمكن أن يؤدي التبغ إلى تعديل الميزان التجاري بسهولة. ففي سورية ترتدي جميع السيدات ثياباً من الصناعة البريطانية. فإذا ردّت جميع السيدات في إنكلترا هذا المعروف بتدخين قليل من التبغ، فعندها يصبح بوسعنا أن نسدد ثمن ثياب نسائنا من إنتاج ما نزرعه، ويعود الميزان التجاري من جانب إنكلترا إلى مستواه الطبيعي".

ولدى مرورنا بسوق جقمق قمنا بزيارة عدة خانات فيه، لكنها كانت جميعها أقل جمالاً وبهاء بكثير من خان أسعد باشا. ففي الخان المصري لاحظت بشرة رواده السمراء. ويقع بقربه سوق حمص، وهي مدينة معروفة في سورية بحمق سكانها، إلا أنه من الملاحظ أن الأذكياء في هذه المدينة يتمتعون بقدر كبير من الذكاء، ومن الأمثلة التي يستشهد بها الناس على ذلك، أسعد باشا الذي ذكرته، وحنّا، وزير مالية محمد علي، وبطرس كرامي، سكرتير الأمير بشير الفطن، الذي يعد كذلك من كبار الأدباء والمثقفين العرب بين مسيحيي سورية. ويوجد في دمشق ٣١ خاناً.

بعد أن ودعت صديقي المسيحي، مضيت في طريقي لكي أسلم رسالة تقديم إلى أحد أعيان المدينة. وفي نهاية أحد الشوارع الكئيبة، حيث كانت

الطوابق العليا الناتئة تكاد تلتقي ببعضها، وتحجب أشعة الشمس، توقفت عند منزل الأفندي. ودلفت من باب واطئ لن يكون بوسعي أن أدخل منه لو كنت منتصب القامة، ووجدت نفسي في ممر مظلم ينتهي بباحة مرصوفة بحجارة ناعمة مصقولة، انتصبت منها شجرة برتقال جميلة تكاد تصل فروعها إلى السطح؛ وبما أن جدران البيت كانت مرتفعة، فقد تراءى لي أن هناك حاجة إلى الضوء. وعلى أحد طرفي الباحة، كان يقع إيوان الاستقبال، وعلى الطرف الآخر كانت توجد غرف الخدم.

استقبلني الأفندي بتهذيب جم، وقلت له إني آمل أن أُعجب بدمشق. وبعد بضع دقائق، دخل خادم يرتدي ثياباً أنيقة ويحمل صينية عليها كأسين من الشراب، لون أحدها بلون شراب الليمون العادي، ولون الآخر قرمزياً غامقاً. وكان الكأسان مكوّرين، مصنوعين من الكريستال المصقول ولهما غطاءان. وتبعه خادم خلاسي شديد السمرة، وراح يوزع علينا مناديل مطرّزة بالذهب، لنمسح بها فمنا. وأعقب ذلك النارجيلة والقهوة. ولكي يتيح لي فرصة الإطلاع على المنزل، أرسل الأفندي بتهذيب شديد إلى سيدات المنزل يعلمهن بوجود رجل غريب، فسرعان ما انسحبن إلى الغرف في الطابق العلوي. وبعد أن أبلغنا الخادم الخلاسي بأن كل شيء قد أصبح جاهزاً، استوينا واقفين، واجتزنا ممراً مظلماً آخر، ثم وجدنا أنفسنا في الباحة المخصصة للحريم. عندها، وفي هذه اللحظات بالذات، فهمت لماذا كان الرّحالة يتحدثون بحماس وحرارة عن جمال البيوت الدمشقية: إذ بدا أننا انتقلنا من المطهر إلى الفردوس. فقد كانت الباحة الضخمة مبلطة بالرخام المصقول من

مختلف الألوان، ومرصعّة بشكل جميل. وفي وسط الباحة، كانت تنتصب نافورة، يبلغ طولها ثلاثين قدماً، وعرضها نصف ذلك، وكانت تتدفق منها كميات غزيرة من الماء من داخل رؤوس أفاعي نحاسية، وكانت تظللها أشجار برتقال ونارنج ورمان. وفي الليوان (الإيوان) المقبّب الضخم في الطرف الآخر كانت توجد أريكة، ونظراً لوقوعه في الجهة الشمالية فلم يكن يتعرض لأشعة الشمس أبداً. وكما هو الحال في مصر، فإن الطابق الأرضي مبلط بالحجارة، ومطلي بطبقات متعاقبة من اللون الأبيض والأزرق والأحمر، هذا بالإضافة إلى النباتات الشديدة الخضرة المزروعة في أحواض النباتات والزهور التي تفصل بينها بلاطات من رخام كرارا. وقد أعجبت بذلك إعجاباً كبيراً. أما المسافة التي تفصل بين الحوض والقبة، فهي مرّصعة بإتقان شديد، والرخام المستخدم من أندر الأنواع الموجودة في أي جزء آخر من الباحة.

أما الغرفة الرئيسية، التي تنفتح على الجزء الأوطأ من الليوان، فكانت مرتفعة وواسعة، وبالغة الروعة. وكان الجدار كله من الحجارة، الموشاة بالزخارف العربية. أما الشيء الأكثر غرابة فهو وجود قبة صغيرة من الرخام الأبيض تدعمها أعمدة صغيرة جدا ذات رؤوس مذهبّة، تتخللها ثقوب وزخارف إسلامية متشابكة. أما الأرضية المرتفعة، فقد كسيت بسجادة فارسية باهظة الثمن، والأريكة التي تحيط بالغرفة من الأطلس الموّشى بالزهور. وكانت تصطف على الرفوف العديدة زبادي خزفية كبيرة قديمة. وبصورة عامة تملكني شعور بأنّ روعة ليالي ألف ليلة وليلة التي طالما كنت أبحث عنها قد وجدتها في نهاية المطاف.

ولم تكن الأحاديث التي دارت بيننا ذات أهمية: ولم يكف الأفندي عن السعال، وكان يعاني من مضاعفات اضطرابات مختلفة، لذا كان من الواضح أنه لم يكن على ما يرام، فاضطررت إلى اختصار اللقاء.

كنت أوّد أن أصف زياراتي التي قمت بها إلى بيوت عديدة أخرى، لكنني وجدت تشابهاً كبيراً في أسلوب بناء البيوت جميعها؛ وبالطبع كانت بعض البيوت أصغر حجماً وأكثر تواضعاً، في حين كانت بيوت أخرى أكثر ضخامة وروعة. وبشكل عام يوجد لكلّ بيت من البيوت الكبيرة باحتان، داخلية وفيها حوض ماء (يطلق عليه في دمشق اسم *البحرة*، في حين يطلق عليها في أجزاء أخرى من سورية اسم *بركة*). وتوجد في كلّ باحة تقريبا أشجار برتقال أو ليمون أو رمان؛ لكنني شاهدت بيتاً واحداً فقط تنتصب فيه شجرة نخيل، وذلك لأن مناخ المدينة شديد البرودة في الشتاء ولا يمكن لهذه الشجرة أن تحتمله. وتصف عادة أصص الأزهار حول حوض الماء، ويوجد في بعض البيوت الكبيرة أجمة أو عريشة من الكرمة.

ولا تصلح القاعة أو الشقة الرئيسية للسكن في الشتاء، بسبب البرودة المنبعثة من الرخام والماء الجاري. وفي الشتاء، تُكسى جدران غرف البيوت الكبيرة بألواح من الخشب، تطلى عادة بألوان داكنة، تتخللها ألوان ذهبية، وفيها أشغال يابانية، ومرايا صغيرة.

ومن المؤسف حقاً أن الإسلام يحرّم فن رسم الأشكال البشرية والطبيعة الخارجية. فمن يعرف، فلربما نشأت في هذه المدينة مدرستها الخاصة في الرسم والنحت تنافس مدارس العواصم الإيطالية؟ فقد ظهر الفن الحديث في عصر يسوده الجهل المطبق، وظهرت فيه براعة يدوية هائلة، بالإضافة إلى

بروز ذوق رفيع في زخرفة الكنائس والمباني الخاصة، التي لم تكن الزخارف فيها غريبة ومثيرة، بل جزءاً لا يتجزأ من المبنى نفسه. وسرعان ما هبط الفن من مقامه الرفيع، عندما جاء عصر الرسم على الأثاث الفاخر. فعندما يرى المرء الإبداع الذي يظهره الفن في بعض البيوت الدمشقية، لا يسع المرء إلا أن يشعر بالأسف للإجحاف الشديد الذي ألحقه الإسلام بتحريمه الرسم، والظلم الذي تمارسه الحكومة منذ قرون، مما جعل الزخرفة الخارجية للبيوت شيئاً غريباً على عادات السكان، ولكانوا أحرزوا تقدماً في سياق الحضارة. فليس لدى سكان هذه البلاد أدنى فكرة عن رسم الأشكال والمناظر الطبيعية. وقد أضحت الأساليب الشرقية والغربية في الزخرفة والرسم قديمة ومتمايزة، ولا أريد أن أرى إقحام الأفكار الأوروبية، الأمر الذي سيؤدي إلى ولادة شيء هجين، بشع ومنحط. وقد أشار إليّ أحدهم بأن أقوم بزيارة أحد البيوت الحديثة التأثيث والتي تعتبر جميلة، إلا أني أحسست بالصدمة عندما وجدت أن الرسام قد استعاض في أجزاء عديدة من الغرف الرئيسية، عن الزخارف العربية المحلية الغنية والجميلة بمناظر طبيعية كريهة، والتي يبدو أنه كان قد نسخها عن صحون وأواني فخارية معروفة. ولزيادة الطين بلة، وضع صاحب البيت في قبة رائعة الحفر ومرصعة، جزءاً من لوحتين فرنسيتين تافهتين مطبوعتين تصوران الصيف والخريف، لا تساوي الواحدة منهما أكثر من خمسة قروش.

ومن الأوصاف الجميلة والرائعة عن المقاهي الدمشقية التي تحدث عنها بعض المؤلفين، كنت أتوقع أن أرى شيئاً مغايراً تماماً عما شاهدته في الواقع. ففي رأي هؤلاء السادة، تعتبر مقاهي دمشق أرفع مقاماً من مقاهي باريس.

فإذا أخذنا وفرة المياه المتدفقة، وظلال الأشجار الوارفة في الطقس الحار، فهي أفضل بكثير من أيّ شيء يمكن لرسامي البيوت أو النحاتين، أو الفنانين الذين يطلون بالذهب أن ينتجوه، ولعلهم كانوا محقين فيما ذهبوا إليه، إلا أنه لا يمكن لشيء أن يكون أكثر بدائية بشكل يدعو للرثاء من الأسقف، والمقاعد، والحصر لتأمين راحة رواد المقهى. وإني آسف لتبديد أوهام محبي الشرق؛ فعند جلوسي في مقهى باب السلام، كنت أضطر أحياناً إلى أن أنهض وأغادر، وذلك بسبب نفحة من الهواء تهب عليّ من بعض الأكوام التي تكاد تجرد دمشق من حقها الذي يجعلها يطلق عليها "رائحة الفردوس". وباستثناء هذا العيب العرضي، فإن للنباتات الرائعة، ولخرير المياه المتساقطة، وألوان ألبسة مختلف مجموعات المدخنين ومحتسي القهوة الزاهية، قوة ساحرة بالنسبة للرحالة الأوروبي.

ويوجد في بعض المقاهي الكائنة في الشوارع الرئيسية حكواتي، يكون عادة رجلاً مسناً شهد أياماً أفضل ويرغب في التحدث عنها. وغالباً ما يكون الموضوع الذي يقوم بروايته عن ليالي ألف ليلة وليلة، لكنه في معظم الأحيان يروي قصصاً عن عنترة أو على الزيبق المصري. ولا يكسب الحكواتي أكثر من قرشين أو ثلاثة قروش في اليوم. ويعمل الحكواتي في بعض الأحيان مكيّساً في الحمامات العامة لزيادة دخله القليل.

كنت قد ذكرت أن شوارع دمشق ليست جميلة. فهي ضيقة ومبنية من الطين، وفيما عدا الشوارع الرئيسية، لا يمكن أن يخطر لك أنك في عاصمة سورية، بل في قرية كبيرة. بالإضافة إلى ذلك، فإن النوافذ الناتئة، التي تدعمها أعمدة خشبية قبيحة، تحجب الضوء والهواء. وبالإضافة إلى انحناء

الشوارع والتوائها، هناك عيب آخر وهو أن عرض هذه الشوارع غير متساو: ففي بقعة ما من الشارع، يمكن لعربتين أن تتجاوزا بعضهما، وبعد خمسين خطوة قد يصعب على دابة محمّلة من طرف واحد أن تجد منفذاً لها. كما أن الأرصفة رديئة جداً، وبما أنها غائرة في الوسط، يتحول الدرب الذي تسير عليه الخيول والبغال في الطقس الماطر إلى بركة من الوحل، أما الرصيف الذي يسير عليه المشاة فيصبح نوعاً من المستنقع، بسبب الأوحال التي تجرفها الأمطار من البيوت، والتي لا تجد لها مصرفاً لعدم وجود بالوعات أو زبالين. إذ يكاد السير في أثناء هطول الأمطار يصبح شيئاً مستحيلاً. وفي حين يمتطي الأغنياء الخيول، يتنقل الأفراد من الذكور والإناث من الطبقات الأكثر تواضعاً، وهم ينتعلون قباقيب عالية أو أحذية طويلة. ومن الناحية الأخرى، فإن المرء يكاد يختنق من الغبار في فصل الصيف.

إن ما ذكرته عن رتابة الشوارع الفظيعة، لا ينطبق على الأسواق أو على حارة الدرويشية، التي لعلها تعتبر الشارع الشرقي الحقيقي في الشرق. إذ إن التنوع الكبير في المقاهي والدكاكين وأكشاك البائعين الجوالين، يجعله يبدو وكأنه معرض أو مهرجان. ويحيط به السوقان الرئيسيتان، والسرايا ومساجد عديدة. وعندما كنت أرغب في الترويح عن نفسي، كنت أجد فيه مصدراً لا ينضب من التسلية والمتعة. فقد كنت أستثمر كلّ شيء غير موجود يمكن أن يذكّرني بالغرب، سواء كان حياً أو ميتاً، بسحر لا يمكن أن يفهمه إلا الذين يتبرمون من الشرق. إذ كنت ترى الأفندية المحليين، والمشايخ الغلاظ ذوي الأشكال الغريبة وهم يتسكّعون ويختلطون

بالدراويش الذين جاؤوا من أكثر بقاع الأرض بعداً في آسيا، ومجاذيب لفحتهم الشمس لا تستر عريهم التام ورقة تين واحدة. وقد ترى هنا محلات يقوم العاملون فيها بطحن البن في هاون ضخم يتناوب على طحنه رجال أقوياء، بمدقات تشبه الصولجانات الثقيلة، حيث يتناوبون على دقها كما يطرق الحدادون الحديد بمطارقهم. وإذا انحرف المدق عن طريقه إلى الهاون وانزلق خارجاً، لربما أصبح الرجل أعرج مدى حياته، أو فقد ما لا يقل عن إصبع أو إصبعين من أصابع قدميه. وتعد أكشاك العصير ومحلات بيع الحلويات فريدة من نوعها: فهاهنا ترى طبق الكنافة الكبير الواسع، وعصير حب الرمان في القدح الضخم المنقوش، كالذي قدمه حسن بدر الدين إلى المخصي عندما نصب الوزير المسن عجيب خيامه في الميدان.

من هم جميع أولئك الرجال ذوي البشرة الداكنة الواقفين عند بوابات الخانات؟ إنهم رعايا وموالي فخامة ملكة بريطانيا، وجميعهم من الهنود، ومعظمهم من المسلمين القادمين من الهند الغربية، الذين يأتون إلى هنا عن طريق مكة المكرمة أو بغداد، وهم يحتكرون مهنة الحمالين. بل ويوجد لهم مسجد ووقف، أو مؤسسة كان أشخاص هنود أتقياء قد أوقفوها في الماضي، ويشرف عليها ناظر أو مفتش. وفي بعض الأحيان، يدّعي هندي وثني أنه مسلم لكي يحصل على صدقة من الوقف، إلا أن الناظر سرعان ما يكشف حقيقته ويطرده بعد التدقيق والتمحيص. ويحظى جميع هؤلاء بالحماية البريطانية، إلا أن الدراويش المتعصبين لا يقتربون من القنصلية أبداً، وفي وسط مجموعة مثيرة من السكان، فليس من المناسب إرغامهم على الاعتراف بالسلطة البريطانية. وذات مرة تدافع إفرنجي وحمّال يعمل في

الخان في وسط جمهرة من الناس، وأعقب ذلك مشادة جرت بينهما. وأقسم الإفرنجي بأنه سيجعل الباشا يصدر أمراً بضرب "جون التركي" بالعصا لوقاحته وتطاوله، وأقسم الحمال بالله ورسوله بأنه سيثأر من الإفرنجي، ولم يفهم أحدهما كلمة واحدة مما قاله الآخر. وأُرسل الإنكشاريون التابعين للقنصلية الفرنسية، وأجريت تحقيقات حول ذلك. وتبين أن الإفرنجي من الهند الغربية، وأن الحمال كان هندياً؛ وعندما علم الاثنان أنهما من رعايا الملكة، رغم أنهما جاءا من مكانين مختلفين، أغرقا في الضحك وافترقا بروح من الفكاهة.

الفصل الثالث

المسيحيون الدمشقيون

- القناصل - اليهود

آثرت أن تكون معظم ارتباطاتي خلال زيارتي الأولى إلى دمشق بالسكان المسيحيين والتعرف على عاداتهم وأساليب معيشتهم، وخاصة وأن فهم أفكارهم وفهم ديانتهم ومؤسساتهم المحلية بالنسبة للأوروبي أسهل من فهم السكان المسلمين. وآثرت أن أركز اهتمامي على المسلمين ومؤسساتهم خلال زياراتي القادمة إلى دمشق.

وبما أن قضية اليهود والخوري توما كانت قد أثارت حماساً كبيراً في دمشق، فقد قمت بزيارة دير الكبوشيين الذي كان يقطنه هذا الراهب، إلا أنه شغر منذ وفاته. وعندما دخلنا الدير، سمعنا صوت صرير البوابة. وعندما اجتزنا الباحة بدا كل شيء مقفراً، وغطى الغبار كل شيء في الغرف وبدت رمادية اللون وكئيبة. ورأينا لوحة زيتية صغيرة تصور الأب توما بريشة فنان فرنسي كان قد زار دمشق في السنوات القليلة الماضية. وأخبرنا مرافقنا الذي كان يعرفه حق المعرفة، إن التشابه بينه وبين اللوحة كبير جداً. وكان يبدو أنه يقارب الستين من العمر، وكانت قسماته تنم عن دماثته وسماحته وذكائه، وزادت لحيته البيضاء من وقاره ورزانته. وكان يقف إلى جانبه خادمه، وهو شاب في العشرين أو الواحد والعشرين من العمر، وهو يقدم له فنجاناً من القهوة. وقد اختفى كذلك على نحو غامض، ويعتقد أنه لقي ذات مصير سيده.

كان الرهبان الكبوشيون في دمشق رهباناً فرنسيين في الأصل، إلا أنه بعد أن نضبت موارد دخلهم التي كانت ترد إليهم من وطنهم الأصلي وتوقفت بعد الثورة الأولى، تفرق شمل الرهبان. وأعيد تشكيل الدير في ظل السلطنة، وأرسل الكاردينال فيش الأب توماسو إلى دمشق، وهو راهب شاب من ساردينيا يتمتع بالنشاط والذكاء. ويعرف الجميع أنه كان يزاول التلقيح، وقد تعرفت على عدة عائلات أعطى لقاحات لأفرادها: ووصفه الجميع بأنه كان رجلاً بالغ الاحترام، لكنه إذا كان لديه عيب، فهو أنه كان مولعاً بالمال أكثر مما كان يتوافق مع شخصية دينية.

يعتبر دير الروم الكاثوليك أكبر دير في دمشق، وهم يشكّلون الغالبية العظمى من مسيحيي المدينة. والكنيسة والدير جميلان وحديثا البناء. ومما أثار إعجابي على نحو خاص الزخرفة الخشبية للستارة عند المذبح، التي تعد نموذجاً لأسلوب جديد من الحفر والطلاء بالذهب على الخشب في دمشق. وقد بُني هذا الصرح من التبرعات الخاصة، حيث كانت المجوهرات والقطع النقدية الذهبية التي تتزين بها نساء الطائفة، المادة الرئيسية لهذه التبرعات - وهي تعد تضحية كبيرة حقاً، إذا علمنا أنه لا توجد في الشرق مودّة كبيرة بين الأزواج، إذ إن الزوجة كان يمكن أن تدع زوجها يدخل السجن في بعض الأحيان بسبب الديون المتراكمة عليه، ولا تقدم له القطع النقدية الذهبية المعلقة في عمامتها.

كان يوجد في دير الروم الكاثوليك عشرة كهنة أو اثنا عشر كاهناً، لا يجيد سوى واحد منهم اللغة الإيطالية، في حين يتكلم الكهنة الآخرون اللغة العربية، وقليل من اللغة اليونانية. وكانت غرفهم نظيفة، ولكلّ واحد منهم

سرير أوروبي مرتفع. وقد قمت بزيارة العديد منهم، ووجدتهم يجلسون القرفصاء على الأرضية التي تكسوها الحصر والسجاد، إلا أنه لم يكن يوجد كرسي أو منضدة. وبدا أنهم كانوا ذوي طباع جيدة ومتمدنين، لكنهم كانوا في غاية الجهل. وهم يستخدمون الإنجيل والرسائل والمزامير المطبوعة في روما باللغتين العربية واللاتينية بين سطر وآخر؛ غير أن قسيساً واحداً فقط، وهو شاب كان قد تعلّم في روما، يجيد هذه اللغة. وكان حفنة من الأطفال الكاثوليك البارزين يتعلّمون اللغة الإيطالية على يده. وقال السيد إنهم أذكياء ويتعلمون بسرعة، وأعرب عن أسفه لعدم وجود مؤسسة لتعليم المعارف العامة في دمشق.

كان عيد القديس أليعازر يصادف الثاني من نيسان من كل سنة، وجرت العادة على أن تقدم للأطفال ملابس جديدة، وإذا كانوا في المدرسة فكانت تقدم لهم هدايا صغيرة من النقود. وقد سررت جداً عندما شاهدت في ذلك الصباح ابنة مضيفي الصغيرة وهي ترتدي سترة جميلة من المخمل الأسود موشاة بخيوط ذهبية، وقد كُحِّل جفناها باللون الأسود بل بالأزرق، وطُليت وجنتاها بقليل من الحمرة. ولا تحصل العائلات الغنية في هذا البلد على التعليم ولا تتصل بالعالم، وتتركز جلّ طموحاتها على حبّ التبرج والتزين حباً في التباهي في مناسبات الأعياد. فلكل بلد أسلوبه في الحياة. وقد شاهدت في يوم عيد القديس أليعازر سيدة ترتدي سترة قرمزية موشاة بالذهب، وبنطالاً قطنياً ذا رسوم ملونة، وحذاء مغربياً أحمر، وعمامة تتدلى منها خصلات مضفرة من شعرها تصل حتى وسطها، وكان خداها مطليين باللون الأحمر، وعيناها تتألقان بالكحل - وكانت صاحبة كلّ هذا

التبرج متكئة على أريكة وتدخن نارجيلة - وهي تقدم لنا صورة غريبة عن فكرتنا عن الزوجة والأم.

يحتفل المسيحيون في دمشق بعيد الفصح. وهم صارمون للغاية في التمسك بالصوم الكبير. إذ إن الروم لا يتناولون السمك. وكما يقول الفرنسيون فإن أيام الأحد والاثنين والثلاثاء من عيد الفصح، تعتبر أهم من فترة عيد الميلاد أو عيد رأس السنة الجديدة في إنكلترا.

ويقوم ربّ كلّ عائلة بتأثيث منزله بأرائك جديدة، ويختار عيد الفصح للقيام بذلك، وذلك لعرضها والتباهي بها أمام الزائرين الذين يستقبلهم. وحتى عندما لا يتم شراء أثاث جديد، تُغسل البيوت ويُفرك البلاط، ويُقلب كل شيء رأساً على عقب. وتعتبر الفترة الممتدة منذ بداية نيسان وحتى عيد الفصح فترة عصيبة على البقّ والعناكب. وعندما تُخرج خصلات الصوف أو القطن من الفراش، فهي لا تُمشَّط بل تُنعَّم، وتُفتح بطريقة لم أرها في حياتي من قبل. إذ يحمل العامل في يده اليسرى قضيباً طوله خمسة أقدام تقريباً، يوجد في مقدمته قوس شُدَّ عليه وتر رفيع، ويهوي بالوتر بيده اليمنى على خصلات الصوف أو القطن. وترتدّ الآلة من على الأرض، مصدرة صوت رنين شديد، وتنفصل أجزاء من خصلات الصوف حتى تصبح كلها ناعمة.

وفي يوم الأحد من عيد الفصح يرتدي جميع المسيحيين أفضل ملابسهم. إذ يشتري الرجال عباءات جديدة مبطنة بالفرو ونعالاً خارجية وداخلية. والقلة ممن يرتدون عمامة بيضاء، فإنهم يرتدونها من الموسلين الرقيق. أما تجديد العمامة السوداء أو الشال الذي يلف حول الخصر، فلا يعد أمراً

ضرورياً. أما النساء فيجددن تلك القطع من أرديتهن التي يمكن تغييرها، ويرتدين جميع أثوابهن وحليهن الغالية التي ورثنها، التي يتم الحفاظ عليها بعناية فائقة. وتجري النساء زياراتهن وهن يرتدين هذه الملابس والحلي، ولا يكشفن عن وجوههن الغطاء إلا في بيوت الأقارب أو الأصدقاء الحميمين القريبة من بيوتهن.

وفي أيام الأحد والاثنين والثلاثاء من عيد الفصح، يستقبل صاحب البيت معارفه وأقاربه ويقوم برد تلك الزيارات، ويعتبر تجاهل هذا الأمر إهانة كبيرة. وتُثقل هذه العادة كاهل القناصل الأوروبيين، الذين يتعين عليهم رد عدّة مئات من الزيارات. ولا يقوم المسيحيون فقط بتأدية هذا الواجب، بل كذلك أعيان المسلمين في المدينة، ويظنون أن هذه المناسبة تشبه مناسبة عيد الأضحى عندهم، ويحرصون كذلك على زيارة القناصل.

وبعد انتهاء الطقوس الدينية لعيد الفصح يقيم المسيحيون الأغنياء مهرجاناً صغيراً. وقد دونّت في مذكراتي وصفاً قصيراً لأحد تلك المهرجانات.

استقبلنا مضيفنا في باحة الدار التي اكتظت بالناس، وجلسنا في غرفة صغيرة مزينة (القبة)، تكسوها الأرائك والسجاجيد. وتشكل القبة غرفة الجلوس في البيوت الدمشقية، حيث يلتقي فيها الهواء النقي والظل بشكل يدخل المتعة إلى النفوس. وقد ُقدّم العشاء على الطريقة الأوروبية بعض الشيء، إذ جلسنا إلى المائدة وقدمت لنا سكاكين وشوكات. وبعد أن قدم حساء المعكرونة، قُدم لحم خروف مُقطّع، وهليون، وألسنة حملان، وأنواع مختلفة من الخضار، منها بطاطا صغيرة، لذيذة المذاق تشبه الكستناء (لعله

يقصد الكمأة - المترجم)، وفي النهاية قُدم ديك رومي مشوي. وكنوع من الترحيب بالإفرنج الموجودين (القنصل الإنكليزي والقنصل الفرنسي وأنا)، قُدمت لنا الشمبانيا ونبيذ دو غراف. أما بالنسبة للسكان المحليين فقد قُدم البراندي السيء والنبيذ الأحمر المحلي المُحلّى بالسكر. وقد تعلموا قول الكلمة الإيطالية e viva التي حلت محل عبارة .."hip hip, hurra" وتتالت الأنخاب، وبدأ الحاضرون يزدادون صخباً، ثم انتقلنا إلى الشقة الرئيسية، التي كان يوجد في وسطها مصطبة عليها زهر الناردين والورد، بالإضافة إلى أوعية صغيرة للبخور. وجاءت الآن سيدات العائلة اللاتي لم يظهرن عند العشاء. وقُدِّم إلى الضيوف القليان والنارجيلة والقهوة، ووضعت نبتة صبّار صغيرة فوق الفحم المشتعل فوق النارجيلات فأضفت رائحة عطرة أكثر للتبغ.

ثم دخلت المغنيات - ثلاث سيدات عجائز من بغداد، يبدون بشحوبهن وهزالهن كساحرات ماكبث.

وضعت المساند أمام السيدة الأكبر سناً، ووضعت عليها طبلات صغيرة، في حين كانت المرأتان الأخريان تحملان الدفوف. وكانت تلك الساحرات يرتدين رداء أسود، وقد رسمن حاجباً اصطناعياً بالكحل بشكل مموج عبر جباههن، مما جعلهن يبدين أكثر كآبة وبؤساً. وعندما تأملنا قباحة مصاصات الدماء أولئك، بدأنا نعد أنفسنا لما سيلي ذلك، تماماً كما هو الحال في الأوبرا الأوروبية، عندما يطفئ قائد الفرقة الأنوار في المقدمة، قبل أن يقدم لنا بيريس "Peris" نحن الذين نشعر بالبهجة في ظل تلك الأنوار البنغالية وأقواس قزح. ودخلت تامبورجي خانم، المغنية

الأولى وسيدة الرقص، وهي مفعمة بالزهو. وكانت تقارب الخامسة والعشرين من العمر، وترتدي ثوباً أصفر من قماش جميل، موّشى بالأسود، يلتصق بجسدها، وترتدي بنطالاً من الحرير القرمزي، وكان وجهها مطلياً بالحمرة، وعيناها مكحلتين!

وفي البداية لفت شالاً من الكشمير حول خصرها، بل وركها، ثم ثبتته حولها لكي تتيح لجسدها وكتفيها مجالاً واسعاً من الحركة أثناء الرقص. وكان رأسها يشع ويبرق بالماس، الذي لا تقل قيمته، بتقدير سريع، عن ألفيّ جنيه.

وبدأ الحفل بغناء بعض الأغاني الفظة التي راحت الجوقة المؤلفة من النساء العجائز بترداها. وكانت الخانم تغني من أنفها تماماً، وكانت تسند يدها الممدودة على خدّها لكي يصبح الصوت أعلى. وكاد ضجيج الدفوف والطبلة وصوت المطربة المتباكي، يسبب لي الصداع. وسرعان ما غيّرت المغنية الأولى دورها، وراحت ترقص في وسط الغرفة، وقد حلت حلقات فولاذية كبيرة مثبتة إلى أصابعها مكان الصناجات. وبعد أن قامت بعدد من تلك الحركات النشطة من الرقص والإيماءات التي يعتبرها الناس في الشرق "الرقص" استعادت حركاتها، وعادت البغداديات المسنات إلى ضوضائهن.

عند حوالي منتصف الليل قدم لنا العشاء، الذي كان مؤلفاً كله من الحلويات الشرقية، وحساء ماء زهر البرتقال، الذي تطفو فوقه قطع رقيقة من الكاكاو، والفطائر المحشوة بالفواكه، والجلي بالحليب، والرزّ، واللوز وما إلى هنالك. وكان أبناء مضيفنا يقفون على رعاية الموائد مع الخدم، وعند

الساعة الثانية قدمت القلايين والقهوة في نهاية السهرة التي استمرت حتى الصباح.

والمسيحيون في دمشق، الذين يعيشون في حالة من الظلم، طيبون ومتواضعون. ونادراً ما تحصل في صفوفهم سرقة أو أعمال عنف وهم ليسوا جشعين، إلا أن حالات الإفلاس الاحتيالي من الأمور الشائعة في صفوفهم، وقلما يعتبرون ذلك شيئاً مخزياً. ويؤمن الكثير من الفقراء والجهلة بالخرافات، ويسعون للحصول على تعويذات من العين الشريرة، وعلى وصفات للعثور على كنز، وعلى مقاطع من الشعر التي تبعد البقّ بالسحر!

وبما أنه لا يسمح للمسيحيين بحيازة الأراضي، فإن جميعهم يعمل في التجارة والصناعة. وإذا رغب المسلمون الدمشقيون في السفر إلى الخارج، فإنهم يتوجهون إلى مصر والقسطنطينية وإزمير؛ أما المسيحيون فلا يتوجهون إلا إلى مصر، حيث يحقق العديد منهم نجاحاً، ويثبتون جدارتهم. أما المسيحيون الحلبيون في مصر فلا يحققون نجاحاً كبيراً، إذ يفضل المصريون الأسلوب المتواضع للدمشقيين على الأسلوب المباشر والفطن للحلبيين. ومن الناحية الأخرى، فقد تمكن بعض الحلبيين من جمع ثروات في القسطنطينية.

وقد وضع المصريون حداً لتعصّب المسلمين، الذي عانى منه المسيحيون كثيراً في الماضي. إلى درجة أنه لم يكن يجرؤ إفرنجي على الظهور في شوارع دمشق وهو يرتدي زيه الوطني قبل وصول إبراهيم باشا*.

---

* سمعت ذات مرة أن فرنسياً كان يسير في أحد شوارع دمشق وهو يرتدي زياً شرقياً، وقد أصيب بالدهشة لأن الأولاد عرفوا أنه إفرنجي، وأخذوا يقذفونه بالحجارة. فقد أحضر ثياباً شرقية من خزانة المسرح في مارسيليا، وتوقع أن يبدو كمسلم).

ولعلي أذكر أن بحري بك، مسؤول الإدارة المالية، كان مسيحياً، ولذا لم يكن أعضاء المجلس الآخرون يقفون احتراماً له لدى دخوله إلى المجلس. وقد اشتكى بحري بك إلى إبراهيم باشا، إلا أنه، كنبيل ماهر، لم يذكر شيئاً عن الازدراء لشخصه، بل شدّد على عدم المبالاة بالوسام المعلق على صدره، الذي يدل على الرتبة التي منحه إياها علي بك. فتوجه إبراهيم باشا بعد بضعة أيام إلى الديوان، فوقف جميع الأعضاء، وقبل أن يجلسوا، قال إبراهيم: "تعال إلى هنا يا بك" فتقدم حافظ بك، وهو مسلم، فقال له إبراهيم باشا: "لا، أقصد بحري بك". فانسحب حافظ مرتبكاً وعندما اقترب بحري بك، قال: "بيورون" أي تفضل واجلس، وتوّجه إلى باقي أعضاء المجلس قائلاً "أتور" أي اجلسوا. وبعد ذلك بدأ المجلس يقف لدى دخول بحري بك.

كان الاحتلال المصري العصر الذهبي بالنسبة للمسيحيين. إلا أنه بعد أن استعاد السلطان سيطرته على سورية، عاد نجيب باشا وأحيا التعصّب القديم. وبدأ يأتي إلى المجلس بأشد الأشخاص تعصباً في المدينة.

وكان قد تم اختيار الشخصين اللذين يمثلان المسيحيين، وهما من أصحاب الثروة، لخجلهما وعدم قدرتهما السياسية. وكان أول موضوع تناوله هذا المجلس الاقتراح بإعادة المسيحيين إلى وضعهم القديم من العبودية والظلم، ومنعهم من ارتداء العمامة البيضاء، وامتطاء حصان، وأن يضعوا حبلاً بدلاً من زنار أو شال؛ وكان الممثلان المسيحيان يجلسان صامتين. وسرعان ما برزت شخصية نجيب باشا المتعصّبة. فقد أعلن أنه لا يرغب في وجود كتبة من المسيحيين في السرايا، وأنه يكره الكفار. وسرعان

ما انتقل هذا الشعور إلى الأشخاص المحيطين به. إذ ذهب أحد الشبان المسيحيين إلى كيخياه ليحصل على عمل. وعندما دخل الشاب سأله الكيخيا إن كان مسيحياً أم مسلماً. فأجاب الشاب "أنا مسيحي"، فقال الكيخيا: "يجب أن تنزع تلك العمامة البيضاء قبل أن أعهد إليك بأي عمل".

وكانت شخصية الممثلين المسيحيين، اللذين كانا لا يحملان أية أفكار، أو لم تكن لديهما القدرة على الإعراب عنها، ضمانة بأنهما لن يحاولا القيام بأي معارضة في المجلس تجاه مشاعر التعصب إزاءهم. وقدم سليمان أفندي، وآخرون، برهاناً على أفكارهم بحرية المناقشة، بقوله إنه إذا أبدى الممثلون المسيحيون أي معارضة فإنهم سيودعون السجن بسبب طيشهم.

بعث لي السيد ويري، قنصلنا الذي لا يمكنني أن أوفيه حقه، دعوة للقاء سليم باشا وكوتشوك رضا باشا وحاشيتهما؛ وكان يطلق على سليم باشا قائد سورية. وبعد العشاء، أخذت أوركسترا مؤلفة من أربعة أو خمسة موسيقيين يونانيين تعزف وتغني لتسلية الحاضرين، عدّة مقطوعات موسيقية ذكّرتني بالمعزوفة الغجرية "بنات من تيميشوارا". وقد انتهت الحفلة بارتجال ملحمة كبيرة لا تقل عن ثلاثين بيتاً من الشعر، تصف تاريخ تركيا الحديث، تبدأ بمرثية للسلطان محمود، وتنتهي بثناء ومديح للحنكة والمهارة التي أظهرها سليم باشا في عكا!

أما رضا باشا، الذي قاد القوات في البوسنة، فقد قدم لنا وصفاً يخلب الألباب عن جمال الغابات وسحرها في تلك البلاد في الصيف، مما جعلني أتساءل لماذا لم يقم أحد من مواطنينا بزيارة تلك البلاد بعد.

وقد وفرّ لنا مضيفنا الدمث كلّ أنواع الترف والمتعة التي يمكن أن تمنحنا إياه دمشق. وكان يتحدث التركية بطلاقة تدعو للإعجاب. غير أنه سرعان ما توقفت الأحاديث، لأنه يبدو أن سماع الموسيقى وتدخين القليان، يعد ترفيها كافيا للأتراك الحاضرين، وهم في طبعهم أكثر جدية وصمتاً بكثير من العرب.

وفي الأول من أيار، عيد مهرجان ملك الفرنسيين، سار القنصل الكونت راتي مينتون في موكب من منزله يرافقه جميع الكاثوليك إلى دير تيرا سانتا للاتين، حيث أقيم قداس. وكان دور القنصل السياسي هنا يتمثل في التقرب من الكاثوليك بقدر ما بوسعه والاندماج بهم: وكان يرتدي بدلته الرسمية، أو كما يطلق عليها العرب "يلبس مثل ملك". وبعد أن خرج من الكنيسة، أخذ الروم الكاثوليك يجدون متعة بإطلاق أعيرة نارية من بنادقهم، وكان الناس يهتفون "عاش الملك".

وفي المساء، أقام القنصل مهرجاناً للكاثوليك الذين قدموا وهم يرتدون أفخر ثيابهم. وأضيء عدد كبير جداً من المصابيح الملونة فوق الجدران المزينة بالزخارف العربية، وفوق أشجار البرتقال، والأشجار الدائمة الخضرة، فيما كانت أعلام فرنسا وإنكلترا وتركيا ترفرف فوق الجميع. وعند الغروب، وصلت فرقة الباشا وعزفت لنا مقطوعات مختلفة من بيليني ودونيزيتي. وخلال هذا الوقت، كانت النساء المسيحيات والمسلمات يتقاطرن زرافات ووحدانا، ويصعدن الدرجات، ويأخذن أماكنهن فوق سطح المنزل. وكانت المسيحيات يتخذن جانباً، والمسلمات جانباً آخر. وعندما نهضنا عن الموائد، رأيت ل-، وهو من الروم الكاثوليك، يضايق القنصل بحديثه عن زوجته، التي قيل لي، إن جمالها عادي جداً: والتي كانت تنتظر في الخارج برفقتها جارية

سوداء. إلا أنه قبل أن يسمح لها بالدخول، رغب من القنصل أن يصدر أمراً إلى الموسيقيين ألا ينظروا إلى الأعلى نحو سطح المنزل حيث توجد النساء، وذلك لأن هؤلاء المسيحيين الشرقيين يعتبرون أن رؤية المسلم وجه نسائهم انتهاكاً صارخاً للحشمة والأدب. أما القنصل المسكين، فلم يعرف كيف كان بإمكانه أن يحافظ على مزاجه أو جديته، وقال له بروح من الفكاهة بأنه واثق من أن نظرات الموسيقيين إلى الأعلى لن تتجاوز زاوية خمس وأربعين درجة، أي ستتركز على المساحة البيضاء الواقعة بين النوافذ والإفريز. وبعد أن هدأ ل- بعض الشيء، ذهب ليحضر زوجته. وتلا هذه الحادثة رقص على الحبل، "شقلبات أرضية وعالية"، وألاعيب قام بها مهرجّان اثنان. وكان المهرّج رجلاً فقيراً بائساً يناهز عمره الخمسين سنة، وكان حليق الرأس ويرتدي ثياباً رثة: وبدا أن المرح الرئيسي صدر عن المهرّج الآخر الذي أخذ يسخر من لحيته الطويلة، التي تعتبر في الشرق شيئاً مقدساً جداً لا يسمح بالعبث بها بهذا الشكل. وقد أحدثت النكات العملية الخشنة التي قام بها المهرّج ضحكات وقهقهات عالية من الجمهور، وكان تقليده لنهيق الحمار رائعاً. وبعد عرض رائع على الحبل المشدود، جاء ل- مندفعاً نحو القنصل، وبشيء من الذعر أعلمه أن بعض النساء المسلمات اختلطن بالنساء المسيحيات لكي يتمكنّ من رؤية هذين النصّابين على نحو أفضل. "حقاً!"، قال القنصل وسأله: "قل لي وهل عضضن النساء المسيحيات"، فأجاب:" لا، لكنّهن اختلطن بهن".
ومن الواضح أن الدهشة انتابت ل- لأن القنصل لم يشاطره أفكاره في الفصل التعصبي. وتقدمت على الفور، وعرضت عليه طريقة يمكنني فيها أن أفصل الغنمات عن العنزات، إلا أن ل- المسكين استغل الفرصة وسحب امرأته غاضباً في ساعة مبكرة.

يوجد ما يقرب من ثلاثة آلاف يهودي في دمشق. إلا أنه منذ وقوع الزلزال الذي أصاب مدينة حلب، أخذت أعدادهم تزداد بسبب الهجرة من حلب وأصبح عددهم يقارب الخمسة آلاف شخص. ويتمتع اليهود حالياً، من خلال رئيسهم المعلم رافائيل، بنفوذ كبير. ومن المعروف أن هذا الرجل في غاية الثراء، وهو كبير صرافي حكومة السلطان في دمشق. ومن الملاحظ أنّ جميع الكتبة الذي يعملون في الخزينة هم إمّا من اليهود أو من المسيحيين. وذات صباح قمت بزيارة هذه المؤسسة، ووجدت أن الطابق العلوي يشغله كله المسيحيون. ولم تكن ترى كرسياً أو طاولة مكتب، بل كان الكتبة يجلسون القرفصاء فوق حصرهم وسجاجيدهم، منشغلين في الكتابة وتسجيل الأرقام، مما جعلني أشعر أني في ورشة للخياطة. ودعاني الباشي كاتب، أو الكاتب الرئيسي، للجلوس على سجادته، وأدركت أن بعض الكتّاب من حولي هم من أبناء بعض المسيحيين البارزين في المدينة. وفي الطابق الأسفل كان جميع الكتبة من اليهود، حيث كان يتوسطهم المعلم رافائيل، الذي كان مشغولاً بتدقيق حساباته، وطلب تسديد دفعة من المال من صندوق متين ضخم. وتبرز قوة رأيه في ملامحه القوية، التي تبدأ بلحية رمادية كثة جداً، والتي كانت ستمنح الفنان رامبراندت موضوعاً جميلاً للوحاته. ويمارس هذا الرجل نفوذاً لا حدود له على إخوانه في دمشق.

والمعلم رافائيل- كبير أسرة فارهي، التي كانت أغنى عائلة في سورية لفترة ستين سنة، رغم تعرضها للقسوة مرات عديدة على يد الحكومة التركية. وكان المعلم رافائيل لا يزال يملك دخلاً أكبر من أيّ شخص آخر في سورية من تعاطيه للتجارة. ففي كل قرية من قرى البشالق يوجد باشي،

يقدم قروضاً للفلاحين، ويستعيدها عند الحصاد، بعلاوة قدرها ثلاثين بالمائة. وبما أن النقود لا تبقى أكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر، فكان يحقق ربحاً هائلاً. وكان فارهي يقرض المال بهذه الطريقة إلى مائتي قرية. أما الطريقة الأخرى في جمع المال فكانت تتم بواسطة الشراكة مع الباشا. فمن القروش البيضاء عديمة القيمة، كانت قيمة الغزي الذهبي تزيد بنسبة خمسة إلى عشرة في المائة. وكان ينفق كلّ ما بحوزته من مال نقدي عندما يصل الغزي إلى أقصى قيمة له. وفي لحظة مناسبة يحددها المصرفي والباشا، يخفضان قيمة الغزي، ويدور المنادي في المدينة ويعلن أن قيمة الغزي أصبحت لا تتجاوز واحداً وعشرين قرشاً. وهكذا، يبيع الذهب بثلاثة وعشرين قرشاً، والحصول عليه بسعر واحد وعشرين، يتجمع ربح كبير للمضارب، ويحدث هذا التخفيض المفتعل بالقوة عدّة مرات في السنة.

الفصل الرابع

مغادرة دمشق - زحلة - مطران الروم الكاثوليك - فقرا - كسروان - جونيه - الإقامة في غزير

غادرت دمشق في أواخر أيار، وبعد أن اجتزت البقاع للمرة الثانية، عزمت على عبور لبنان باتجاه كسروان. وبلغت مَلكَة التي تقع على حافة أول جبل وصلنا إليه، حيث انسحب إبراهيم باشا من هذا المكان بعد أن هزمه القائد البحري نابير، وانتظر التعزيزات التي أحضرها أحمد مينيكلي باشا من الشمال. وقد أقيمت بعض الحدائق الجميلة في ملكة على حافة البقاع، مما يثبت كيف يمكن أن تتحول المنطقة إلى بحر من النباتات إذا شعر الناس بالأمن على ممتلكاتهم، وإذا كانت هناك أعداد كافية من الأيدي العاملة لتوزيع المياه في السهل. إن الانتقال من رتابة السهل الشديدة إلى هواء الجبل العليل، ومنظر الوادي كان حقاً شيئاً رائعاً.

غادرنا ملكة من جهة اليمين، حيث كان الطاعون على أشده، وبعد نصف ساعة من الصعود المستمر، وصلنا إلى زحلة ذات الموقع الجميل على حافة وادٍ سحيق، يجري في أسفله جدول يظلّله عدد كبير من أشجار الحور. وتوجد حول البلدة مراعٍ جيدة، وتربة التلال إلى الشمال طباشيرية، إلا أن روعة المشهد والخضرة على امتداد البصر في البقاع تخفف من حدة هذه السمة القاسية للمنظر الطبيعي.

وفي صباح اليوم التالي توجهت إلى زيارة مطران زحلة، الذي يأتي في المرتبة الثانية بعد البطريرك، حسب عادات الروم الكاثوليك في سورية.

ويوجد البطريرك في فرنسا منذ مدة من الزمن حيث يقوم بجمع أموال لإخوانه في سورية. وقد استقبلني المطران بحفاوة بالغة، وهو بدين يقارب الخامسة والخمسين من العمر، وطلب مني أن أمضي يوماً كاملاً معه، لكنني اعتذرت عن دعوته، ودار حديثنا باللغة العربية حيناً، وباللغة الإيطالية التي كان يتحدث بها بطلاقة حيناً آخر.

"انظر إلى الأسفل"، قال لي المطران، مشيراً بإصبعه إلى البقاع وأضاف "وقل لي ماذا ترى؟".

"سهل واسع وخصيب، فيه عدد قليل من السكان، وقليل من الزراعة".

"انظر إلى الكرم الذي أسبغه الله علينا، وسوء إدارة البشر! والآن"، تابع رجل الدين، مشيراً إلى بلدة زحلة والمناطق المحيطة بها التي وصفتها: "انظر حولك، وتطلع إلى أسطح البيوت التي يسكن تحتها خمسة آلاف شخص، وإلى تلك التلال الشديدة الوعورة والقاحلة، حيث انجرفت التربة الخفيفة بشدة إلى المصاطب، فيما لا يزال أناس يعيشون في البرية ويقتاتون بالأعشاب التي تنمو بين شقوق الصخور. لماذا الأمر هكذا؟ لأن الرجال يفضلون الفقر والأمن على أن يقوموا بالزراعة ويجني الآخرون ثمرة حصادهم".

وفي أثناء حديثنا، تقاطر علينا عدد من القساوسة من أديرة مختلفة، وكانوا شديدي الهزال، وذكّرني شكلهم كثيراً بالراهب الذي لم تتم سيامته في "دتينا". وكنت تحتاج إلى "ثلاثة رجال منهم مجتمعين ليشكلوا الأب بولس وحده".

وعندما دخلوا، قبّلوا جميعهم يد المطران وخاطبوه بعبارة "سيدنا"، وجلس أكبرهم سناً على سجادته، فيما جلس الآخرون، وفق مراتبهم، أو

جلسوا على ركبهم قرب الباب. وبعد أن احتسينا القهوة وتناولنا الكعك، استأذنتهم وانصرفت.

إن موقع زحلة صحي جداً، إلا أن أبنيتها ليست بجودة الأبنية في بعض البلدات الأخرى في الجبل. وفي واقع الحال، فهي قرية كبيرة يقطنها ثلاثة آلاف نسمة من الروم الكاثوليك: أما الباقون فهم من الموارنة، والروم الأرثوذكس، وتوجد فيها عائلة مسلمة واحدة.

عندما غادرنا زحلة، انعطفنا إلى طريق شديد الانحدار باتجاه منبع النهر، وواصلنا الصعود بمشقة عبر مناطق تكسوها أزهار برية، بالتناوب مع مناطق يكسوها الثلج، حتى وصلنا إلى قمة الحافات الأولى، حيث بدا مشهد البقاع وبعلبك وسلسلة جبال لبنان الشرقية، مع جبل الشيخ رائعاً. وكانت تقع إلى الجنوب منطقة الدروز، وتطل فوقنا قمم الجروف المنحدرة والوعرة لجبل صنين. ولما أمضيت يومي البارحة وأنا أمتطي دابتي تحت أشعة الشمس الحارقة في مناطق البقاع الرتيبة، فقد أدخلت هذه المشاهد البهجة إلى نفسي.

غير أن ما شاهدته من لبنان حتى الآن، لم يسوّغ القول إنه "سويسرا الشرق" وهو ما كان يردده بعض الرحالة. فالمشاهد رائعة وتدخل البهجة إلى النفوس، إلا أني لا أزال أفتقد ثراء جبال الألب والأبينين*، وجمال المنحدرات الخضراء المخملية، وروعة الغابات المعلقة المتنوعة.

ويشبه وسط لبنان مقاطعة إنفيرنيس أكثر من كافيتون أوف بيرن، إلا أن الهواء النقي، والجداول المنعشة تعتبر ملاذاً رائعاً للذين يرغبون في الهروب من حرّ دمشق وحرارة بيروت الخانقة.

---

* سلسلة جبال في إيطاليا - (المترجم).

تناولنا طعام العشاء في إحدى الشاليهات الواقعة تحت جبل صنين مباشرة، وقد أضافت زبدية اللبن الممزوج بالماء إلى متعة ما حوته زودتنا من طعام.

اقتربنا الآن من أحد المواقع الحصينة الفريدة التي لم أر مثيلاً لها في حياتي؛ وقد بدت الجبال أشبه بوعاء واسع، وشكّلت حافتها القائمة والمدببة، الممر الوحيد بين الصخور المؤدي إلى الهضبة في الأعلى، ويقارب عرضه قرابة عشرة أقدام أو خمسة عشر قدماً، وبدا أشبه بمدخل من صنع يد الإنسان. وقد أدى السيل الجبلي الذي كان يرغي ويزبد منذ فترات طويلة عبر الفتحة إلى توسيعه وتعميقه حتى وصل إلى أبعاده الحالية.

كنت قد تحدثت عن قدرة البغال على التحمل، إلا أنها هنا لم تتمكن من صعود الجبل إلا بصعوبة شديدة. وفيما رحت أسير في هذا الممر الذي لا يتسع إلا إلى شخص واحد، أدركت شيئاً فشيئاً أن الجدار الصخري إلى يساري يمتد إلى مسافة طويلة وفيه فجوات منتظمة. وكان بوسع المدافعين عن الممر القضاء على أي شخص يحاول أن يشق طريقه فيه بالقوة دون أن يعرّضوا أنفسهم إلى أيّ خطر. وبعد أن انتهت الصخور، وجدنا أنفسنا فوق قطعة شاسعة من أرض منبسطة، بدا أنها أرض في غاية الجودة؛ وإن رؤية محراثين وثورين على هذا الارتفاع، الذي لم يكن يقل عن ثلاثة أو أربعة آلاف قدم فوق سطح البحر، ذكرني بأوصاف بلاد الشركس.

وبدأنا نسير الآن باتجاه وادي فقرا، وعندما أخذنا نهبط الجبل، شاهدت بناء ضخماً، كان واضحاً أنه بناء روماني من متانته.

سألت السائس الجاهل عن المبنى، فقال إنه قلعة. ورغم عدم وجود أعمدة تزين هذا البناء، رأيت حجر زاوية، كان من الواضح أنه المسند. وبدون إضاعة

مزيد من الوقت رحت أتسلق القلعة، وشققت طريقي إلى الداخل، فوجدت أنها عبارة عن بئر واسعة أو حفرة مؤلفة من كتل حجرية وأعمدة وتيجان وأفاريز. وبدا واضحاً أن الأحجار أُخذت من ذات البقعة التي يوجد فيها المعبد، وكانت هناك دعامتان صخريتان، لم يلمسهما مخلوق بعد.

وعندما عدت إلى الطريق تبين لي من أكوام الحجارة أنني أجتاز خرائب مدينة قديمة. ومما زاد المشهد جمالاً، جزء من ممر مرتفع شديد الضخامة، كان في حالة جيدة إلى درجة الكمال لمسافة محددة، ويرجح أن تاريخه يعود إلى ألف وثمانمائة سنة.

بعد أن غادرنا المزرعة يساراً، اجتزنا آخر حافات كسروان المرتفعة، وهبطنا إلى قرية تقع بالقرب من مقلع للرخام. وعندما ترجلت عن البغل وابتعدت قليلاً، اضطررت إلى السير بجانب قطيع من الأغنام، وسرعان ما انقض عليّ كلبان أبيضان هائلان من كلاب الراعي، وتعلقا بثيابي الإفرنجية وأخذا يشدانها، وقد وجدت صعوبة كبيرة في إبعادهما عني بقذفهما بأحجار كبيرة. وكان هذان الكلبان يشبهان الذئاب إلى حد كبير.

وبعد انعطاف حاد، وصلت إلى القرية التي سنمضي فيها الليلة، والتي يمر تحتها جدول جبلي متدفق. ومن خلال أشجار الدردار والتوت كنت ترى الشمس وهي تميل إلى الغروب وراء سلسلة الجبال الساحلية، مما أضفت على المكان مشهداً رائعاً، وكان يشكّل تضاداً جميلاً للثلج والصخور التي خلفناها وراءنا.

عندما اجتزت الجسر البدائي الممتد فوق المياه التي تتشكل الرغوة على سطحها، واقتربت من أحد المنازل الجميلة لأطلب من أصحابه السماح لي

بأن أمد فراشي بالقرب منه، بدأت أحلم أني رحت أغط في نوم عميق بعد إعياء ذلك اليوم، إلا أنه خرج من وراء الجدار فلاح ذو تقاطيع صلبة لفحته الشمس بشدة، ورفع عصا غليظة أمامي لمنعي من التقدم، وأخذ يكرّر بسرعة كلمة "إصبر". فتراجعت إلى الوراء غريزياً، ووضعت يدي اليمنى فوق مسدسي.

" ماذا تفعل هنا؟"

"أنا مسافر إنكليزي أبحث عن مكان أمضي فيه الليلة؛ والآن، من أنت؟"

"أنا حارس الصحة. إن الطاعون متفشٍ في هذه القرية، وهذا منزل الموت والحداد! لا تتسكع هنا".

قلت: "للأسف، في هذه الحالة قد تكلّفني ضيافتك أكثر مما أرغب في إعطائه، طابت ليلتك".

واصلت طريقي ببطء حتى غابت القرية عن ناظري، وكان النهر الذي لم يكن سوى خط خفيف يكاد لا يبين في الغسق. وبعد الغروب بساعة، وصلنا إلى قرية أخرى، أمضينا الليلة فيها. وعندما وصلنا إلى الطريق غرباً في صباح اليوم التالي، لاح أمامي ساحل كسروان كله. وكان تلّ غزير في الأسفل، وإلى اليسار يقع خليج جونيه والذوق، أما إلى الجنوب فيقع رأس بيروت، وبدت المدينة والمرفأ مجرّد نقطتين تزينان المشهد الطبيعي. وكانت جبال كسروان ترتفع بحدة من البحر. وعندما يتطلع المرء إلى هذه الأرض الفسيحة، فإنه يشعر بالبهجة والمتعة. وكان البحر يشغل ما لا يقل عن ثلث الخط العمودي البصري.

بدأنا ننحدر إلى غزير بين المصاطب الخضراء التي تحجب رؤية المناطق الساحلية. وكانت الطيور تغرد بعذوبة هنا، في هذه المنطقة الخضراء الوفيرة. وعندما نظرت إلى البحر الأزرق الهادئ الجميل، خُيِّل إليّ أن عينيّ تحييان البحر الهندي الذي يصفه بيرناردين دو سان بيار على نحو يثير الإعجاب في كتابه " بول وفرجيني".

ومن بين عدد المرات التي هبطنا فيها انحدارات شديدة، كانت هذه المرة هي الأطول والأصعب، وكنت اضطر بين الحين والآخر إلى أخذ قسط من الراحة. وكان السائس يردد "درب ملعون"، فما كان يخيل إلينا أننا كدنا نصل إلى قاع الوادي، حتى نجد أنفسنا مرغمين على الهبوط مرة أخرى وأخرى.

وبدأت تظهر تحتنا بيوت غزير البيضاء اللطيفة، التي بدت عالية جداً من خليج جونيه. وفيما كان السائس يستفسر من صاحب أحد الأكواخ عن أفضل طريق نسلكه للانحدار، خرج رجل عجوز ونقل لي الخبر غير السار، وهو أنه بسبب تفشي الطاعون في بيروت وفي مختلف مناطق الجبل، فقد ضُرب طوق صحي حول بلدة غزير، التي كنت قد نويت أن أجعلها مقري الرئيسي في كسروان. لذلك، وكما كنت أتوقع، عندما أوقفنا الحراس بعد مسافة ربع ميل من المدينة، ارتميت فوق صخرة ملساء تظللها شجرة والغضب يتملكني، بانتظار وصول رد على الرسالة التي بعثتها إلى السيد ب.

طلب مني السيد ب. التوجه إلى حديقة الأمير: حيث قدمت لنا القهوة والشراب. وأبدى أسفه لوجود الطوق وقال إن الأمير سيدعني أجري الحجر الصحي في بيته الريفي. وبعد أن شكرته على لطافته ورثائه لحالي التي لم أكن أتوقعها، رافقني ضابط إلى المنزل المذكور الذي كان يطل على البحر

والساحل وكان المشهد يبعث على البهجة، ووعدني الضابط بأن يرسل حقيبة سفري، إلا أنه لم تكد تمضي مدة ربع ساعة، حتى جاء أحد الحراس متجهم الوجه وطلب مني أن أتبعه. وهكذا وجدت نفسي مرة أخرى ضمن الطوق الصحي، جالساً على الأريكة الحجرية التي تظللها شجرة.

وبدافع الفضول لمعرفة سبب ذلك، تبين لي بعد البحث والتحقيق أن عدة شيوخ توجهوا إلى الأمير، وطلبوا منه بإصرار أنه إما أن أؤدي الحجر الصحي داخل الطوق أو أن أغادر البلدة. وبما أن الأمير عبد الله، ابن أخ الأمير الراحل بشير وأغنى رجل في الإقليم، كان مالك جونيه والمناطق المجاورة لها، فقد كان حاكم المنطقة منذ سنوات عديدة، وهو الآن في عداء سافر مع الحاكم الذي حل محله؛ وقد اعترض هذا الأخير، وهو شيخ جعل من نفسه مركيزاً، على قيامي بإجراء الحجر الصحي في المنزل المذكور، وربما يعزى ذلك إلى موافقة الأمير على ذلك. وجاء اقتراح ثالث بأنه "يجب عليّ أن أؤدي سبعة أيام من الحجر الصحي في جونيه، فوافقت على الاقتراح لأن الابن الأصغر للسيد ب. كان مفتش المحجر الصحي.

مضت نصف ساعة ونحن نهبط المنحدر، وبعد ساعة من المسير على ظهر الدابة على طول الشاطئ، حتى وصلنا إلى جونيه حيث صرفت السائس. وبما أن المعالجة الممتازة التي تلقيتها عوّضتني عن بؤس المكان، فقد مددت فراشي وسجادتي داخل مخزن كبير للحبوب. ولم يكن احتجازي صارماً، إذ ُسمح لي بأن أتمشى على الشاطئ الجميل الواسع برفقة حارس، حيث كان يقبع مدرج كسروان في الخلف. وقمت بأول زيارة إلى المعسكر البريطاني في جونيه، حيث كانت الخطوط المرسومة لا تزال بادية، وكانت

سنابل الشعير الناضج تتمايل فوق المعسكر كله، الذي أقيم في وسطه نصبان خشبيان واحد للسيد لاسكومب، الضابط البحري، وآخر للسيد بويل، محاسب السفينة من أدنبرة.

توجد في تل ذوق مكايل حدائق جميلة تتناثر فيها أشجار التوت. وإلى الخلف، ومن أعلى جزء في البلدة، يبدو مشهد الريف جميلاً. وتتنوع سلاسل جبال لبنان المنخفضة بالحراج والمراعي الجميلة، وتتناثر هنا وهناك قرية أو دير. وكنت قد تحدثت عن عدم توفر الخضرة في أعالي لبنان: أما هنا، فلا حاجة لها إلى الارتفاع المفاجئ عن الأرض، وإلى تنوع المناخ الناجم عن ذلك، إذ تعانق العين نباتات الشمال والمناطق المدارية في مكان واحد، وتلوّح لك غابة الصنوبر الجريئة ويهب عليك نسيم عليل فوق التلة. أما في الأسفل، على شاطئ البحر، فأشجار النخيل البهية تذكّر المرء بالساحل المصري أو ساحل المغرب العربي، أما جونيه نفسها، فهي عبارة عن مستودع للحبوب الواردة من مصر ويافا، والملح الوارد من قبرص. وعندما كنت هناك، كانت ثلاث سفن شراعية وسفينة صغيرة تفرّغ حمولاتها. وكانت المخازن تستخدم لتخزين الحبوب في الشتاء، أما في الصيف، فتبقى أهرامات القمح والشعير قابعة على شاطئ البحر.

ذات يوم أفقت مذعوراً بعد أن أخذت غفوة قصيرة، إذ سمعت أحد الحراس يطلق صرخة عالية، وعندما استدرت، رأيت ثعبانا وقد تكور حول نفسه بين فجوات جدار مخزن الحبوب الحجري. وكان الصبي سريع البديهة، إذ أمسك على الفور عكازاً، وأدخلها في فتحة الجدار، وراح يضرب بها رأس الثعبان حتى سقط ميّتا على الأرض. وكان طول الثعبان يزيد على ياردة، ويتراوح قطره في أثخن جزء منه بين ثلاث وأربع بوصات.

عاد الآن الأمير وحاشيته، الذي كان يحضر اجتماعاً لكبار زعماء الجبل في عين عنوب، وأقام معسكره على الشاطئ. وبما أن مدة حجري الصحي قد انتهت، فقد دعيت إلى الحفلة. وجلسنا القرفصاء حول صينية كبيرة من الخوص احتشدت فوقها الأطباق العربية. وبزغ نور القمر يتلألأ فوق البحر الأزرق الداكن، بينما كانت أنوار المصابيح تنعكس على أعقاب المسدسات الرائعة ومقابض خناجر الحراس ذوي الوجوه الداكنة. فقد كانوا في الوقت نفسه نصف مقاتلين ونصف خدم.

بعد أن حصلت على شهادة تثبت أني أديت فترة الحجر الصحي، عاودت الصعود إلى غزير، وقد شعرت بشيء من الانزعاج للوقت الذي أضعته سدى. ويا لها من لعنة - إذ يجد كلّ شخص أقام لفترة من الزمن في المشرق، أن الآفة الحقيقية للشرق، لا تكمن في انتشار الطاعون، بل في المحجر الصحي. فلا شيء يظهر عدم جدوى الإصلاحات التي تدعي تركيا أنها أنجزتها أكثر من هذا. فبدلاً من اعتماد نظم صحية سليمة وعدم السماح بتراكم الأوساخ، توضع العقبات أمام التجارة دون أن تحقق نتيجة مفيدة واحدة. إذ لم يعد الطاعون يتفشى في لندن منذ الحريق الذي اندلع فيها عام ١٦٦٦. ولا شك أن أوروبا تحررت من الطاعون بسبب شق الشوارع الواسعة فيها وبناء الأرصفة والمجاري، بالإضافة إلى تحسن الأحوال وإحساس الناس بالراحة والنظافة العامة التي تأتي نتيجة الثروة والترف.

ولا ريب أن المحاجر الصحية في جميع البلدان تسبب الضيق، إلا أن ضرب طوق حول إقليم لأغراض مالية وسياسية أمر يثير أقصى درجات الحنق. وحتى لو أقرّينا بضرورة وجوده، فإن المحجر الصحي في المشرق يعتبر

مهزلة حقيقية. إذ إن مفتشي المحجر الصحي هم من حثالات الرجال القادمين من الموانئ الإيطالية واليونانية، ممن حصلوا على مراكزهم بالخديعة والمؤامرات، ويتركز جلّ همهم على الاحتفاظ بهذه المراكز. ورغم أن السلطات التركية تدفع لهؤلاء المفتشين مرتباتهم، فإنهم يحصلون على دخل إضافي باحتجاز أكبر عدد ممكن من السفن في المحجر الصحي، بصرف النظر عن الميناء المشرقي الذي قدمت منه. ولذلك فإن الضرر الذي يلحق بالتجارة هائل. فقد وضع القادمون من قبرص في المحجر الصحي بسبب إشاعة مبهمة عن انتشار الطاعون، في حين كان الوباء يتفشى على الساحل السوري.

وتزعم إزميل بالإضافة إلى الأطباء المحتالين الإيطاليين، بأن المحجر الصحي المذكور هو أحد الإصلاحات التي حققتها السلطنة، رغم أنه قضى على التجارة الحرة الذي كاد يكون القطاع الجيد الوحيد في تركيا. إذ أعطت أوروبا المشرق، وبطريقة مدمرة، مساوئ حضارتها وجمّلتها وبجّلتها باسم الإصلاحات.

وتعد غزير إحدى المناطق المأهولة الصيفية اللطيفة في لبنان: وقد أقمت فيها بضعة شهور عند إحدى العائلات التي لقيت منها كلّ اهتمام ورعاية يمكن للمرء أن يتخيلهما. وهي تقع فوق تلّ ناتئ ترتفع كثيراً عن سطح البحر، لذلك، فهي باردة ومنعشة في أكثر شهور الصيف حرارة، وتقبع في وسط سلسلة جبال كسروان والمنطقة المارونية.

وبالإضافة إلى هوائها النقي، تتمتع غزير بموقع في غاية الرومانسية. فهي تقع في شبه مدرج من الجبال الشاهقة، وتغطيها الغابات جزئياً، وتجري فيها السواقي من جميع الاتجاهات. وتعد المياه الجارية في هذه البلاد من

أعظم الأشياء، وهي قرية كبيرة أكثر منها بلدة، وكلّ منزل محاط بمصاطب من أشجار التوت، وتزينها هنا وهناك أشجار البرتقال والليمون، التي يبدو أنها تنمو وتترعرع جيداً في هذه المنطقة.

بعد وصولي بفترة وجيزة، ذهبت لزيارة الأمير في قصره الواقع في أعلى بقعة من البلدة ويطل عليها كلها. وعندما كان يجلس في شرفته، يمكنه أن يرى رأس بيروت بوضوح، بالإضافة إلى المدينة والميناء وخليج جونيه في الأسفل بكامله. وفي الجهة المقابلة كان ينبسط أمامك مشهد الجبل الوعر، ولم يكن بناء القصر قد اكتمل تماماً. وكان الأمير يجلس القرفصاء على سجادة فارسية في ظلّ شجرة وارفة. وبعد أن احتسينا الشراب والقهوة، أرسل في طلب ابنته، وقدّم لي أميرة صغيرة في ربيعها التاسع: وكانت القبعة الحمراء التي تعتمرها موشاة بعملات معدنية ذهبية، وتحيط برقبتها ياقة فضية، يتدلى منها صليب أثري، وقلادة غريبة الشكل من الذهب الخالص، تضم الأناجيل الأربعة، مكتوبة بأحرف متناهية الصغر. ولم تكن ترتدي جورباً طويلاً، أما كاحلاها فكانا محاطين بخرز من الفضة تصدر خشخشة وهي تمشي.

وسرعان ما ظهر ابنا الأمير، وكان الابن الأكبر بديناً على نحو غير اعتيادي، رغم أنه لم يكن يتجاوز الرابعة عشرة من عمره. وكانا كلاهما يتحدثان التركية بطلاقة، بالإضافة إلى لغتهما الأصلية، إلا أنهما لم يكونا يجيدان أي لغة أوروبية. والأمير نفسه هو ابن أخ الأمير بشير قاسم، الذي كان يشغل في زمن عمه منصب حاكم غزير، إلا أن التمرد الذي حدث بعد ذلك منح الشيوخ نفوذاً كبيراً، واحتلت أسرة قديمة كبيرة تدعى آل حبيش مركز الصدارة في المنطقة.

يُعد لباس المرأة في هذه المنطقة مميزاً، لكنه على عكس الأردية الملائمة التي لا تكون مشدودة حول الخصر بشكل غير طبيعي على النحو السائد كثيراً في أوروبا. وما يميز لباس المرأة في المنطقة، الطرطور الذي يمتد من تاج الرأس بطول قدم ونصف القدم. أما طرطور تاج الأميرة، زوجة الأمير، فيبلغ طوله قدمان ونصف القدم، ويشبه ذلك بعض الشّيء الطرطور الذي تضعه النساء في كوشوا. أما النساء اللاتي لا يضعن الطرطور، فيعلقن حلية على طاقيتهن بطريقة تشبه لباس السكان في منطقة هوب في جنوب ألمانيا. وثمة ميزة أخرى هنا وهي الشعر المضفور، الذي لا يتوقّف عند الخصر على الطريقة السويسرية والمشرقية، بل يمتد ليصل إلى كعب الحذاء تقريباً، وتعلق على أطرافه حبات من الخرز أو شرّابات فضية، تصدر خشخشة عندما تمشي الأنثى. أما لباس الرجال فهو ذات اللباس السائد في المناطق الأخرى من الجبل. ويبدو أن الطبقات الفقيرة مولعة بارتداء العباءة التي تصل إلى الركبتين. أما في الكنيسة، فتبدو ظهور الرجال أشبه بسجادة تركية، وبشكل عام فإن الناس هنا يرتدون ثياباً جميلة ونظيفة.

وتكاد تغطي جميع المناطق المجاورة لغزير مصاطب أشجار التوت، ويشتغل الناس جميعهم لتجهيز الحرير لبيعه إلى أسواق دمشق.

وتجلب كميات الذرة التي تستهلك هنا كلها تقريباً من مصر ويافا، أما الذرة التي تزرع في حوران، ورغم جودتها ورخص ثمنها، فإن تكلفة نقلها براً بالعربات مرتفعة. ومن المؤكد أن شق طريق من دمشق إلى الساحل سيؤدي إلى تنمية موارد البلاد بسرعة أكثر من أي شيء آخر.

وكان ثمة عداوة بين الأمير وشيوخ البلدة، لذلك لم أجد من الحصافة أن أقوم بزيارتهم فور وصولي. إلا أن الأمير بعد أن سوىّ خلافاته مع الأمير

الحاكم بشير، جرى نوع من المصالحة بينه وبين الحاكم الفعلي، الشيخ حبيش. وأسرة حبيش قديمة جداً، ويقارب عددها في غزير والمناطق المجاورة خمسين عائلة، لذلك فهي تشبه العشائر في ذلك.

وفي أحد بيوت البلدة، وجدت الشيخين يحيط بهما كهنة موارنة: ولم تكن توجد في البيت سجاجيد، ولم يكن الأثاث فيه أفضل من أثاث كوخ أحد العمال في إنكلترا، وعلى عكس الصالونات المطلية بالذهب التي يمتلكها الأفندية في دمشق.

ولم يمض وقت طويل حتى فهمت رغبات الشيوخ، وهي إقامة مجلس حكم يتألف من رجال من مجموعتهم، بدلاً من سلطة الأمير بشير. فقد علّمت الثورة والحرب الأخيرتان زعماء جبل لبنان مدى قوتهم، وعادت مشاعر الغيرة القديمة للشيوخ تعتمل في نفوسهم ضد آل شهاب، وسرعان ما تبينت أن الناس هنا يستخدمون كثيراً كلمة الحرية. ورداً على بعض الأسئلة المتعلقة بالأنظمة الملكية الدستورية في أوروبا، أشرت إلى مخاطر التحول المفاجئ من حكومة استبدادية إلى الحرية، وأشرت إلى الفشل المتكرر الذي تتعرض له الأنظمة الجمهورية والدستورية، ذلك لأنها لم تتطور تاريخياً بسبب الجهل في علوم أساليب الحكم، وبسبب غيرة الزعماء وطموحاتهم.

وفي أحد الأيام، تلقيت زيارة من الأمير الذي راح يتحدث بحبور لمدة تزيد على الساعة، ثم دخل رجل وأخذا يتحدثان بجدية، فاستويت واقفاً وتوجهت إلى الطرف الآخر من الغرفة ورحت أتجاذب أطراف الحديث مع أحد الشيوخ الشباب، الذي سألني عن حياة الأمير الألماني ميلوش، وهو يتفحص صورته وخريطة سيرفيا. ووجدت في البداية شيئاً من الصعوبة في

أن أشرح له أين تقع سيرفيا. ومما يظهر مدى قلة معرفة هؤلاء الناس بما يجري في الأجزاء الشمالية من تركيا، أبدى دهشته وفضوله عندما قلت له إن الأمير ميلوش هو من أتباع السلطان، شأن الأمير بشير، وإنه يحكم منذ سنوات عديدة إقليماً مسيحياً يبلغ عدد سكانه ما يقرب من مليون نسمة. وانقطع حديثنا بغتة عندما قذف الأمير بقليانه إلى وسط الغرفة واستوى واقفاً بسرعة وهرع إلى الغرفة المجاورة حيث استدعى كاهناً مارونياً وآخرين من أتباعه. وعندما عاد ليستأذنني بالذهاب حيّاني ببرود، وبدا أنه كان مستغرقاً في التفكير، فيما تبعه مرافقوه وخدمه وهم يتهامسون وينظر أحدهم إلى الآخر باهتمام.

ولم تمض فترة طويلة حتى علمت أن الأمير كان قد تلقى أخباراً سيئة، إذ استولت أسرة أبو نكد الدرزية بالقوة على أراضيه الرئيسية التي تقع في البقاع، وهي تدر ما يقرب من ألف وثلاثمائة جنيه سنوياً، وهذا المبلغ يشكل ما يقرب من نصف دخله.

وكنت كلما ازدادت معرفتي بالمجتمع الذي أعيش فيه، ازدادت معرفتي بمشاعر العداوة بين الفئتين أو الأسرتين: فقد كانت المعالم والظروف السائدة كثيراً ما تذكرني بأساطير الحدود الإسكتلندية، التي أعادها السير والتر سكوت إلى ذاكرة الجميع بطريقة خلابة.

ويبدو أن آل حبيش كانوا يمتلكون منذ أربعة قرون مناطق شاسعة في كسروان، وكانت تحكم بشكل رئيسي في غزير، إلا أنه نتيجة تقسيم الميراث، وبسبب رغبة زعماء الأسرة في الاحتفاظ بالمظاهر، استهلكت الأسرة معظم مواردها في الحفاظ على الخيول والخدم. ويقول أفراد أسرة حبيش إن والد

الأمير (الذي كان شقيق الأمير الراحل بشير) جاء إلى كسروان واستقر فيها عن طريق أسرتهم. فهم يرددون المثل العربي القائل (كل ما بتغرسه في الجنينة بينفعك، اغرس ابن آدم بيقلعك) أي أنك ستجني الثمار التي تزرعها في حديقتك، أما إذا استقدمت شخصاً فإنه فسيقتلعك ويطردك ويحل مكانك.

ويبدو أن العديد من أفراد هذه الأسرة كان يحمل أوسمة أوروبية بمرتبة فارس في أيام عزها، وكانوا يستقبلون في بلاط فيينا بحفاوة. وفي أحد الأيام، فُتح بحضوري صندوق صدئ يضم مواثيق عديدة، وأروني بفخر شديد رسائل براءة من الإمبراطور تشارلز السادس، فضلاً عن شهادة براءة من الملك جوزيف الثاني تحمل توقيعه.

يتسم معظم رجال الدين المسيحيين بالجهل الشديد، وتنحصر معرفتهم بتعلم اللغة العربية الفصحى، كما يضيعون جلّ وقتهم بدراسة اللغة السريانية إلى درجة أنهم لا يعيرون اهتماماً بالأشياء الأكثر إفادة. وحتى الذين يجيدون اللغة العربية الفصحى، فإنهم يجهلون العلوم والآداب العربية ولا ينفقون شيئاً على شراء المخطوطات.

قمت بزيارة أحد الكهنة ممن يتمتعون بسمعة جيدة في كسروان، وأول سؤال طرحه عليّ هو إن كان الإنكليز يؤمنون بأن الشمس تدور حول الأرض، أو أن الأرض تدور حول الشمس. وبعد أن أجبته بأننا نعتبر أن الشمس مركز النظام الشمسي، قال إن هذا ضرب من المستحيل، واستشهد بتاريخ يوشع؛ ثم سألني إن كان الإنكليز يؤمنون بأن جهنم تقع في مركز الكرة الأرضية، فأجبت أن موقع جهنم أو الجنة بالتحديد في الكون هو سر من الأسرار ولا يتاح للإنسان أن يعرف موقعهما الآن، وقلت إنه من

الواضح أن أموراً كثيرة واردة في الكتاب المقدس هي مجازية، فراح يهزّ رأسه قائلاً إن وجود جهنم في مركز الكرة الأرضية هو عقيدة من عقائد الكنيسة الكاثوليكية، وإنه عندما هبط المسيح إلى الجحيم بعد أن صلب، عبر سطح الأرض إلى داخلها.

وفي أحد الأيام، قمت بنزهة إلى دير المخلص وهو دير ماروني، يحتلّ بقعة مرتفعة جدا فوق جبل أفس (Afs)، وكانت قد سوّيت مساحة صغيرة من الأرض بين الدير والكنيسة؛ وكانت بضع أشجار غرست هنا تمنح المنطقة المفتوحة على جميع الأطراف إلا من جانب واحد برودة إضافية. وعندما اقتربت رأيت أن كبير الرهبان وراهبين آخرين جالسين على سجادة ممدودة على العشب، مستغرقين بالقراءة. ولا يمكن للمرء أن يتصور أنه توجد بقعة للدراسة أجمل من هذه البقعة الخضراء، ومنظر البحر الرائع في الأسفل، وامتداد الجبال المحيطة الرائعة، التي يكاد يكون شكل بعضها مخروطياً تماماً، وبعضها الآخر شديد الانحدار، بحافات من الغرانيت، أشبه بحيوان ضخم في وضعية الاسترخاء.

أما كبير الرهبان فهو قاض كان قد درس القانون واللغة العربية الفصحى، ويقوم بتعليم الرهبان الشبان، الذين يسيرون على نهجه. والقانون المعمول به في جبل لبنان، إلا فيما يتعلق بالشؤون الكنسية والجرائم التي تقرها المحكمة الكنسية، هو ذات القانون الساري في الأقاليم المسلمة في أنحاء السلطنة.

وينتشر مزيج غريب من الدين والخرافة في معتقدات الناس هنا. فعندما يمر رجل من أمام كنيسة لا بد أن ينزع قبعته ويرسم الصليب على صدره

ويدمدم صلاته. وكنت في بعض الأحيان أجلس لمدة نصف ساعة قبل الغروب في إحدى الحدائق التي كان يمتلكها أحد الشيوخ والتي تهب فيها نسائم رائعة، وأتمتع بالنسيم العليل الذي يهّب عليّ عبر بيارة الليمون. وكان يتردد على هذا المكان في بعض الأحيان أناس كثيرون، وكنت تسمع الدعابات وأصوات الضحكات تنطلق منهم بمرح وسرور؛ إلا أنه ما أن تقترب ساعة المساء، وتغوص الشمس وراء البحر، ويبدأ جرس كنيسة القديس أنطونيوس يقرع إيذاناً بصلاة المساء ويتردد صداه عبر الوادي، حتى تتحول الضحكات وقسمات وجوههم السعيدة إلى قسمات جادة، ويلوذ المتحدثون بالصمت، ويجثو الأطفال على ركبهم، ويكشف المسنون عن صلعاتهم، ويضع الجندي الضخم سيفه على الأرض، ويستغرق الجميع في صلاة لدقائق عديدة.

وبعد أن شاهدت ما يكفي من هذا الجزء من جبل لبنان، عدت أدراجي إلى بيروت.

الفصل الخامس

الحرارة في بيروت - دير القمر وسكانها
الضغائن في الجبل - بعقلين
المختارة - آل جنبلاط

لا شك أن بيروت من أكثر الأماكن حرارة في منطقة البحر الأبيض المتوسط. فقد وصلت الحرارة في الساعة العاشرة من إحدى الليالي إلى ٩٨ درجة فهرنهايت؛ وذكر ضباط البحرية والجيش التابعون لصاحبة الجلالة أن الحرارة في بيروت أكثر شدة من الحرارة في جزر الهند الغربية، إذ إن الأراضي الرملية والجبال العالية تحجب الهواء عنها. ورغم أن الإسكندرية أبعد جنوباً، فهي أكثر برودة من بيروت؛ أما القدس، التي تقع في منطقة عالية وسط جبال فلسطين، فنادراً ما تكون حارة. وبالنسبة لمدينة حلب، التي تقع على ارتفاع ١٨٠٠ قدم فوق سطح البحر في شمال سورية، فلا تشتد الحرارة فيها سوى شهرين في السنة. ويمكن اتقاء الحرارة في مدينة دمشق بالبقاء في البيت، وذلك لوجود غرفة صغيرة تدعى القبة في كلّ بيت، تكون باردة عادة وفيها نافورة ماء. وبما أن الأسواق مغطاة جيداً، فهي تتيح للمرء القيام بنزهة جميلة. ويعتبر الثلج (الجليد) شيئاً في غاية الأهمية أثناء الطعام في بيروت، فالماء دافئ هنا ويصعب احتساؤه، ويتوقف في بعض الأحيان الإمداد بالثلج، أو يذوب، أو ينفد في وقت مبكر من اليوم. وإن سقوط قالب من الثلج كقنبلة فوق رؤوس جمع من الناس لا يحدث ضجّة أكبر مما

يحدثها القول إن الثلج قد نفد كله! فبمجرد أن تذكر عبارة "لا يوجد ثلج"، حتى يمكن أن تتحول وليمة عشاء في حفل زفاف إلى مأتم. باختصار، تحضرني الآن نكتة ثيودور هووك وهي أنه إذا عاش الناس في بلد تبلغ درجة الحرارة فيه ٩٥ درجة في الظلّ، فيجب ألا يفاجأوا إذا اعتراهم شعور، بعد بضع سنوات، كما لو أنهم "كانوا في الظل حيث تبلغ درجة الحرارة خمسة وتسعين فهرنهايت".

حسناً، لنلوذ بالجبال الآن. وحتى هنا فإن للطبيعة نزواتها بين الحين والآخر. وعلى الخريطة توجد ثلاث مناطق باسم "ذوق" تقع على حافة متوازية مع البحر بالقرب من خليج جونيه: وأقرب بلدة تحمل اسم ذوق هي بلدة ذوق حرب، التي كانت تعتبر منذ قرابة خمسين عاماً مكاناً صحياً أكثر من أي مكان آخر في هذه المناطق؛ وكان يلجأ إليها الكثير من المرضى هرباً من قيظ ولهيب بيروت، ويستخدمونها كملاذ صحي. ثم أخذت البلدة تتوسع وتزدهر، وبدأ يتوجه إليها الكثير من صغار التجار، ولم تجمع فيها ثروات كبيرة. وبعد زهاء عشرين أو ثلاثين عاماً لم تعد مكاناً صحياً لأسباب غير معروفة، وتحول الناس إلى بلدة ذوق مصبح التي بدأت تكتسب سمعة رائعة لمدة جيل، حتى ساء مناخها، وأصبحت بدورها "قرية مهجورة". أما ذوق مكايل، التي تقع في جوارها على الجانب الآخر من الحافة، فإنها تتسم بمناخ رائع، وتعتبر مكاناً صحياً لا نظير له في أي مكان في لبنان. وكما هو متوقع، فقد أصبحت ذوق مكايل ملتقى لصغار التجار من المناطق المجاورة، ومكان الإقامة الريفية لأهالي بيروت. وشيدت بيوت جديدة، وحظي المكان بشيء من الأهمية، بيد أنه ما أن تعرضت ذوق

مكايل للحمّى المدمرة على مدى ثلاثة أو أربعة فصول من فصول الصيف، حتى فقدت شعبيتها شأن والدها وجدها.

رغم عدم استقرار الأوضاع في سورية، فقد قام بزيارتها عدد لا بأس به من الرحالة الإنكليز في هذه السنة. وفي كل يوم كانوا يعقدون في الفندق مجلساً يقوم فيه الرحالة الذين قدموا من فلسطين بمقارنة ما دوّنوه من ملاحظات مع الرحالة الذين قدموا من الشمال. وشأن المال في سوق الأوراق المالية، كانت الطرق تعلو وتهبط وفقاً للحروب وما يشاع عن الحروب العديدة الجارية. فالرحلة التي تتم بسلام كانت ترفع من قيمة الطريق السيء، أما الرحلة التي تتخللها جريمة قتل أو سرقة، فكانت تقلل من شأن الطريق الذي كان يتمتع بسمعة جيدة إلى دون المعدل. أما الطريق إلى تدمر فيحظى بمرتبة صفر.

قررت أن أتوجه إلى دير القمر التي وصلت إليها في ٢٥ آب. ورغم انحدار مقام دير القمر الرفيع بعد أن لم يعد قصر بيت الدين مسكناً للأمير السابق، فهي لا تزال، من نواح عديدة، أفضل مكان لمراقبة العلاقات السياسية، حيث تعد منطقة هامة لكل من الدروز والمسيحيين. ومعظم سكان البلدة من الموارنة والروم الكاثوليك، أما المنطقة الواقعة إلى الجنوب، فيطلق عليها في الحديث العام، بلاد الدروز. وأول ما يواجه المسافر وهو يدخل البلدة، الخراب الشامل الذي أصاب قصر آل أبو نكد، بعد أن دمره الأمير بشير. والمنطقة محاطة بالأراضي التي يمتلكها آل جنبلاط في الشوف، وآل عماد في الباروك، وآل أرسلان وتلحوق في منطقة الغرب، وآل عبد الملك في الجرد.

تقع البلدة على طرف الجبل، وقد أصبحت عاصمة جبل لبنان لعدم التمكن من الوصول إليها إلا من ممرين ضيقين. فمن ناحية بيروت، يصعد المسافر أولا إلى المنطقة الدرزية، ثم يجتاز فضاء مفتوحاً، ويأخذ بعدها في الهبوط قليلاً باتجاه المنطقة المسيحية. وتشير مئذنة واحدة إلى وجود مسجد، كان يصلي فيه آل شهاب قبل اعتناقهم المسيحية، إلا أنه أُغلق منذ بضعة شهور لأنه لم تبق في المنطقة سوى عائلتين مسلمتين. ورغم أن الأمير بشير أصبح كاثوليكياً، فقد كان دائم التعاطف مع هؤلاء الأشخاص: ولم يكن يسمح لأي كنيسة في دير القمر أن تقرع أجراسها لكيلا يسيء إلى مشاعر المسلمين الآخرين، فيما كان صوت الآذان يُسمع دائماً في الوقت المحدد من مئذنة المسجد.

لكن بعد أن غادر الأمير بشير إلى مالطة، تقرر أن يصبح للكنائس أجراس. ففي منتصف ذلك اليوم، عندما صعد المؤذّن إلى المئذنة، ولم يكد يلفظ عبارة الله أكبر لمرة واحدة، حتى بدأ جرس الدير الجديد يقرع. عندها توقف المؤذن عن آذانه، وهبط وأقفل باب المسجد. ومنذ ذلك الحين وحتى فترة وصولي لم تعد تسمع عبارة الله أكبر من مئذنة دير القمر.

نزلت في الدير الماروني، واستقبلني رئيس الدير استقبالاً ودّياً، وسلمته رسالة موجهة من قاضي كسروان. وكان رئيس الدير من مدينة حلب، وهو شخص متمرس وعالم في شؤون العالم. ومن دماثة خلقه وحبه للخير، تبين لي بعد ذلك أن الروم الكاثوليك كانوا يكنون له ذات التقدير والاحترام الذي يكنه له أبناء طائفته، وهذا شيء يدل على أمور كثيرة، لأن الناس في هذه البلاد يعتقدون أن أفضل وسيلة لخدمة الله هي في أن يكره الجار جاره.

لم أكد أسلّم رسائلي وأنهي زياراتي الأولى حتى شاهدت اضطراباً غير عادي يسود البلدة وذلك بسبب وجود الكثير من المبشرين البروتستانت الأمريكيين، الذين كانوا يقومون بتعليم الدروز. وعندما سمع بوصولي القسّ إلى سميث، كبير المبشرين، بعث إليّ برسالة ودّية قال فيها إنه يضع تحت تصرفي كل ما بوسعه أن يقدمه لي في بيته من أجل راحتي. وعندما توجهت إلى زيارته لأشكره على لطفه غير المتوقع، تبين لي أن هذا الرجل كان بسيطاً جداً، ومن اللقاءات التالية وجدت أنه ضليع في الأدب العربي وجغرافية سورية، وأنه أجرى بحوثاً بالغة الأهمية عن الكتاب المقدس استغرقت خمس عشرة سنة، حررها ونشرها البروفيسور روبنسن: ومن الإنصاف القول إن هذا الأخير، بعد أن قام بجولة سريعة، وشاهد النتائج التي حققها سابقاً السيد سميث، وضع اسمه في مكان غير بارز. وكان هذا رأي الأشخاص النزيهين ممن كانوا يعرفون كلا الطرفين، ولعل المانحين في الجمعية الجغرافية لا يعرفون ذلك.

وقد أثار قدوم السيد سميث إلى دير القمر حفيظة البطريرك الماروني وغيرته، فقد كان يرغب حينذاك في أن يقوم بدور البابا الدنيوي والروحي في جبل لبنان. وعندما لم يتمكن المبشّرون الأمريكيون من العثور على سكن ملائم في المنطقة الدرزية، أقاموا في أحد القصور المتداعية العائدة لآل شهاب وسط بيوت الموارنة، الأمر الذي اعتبر نوعاً من الغزو من قبل الكفار. وأصدر البطريرك لعنة الكنيسة (حرم) عليهم: فلم يسمح لأي شخص باستقبال المبشرين في منزله ولم يسمح لأحد بزيارتهم، أو البيع لهم، أو خدمتهم، أو تناول الخبز معهم، بل طالب بطردهم وإهانتهم، وقال إن

لعنة الله ستحل على كل من يعصي هذا الأمر وستنزل عليه لعنة القديس بولس، ووابل من النار والكبريت.

وقد تلا رئيس الدير الماروني هذا الأمر في الكنيسة. وبما أنه كان رجلاً ذا وجهات نظر معتدلة، فقد امتنع عن ممارسة القوة الجسدية لطردهم، وبسبب ارتفاع نسبة عدد السكان من الموارنة والروم الكاثوليك في دير القمر بمعدل (٦ إلى ١)، فقد تم تجاهل السلطة الإقطاعية لبيت أبو نكد في ذاك الوقت.

بعد وصولي بفترة وجيزة، تلقى رئيس الدير رسالة من البطريرك يبدي فيها دهشته لأن رجال الكتاب المقدس الأمريكيين، كما أطلق عليهم، كانوا لا يزالون في دير القمر، وأرسل مالاً لتعويض أصحاب البيوت التي استأجرها الأمريكيون، لمنحهم إنذاراً بالمغادرة. وبغية تفادي أية إجراءات عنيفة، سألني رئيس الدير أن أقوم بزيارة المبشّرين وأطلب منهم المغادرة بهدوء. وقد سرني كثيراً تكليفي بهذه المهمة واعتباري سفيراً فوق العادة ووزيراً مفوضاً، فانطلقت وسلّمت الرسالة. لكني وجدت أن السيد سميث لم تكن لديه أية رغبة في المغادرة إذ قال إنه عندما جاء المبشرون إلى دير القمر، طلب منهم الكثير من الموارنة تعليم أطفالهم، إلا أنهم (الأمريكيين) رفضوا تلبية ذلك ما لم يحصلوا على موافقة البطريرك. وقال إن المعاهدات المبرمة بين الباب العالي والولايات المتحدة تكفل حمايتهم. وعندما رجعت إلى رئيس الدير ضخّمت له صورة قوة نفوذ الامتيازات والحماية القنصلية فأسقط الموضوع؛ إلا أن رسالة أخرى وصلت من البطريرك، وأرسل رسالة أخرى إلى الشيخ ناصيف أبو نكد، حاكم دير

القمر، يطلب منه أن يرفع حمايته عن المبشرين، وأن يطردهم من منطقته. وشعر الشيخ بإهانة شديدة من هذه الرسالة، باعتبارها تدخلاً في اختصاصاته الدنيوية، ورفض إبعاد المبشرين: وبغية تجنّب حدوث أية اضطرابات أخرى بسبب هذه المسألة، اعتبر المبشرون أنه من الأفضل لهم أن ينسحبوا.

لقد وُصف بيت الدين، مكان إقامة الأمير بشير، في أماكن عديدة، لذلك لا أجد ثمة داع للإسهاب في وصف جماله. ورغم أنه كان حينئذ مهجوراً تماماً، فقد ظل في حالة ممتازة. وقُدّمت إلى زوجة الأمير خليل، التي كانت تجلس فوق وسائد في بهو طويل لتتنسم هواء عليلاً. وكان زوجها، ووالد زوجها وأبناؤها في مالطة في ذلك الوقت، وقد أعربت عن ألمها لإحساسها بالوحدة، وسألتني مرارا أثناء حديثنا إن كانت توجد فرصة تجعل الأمير يعود، إلا أنه لم يكن بوسعي أن أخبرها أي شيء عن الموضوع.

ثم قمت بزيارة إلى شيخ البلد، ناصيف أبو نكد، إلا أن بيته كان يختلف اختلافاً كبيراً عن المساكن الأخرى. إذ لا توجد هنا نافورات أو شرفات أو عتبات من الرخام أو الفسيفساء. وفيما كنت أتسلّق خرائب القصر القديم، تذكرت القصص الكثيرة في ألف ليلة وليلة والقصص الأخرى، وهي تدمير بيت الشخص للدلالة على القضاء عليه سياسياً، وهذا كان مصير منزل "أبو نكد" قبل عشرين عاماً. ثم وصلنا بعد لأي إلى قاعة استقبال الشيخ، التي لم تكن سوى كوخ، وكان ما يقرب من عشرين أو ثلاثين خادماً وفرداً من الحاشية يتسكعون عند المدخل. واستقبلني الشيخ الذي كان جالساً باسترخاء على كرسي، لا على أريكة، ولم يكن يتجاوز الخامسة

والأربعين من عمره. وكان يرتدي بدلة النظام المصرية، لأنه كما ذكرت، كان منفياً في مصر وسألني أي المدينتين، لندن أو باريس تعجبني أكثر. وعندما وصفت له بعض خصائصهما، أخذ يمتدح القاهرة، التي كان يحبها وعاش منفياً فيها. وقال إن عدد سكان تلك العاصمة يبلغ نصف مليون نسمة، لكني قلت له إن العدد هو نصف ذلك الرقم. ثم سألني إن كان الناس في أوروبا يحبون اللغة الفرنسية أم اللغة الإنكليزية أكثر، وعندما قلت له إن اللغة الفرنسية أفضل للحديث، أما اللغة الإنكليزية فهي أفضل للبلاغة، قال: "نعم فهذا مثل لغتنا التركية والعربية". وكان محقاً في هذا الأمر إذ لا توجد في أي لغة أوروبية تعابير أكثر لباقة وتأدباً من اللغة التركية؛ أما بالنسبة للبلاغة والفصاحة التي تمتاز بها اللغة العربية، فلا يعرف ذلك إلا من استمع إلى القرآن وهو يتلى بلغته الأصلية.

وتوجد قرابة بالتزاوج بين عائلة القاضي - وهذا هو اسمها فضلاً عن منصبها بالوراثة - وبين آل أبو نكد، ومما أثار إعجابي أدب كبير العائلة والتهذيب الذي يتحلى به. وفي واقع الحال، كان نبيلاً بطبيعته، وكانت علائم الفكر والتربية العالية بادية بوضوح على وجهه. ولا يمكن لشيء أن يكون أكثر بدائية من المحكمة: فهي عبارة عن غرفة كبيرة، تكاد تكون فارغة، تكسو أرضيتها حصيرة، وفيها صندوق خشبي صغير يحتوي على وثائق. وإن رؤية المحبرة في زنّاره، وأوراق مختلفة مقسمة إلى شطرين ومثنية يتناولها من جيب في صدره بين الحين والآخر ليسجل عليها ملاحظاته، أو ليدّون حكماً، أو عقد إيجار، أو رسالة، تكفي لكي تجعل أي محامٍ أو ورّاق في لندن يصاب بالسكتة القلبية.

إن أجمل البيوت في دير القمر هي بيوت الروم الكاثوليك. فقد تمكن هؤلاء من جمع ثروة قليلة، وشيدوا بيوتهم على الطراز الدمشقي بفضل مثابرتهم وجهدهم وتوفيرهم، بالإضافة إلى فضل الأمير بشير. وكالعادة فإن مدخل البيوت في المشرق لا ينبئ بالترف، لكن ما أن تدخل حتى تجد الباحة المبلطة بشكل جميل بأحجار بنية ناعمة تشبه الرخام، والمزيّنة بأصص من الورد، والغرف المؤثثة بشكل رائع. ويرتدي كل من السادة والخدم ثياباً أنيقة، ولا أتردد في القول، بعد سنوات عديدة من المعرفة الوثيقة والتجربة، أن هؤلاء الكاثوليك من سكان دير القمر، كانوا يشكّلون إحدى أكثر الجماعات احتراماً في المشرق قبل أن يتفرقوا. ورغم عدم معرفتهم اللغات الأوروبية، وجدت أنهم أناس أذكياء، ويحبون المعرفة، وهم مخلصون وصادقون. وتظهر التجربة أنهم المسيحيون الوحيدون في جبل لبنان الذين يتمتعون بشجاعة شخصية، ولا شك أن ذلك يعزى لأنهم يعيشون وسط الدروز المحاربين كما أشهد بكرمهم غير المحدود؛ لكن الكراهية القائمة بين حزبيّ (Orangemen)* و(Ribbonmen)** تعتبر صداقة إذا ما قورنت بكراهيتهم للدروز. وكنت قد ألمحت إلى المسجد. أما الأبنية الوحيدة الأخرى التي تحمل صفة يمكن أن يطلق عليها اسم مبان عامة فهي القيصرية، وخان كبير مربع الشكل مبني بمتانة من الحجارة، فيه دكاكين كثيرة تمتلئ بالمواد، وسراي أمير جبل لبنان القديمة، وهي عبارة عن قصر

---

* أعضاء جمعية سرية بروتستانتية في آيرلندة الشمالية - (المترجم).

** أعضاء في جمعية في آيرلندة مناوئة لجمعية Orangemen، وكان أعضاؤها يضعون شريطاً أخضر كشارة تميزهم عن غيرهم (المترجم).

فيه الكثير من الباحات، وتطل نوافذه على بيت الدين، وهو من أملاك آل شهاب الخاصة. وكان جورجيوس باز قد خُنق في هذه السراي القديمة عام ١٨٠٨، وهو كيخيا (نائب) الأمير بشير، بأمر من الأمير بسبب غيرته من ازدياد نفوذ الكيخيا. ووجدت أن ابن أخ جورجيوس يعمل في مهنة متواضعة، وهي مهنة حائك الأكياس ذات الشراشيب الذهبية التي تشتهر بها دير القمر. فكلّ رجل في المشرق، سواء كان ينتمي إلى طبقة عالية أو متدنية، يتعلّم أو يدّعي أنه يتعلم مهنة - فلا عجب، ونحن نرى هذه التقلبات في الحياة. فلهذا الرجل المسكين قصة حزينة بسبب موت عمه خنقاً، وهو الذي كان يمتلك قوة كبيرة، كما قُطع رأس عمّ آخر له في عكا، وتوفي والده بالطاعون، وتوفي ثلاثة من أطفاله بذات المرض في الصيف الماضي، ويتساءل المرء كيف يمكن أن يتفشى الطاعون في مكان مثل دير القمر، حيث الهواء صاف وجاف، لكني وجدت ذات يوم الأوساخ في وسط البلدة، ووجدت عظاماً وأحشاء ذبائح آخذة في التعفن، تصدر منها روائح كريهة أرغمتني على الابتعاد بسرعة.

يثير أحياناً اسم دير القمر الحيرة بين الرحالة الإنكليز الدارسين؛ إلا أن رئيس الدير أشار ذات يوم بالصدفة، إلى حجر في الجدار تآكل بسبب الطقس، كان فيما مضى قائماً في خرائب دير قديم في هذه البقعة، وقد نُقش عليه رسم صليب وقمر. وقال من هنا جاءت تسمية دير القمر.

كان يوم الرابع عشر من أيلول مثيراً للغاية، حيث أريقت فيه الدماء. توجهت قبل ظهر ذلك اليوم إلى زيارة الكولونيل روز، الذي كان قد وصل في الليلة السابقة ونصب خيامه قبالة منزل القاضي. وما أن عدت إلى

غرفتي، حتى سمعت صوت طلقات نارية، وصراخاً في الشوارع: وبغتة خرج رجال مسلّحون بالبنادق من البيوت، وأخذوا يجرون في مجموعات إلى الجانب التحتاني من البلدة. ولكي أعرف سبب هذا الاضطراب، صعدت إلى سطح الدير، الذي يشرف على الوادي كله، ورأيت بوضوح على الجبل المقابل مجموعتين من الرجال تطلق كل واحدة منهما النار على المجموعة الأخرى. وكانت تفصل بين الفريقين هوة عميقة حالت دون التقائهما. بيد أن إطلاق النار أخذ يزداد مع وصول مقاتلين جدد. فقد أرسلت بعقلين، القرية الدرزية التي كانت تتوّج الجبل المقابل، كما أرسلت دير القمر كل رجل من رجالها قادر على حمل بندقية للمشاركة في المعركة.

توجهت إلى القاضي الذي كان يجلس تحت شجرة جوز وارفة، يفصل في قضية بين أخّ وأخت وعمّ حول أملاك جدّ لهم، وكانت قيمة التركة تقدر بحوالي خمسة وعشرين شلناً بالعملة الإنكليزية. تجهم وجه القاضي، وتلاشت تلك الابتسامة الحلوة التي كانت تبدو على شفتيه، ووّجه بضع جمل قاسية إلى المدّعين الفقراء الذين كانوا يرتدون أسمالاً بالية، أما عيناه فكانتا تتطلعان بقلق إلى الجبل المقابل. وتقدم منه رجل وهمس شيئاً في أذنه، فقال بصوت عالٍ: " يجب ألا يخرج أي درزي من بيته". ثم عدت إلى سطح الدير، ورأيت أن شرفات بيوت دير القمر قد غصت بالنساء، اللاتي رحن يلطمن وجوههن ويصرخن بصوت عال، فيما كان يُنقل الرجال الجرحى، ثمّ دلفت إلى كنيسة الدير، ووجدت عدداً كبيراً من النساء جاثيات أمام المذبح، كنّ، كما علمت فيما بعد، يتضرعن إلى العذراء لأن تعيد لهن أخوتهن وأزواجهن ممن يشاركون في القتال بسلامة. وكانت

إحداهن شديدة الحماس في حركاتها، تصرخ وتلطم خديها، وكانت تسمع بين الحين والآخر اعتراضاً، بل توبيخاً على تصرفها هذا.

وبعد أن امتطى الكولونيل روز والشيخ جوزيف الحسن، وكيل الأمير بشير، حصانيهما وانطلقا إلى موقع المعركة ليفصلا بين المتقاتلين (لأنه ورد نبأ يقول إن ناصيف أبو نكد لم يتمكن من ذلك)، هبطت إلى الطرف الواطئ من الوادي الذي يفصل بيت الدين عن دير القمر، واجتزت جسراً حجرياً يمر فوق النهير، الذي نضب ماؤه بسبب ري مصاطب أشجار التوت، ثم صعدت في طريق متعرّج التلّ إلى بعقلين. وما أثار اهتمامي اللجنة التي شكلها رجال دير القمر بسرعة، وكانت النساء يحتشدن في الجزء الأوطأ من التل، حيث كانت كلّ واحدة منهن تحمل جرّة من الماء لتروي عطش زوجها وأخوتها. وعندما وصلت كان إطلاق النار قد توقّف، وبدأ الرجال يعودون إلى أماكنهم: فقد تمكن الكولونيل روز والشيخ ناصيف والشيخ جوزيف الحسن من وقف إطلاق النار بعد أن جازفوا بحياتهم. وكان النزاع قد اندلع بسبب الاختلاف على حق اصطياد الحجول في أحد الحقول، وانتهى بإصابة ثلاثة وأربعين شخصاً، حيث قتل ثمانية عشر شخصاً، وجرح خمسة وعشرون شخصاً.

وفي المساء تناولنا طعام العشاء مع الشيخ ناصيف أبو نكد، غير أن الأحداث الحزينة التي وقعت أثناء النهار لم تدخل البهجة إلى نفوسنا. وكان قد تقاطر الكثير من الدروز من القرى المجاورة لحماية رئيسهم إذا اقتضى الأمر؛ وهم رجال أقوياء ومفتولو العضلات، لوحتّهم أشعة الشمس قليلاً. وبما أن جميع أولئك الرجال كانوا سيتناولون عشاءهم بعدنا، فقد كان على

المائدة طبق يحتوي كمية كبيرة من الرز لا يقل محيطه عن ثمانية أقدام. وعندما عدت إلى الدير في الليل، كانت الباحة تكتظ بالرجال المسلحين من المسيحيين الذين قدموا من القرى الأخرى لتعزيز جانبهم أيضاً. وكان الممر ممتلئاً بالرجال النائمين فوق الأحجار العارية. وفي اليوم التالي، بدا أن الدروز ينوون القيام بهجوم جماعي، لكن الشيخ جنبلاط منع ذلك، وأصدر أمراً أعلن فيه أن النار ستطلق على أيّ رجل من رجاله يغادر منزله.

وكمساعدة إنسانية أرسل الكولونيل روز إلى المصابين من كلا الطرفين الدكتور روبرتسون، وهو جرّاح شاب ماهر وذكي، وقد رافقته إلى بعقلين، القرية الدرزية الرومانسية التي تقع على قمة سلسلة الجبال المقابلة، التي وقع القتال بجانبها. وحاول أهالي دير القمر ثنينا عن الذهاب، خشية أن يتعرض لنا قطاع الطرق الدروز. فقد أخبرونا أن رجلاً من بيت الدين قد تعرض للنهب في ذلك الصباح وسرق منه مبلغ قدره تسعمائة قرش؛ إلا أننا اعتمدنا على الاحترام الذي يكنّه الناس في كل مكان للإنكليز. وبعد أن شقينا طريقنا بصعوبة لمدة تقارب الساعة في البريّة التي تعلوها الصخور، دخلنا الوادي الذي كان قبل حين ساحة للقتال، والذي أخذ يضيق تدريجياً حتى كادت الصخور تتلاقى وتشكل بوّابة طبيعية. ثم انفتح الوادي ثانية ليصبح مدرجاً رائع الجمال. ولدهشتنا، رأينا هذا الموقع والأرض المسطحة في الأعلى، مزروعاً بالكرمة والتوت بكثافة. وقد أبدينا الدهشة من نزوة الطبيعة التي عملت على تعرية أطراف الجبل من تربته وجردته من غطائه النباتي، وأغدقت كل كرمها على القمّة، التي يتراوح ارتفاعها بين ألفي وثلاثة آلاف قدم فوق سطح البحر.

وعندما دخلنا إلى القرية، رأينا منزلاً كبيراً إلى جهة اليمين، حيث دعينا إليها، وتبين لنا أن هذا هو بيت شيوخ آل حمادة. وأعرب الشيخ سليمان وكيل الأمير بشير وحارس قصر بيت الدين عن امتنانه لوجود الجرّاح. وهذه العائلة حديثة العهد، وكان الأمير بشير قد رفع من شأنها ليعادل سلطة آل جنبلاط.

ثم مضينا إلى بيوت أحد عشر شخصاً ممن أصيبوا بجروح شديدة: وأخرجت من أجسادهم معظم الطلقات، وكان المسار المتعرج الذي اتخذته هذه الطلقات داخل أجسادهم سيئاً، وبدا لي ذلك، أنا الرجل غير المحترف، أمراً في غاية الغرابة. وشاهدنا رجلاً مسناً يقارب السبعين عاماً من عمره، يعاني من آلام مبرحة، فقد اخترقت طلقة جسده واستقرت حول مفصل الركبة، وبعد ثلاثة أيام تورمت ساقه وأصبح حجمها هائلاً.

كانت جميع الأكواخ نظيفة جداً، وقد وجدت في أحد تلك البيوت خزانة محفورة بروعة، يبلغ طولها ثمانية أو عشرة أقدام. وفي أحد المنازل التي دخلناها أسدل ستار من القماش لكيلا أتمكن من رؤية الجرح، وعندما سألت أحد أفراد آل حمادة عن سبب ذلك، أجاب ساخراً أنه يوجد رأي شائع عند الفلاحين مفاده أنه إذا رأى غريب جرحاً فهو فأل سيئ.

وتقع مقبرة القرية في بقعة جميلة، توجد فيها تماثيل جميلة لبعض الشيوخ، إلا أن الرائحة الكريهة المنبعثة من الجثث المدفونة حديثا كانت لا تطاق، وجعلتنا نهرع مبتعدين.

وفي العشرين من الشهر انتقلت من بعقلين إلى المختارة التي أبهرتني بروعة جمالها. وكان ينساب من الشقوق في المنحدرات جدول جبلي رقراق،

يشق طريقه نحو قاع مسيل النهر، وفجأة ينفتح هذا الدرب الكئيب، وتتلاشى المنحدرات الواقعة إلى الجنوب تدريجياً لتتحول إلى سفح تل جميل، تنتشر على منحدره الواسع، الذي يكاد يمتد إلى البحر، أشجار الكرمة والزيتون الخضراء. وتعتبر قرية المختارة غاية في الجمال، حيث يتربع جنين القصر الجميل الجديد، الذي كان يشيده نعمان بك، على حافة شاهقة يمتزج مع بقايا قصر قديم كان في الماضي أجمل صرح أميري في سورية.

ونظراً لأن نعمان لم يكن في البيت آنذاك، استقبلني أخواه سعيد وإسماعيل. وكان كلاهما يرتدي بدلة النظام المصرية. ورغم أن سعيد لم يكن يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، كانت له اهتمامات سياسية، إذ كان الدروز منقسمين، أو يدعون أنهم منقسمون، إلى حزب حرب، وحزب سلم، إذ يكنّ الحزب الأول كراهية شديدة للموارنة، في حين يفضل الحزب الآخر الوفاق والمصالحة معهم؛ وفي كلّ عائلة كبيرة كانت السياسة تجعل أحد الأخوة يعتنق حزب الحرب والآخر حزب السلام. فقد نحا سعيد نحو القتال، في حين كان نعمان يميل نحو المصالحة، ثم ذهب إسماعيل إلى إنكلترا، وأتقن اللغة الإنكليزية بسرعة.

وعندما حلّ المساء، ولم يصل نعمان بعد، اصطحبوني إلى سرادق الضيوف، المؤثث بأسلوب أوروبي. إلا أنه من الغريب أن السقف كان مطلياً بلون أخضر داكن، وُقدم العشاء على الطريقة الأوروبية. وبصراحة فضلت أن أجلس القرفصاء لتناول الأرز واللحم، ورحت أمارس عاداتهم، لأني إن لم أفعل ذلك فلن أتمكن من فهم هؤلاء الناس أبداً، وكان ذلك يشرفني. وعند طلوع النهار، جاء خادم يحمل نارجيلة رائعة من

الكريستال والفضة، واسترخيت الاسترخاء الشرقي الحقيقي، فرحت أدخّن وأنا مستلق على السرير. ووصل نعمان في الليل، وزارني في الصباح، وبالكرم الدرزي الأصيل قال لي أن أعتبر بيته بيتي حتى قبل أن يفض رسائل التقديم التي سلمته إياها. وكان نعمان صغير البنية، وذا ملامح ضئيلة، وكانت بشرته شاحبة، أما أسلوبه فكان نقياً للغاية، وبدا رزيناً وهادئاً. وبعد فترة قصيرة، دخل الأخوان وقبلا يده، ولم يجلسا حتى أشار لهما نحو الكرسي، وكانا يخاطبانه بكلمة أفندم، التي تعني باللغة التركية "سيد"، أما استخدامها باللغة العربية فتعني "يا سيدي". ثم جاء أفراد الأسرة الآخرون، وجلس كل منهم في مكانه، وكان هناك حشد من الخدم، جالسين أو واقفين، كل حسب فئته.

وتتصدر عائلة جنبلاط جميع البيوت الدرزية الأخرى، وأصل الاسم تركي أو تركماني وهو " جان بولاذ"، وتعني "قلب من الفولاذ"، وقد جاءت هذه العائلة أصلاً من جبل علي، وهي المنطقة الدرزية في أقصى شمال سورية. وكان أحد أسلافهم والي مدينة حلب قبل قرنين.

الفصل السادس

العقّال والجهّال - الاجتماعات السرّية
الجهاز السياسي- الرياء - المرأة الدرزية
العلاقات المنزلية - التعليم - القوانين
الزراعة - الطرق - الضيافة - الطعام
المناخ والأمراض - الجنازات

ينقسم الدروز إلى فئتين: فئة العقّال وفئة الجهّال. والعقّال هم الأشخاص الذين تلقنوا أسرار الديانة الدرزية، أما فئة الجهّال فلم تُلقَّن هذه الأسرار. وليس لهذا التمييز علاقة بالطبقة أو الثروة الدنيوية، إذ يمكن لأي درزي، سواء كان ذكراً أم أنثى، أن ينتقل من مرحلة عدم التلقين إلى مرحلة التلقين عندما يعلن تمسكه بالتزامات معينة، وعدم الانغماس في الملذات المسموح بها لفئة الجهّال؛ وليس من النادر أن ترى رجلاً سكيراً وقد أصبح فجأة عاقلاً ومعتدلاً وصادقاً. وكما هو متوّقع، فإن معظم أفراد الأمة هم من فئة الجهّال.

ولا تفرض على فئة الجهّال واجبات دينية، غير أنها تعرف السمات الرئيسية للدين، من قبيل تناسخ الأرواح وما إلى هنالك. ويعرف الجهّال والعقّال على حد سواء، الإشارات السرّية للتعارف. فالفرد من فئة الجهّال يأكل ويشرب ويرتدي ثيابه كما يحلو له، ورغم أنه لا تفرض عليه واجبات دينية محددة فإنه يحترم عادات فئة العقّال وسلكوهم.

والعقّال هم المؤتمنون على أسرار الدين. وهم يعتمرون عمامة بيضاء مستديرة مرخية، ولا يسمح لهم ارتداء ثياب مطرّزة أو مزركشة. أما إذا ذهبوا إلى دمشق أو بيروت، فيسمح لهم القيام بذلك لكي لا يتم تمييزهم عن المسلمين. ويجب أن تكون أكمامهم مغلقة وغير ممزّقة أو مفتوحة. ويرتدي عامة العقّال عباءة مخطّطة فضفاضة تصل حتى الركبتين. والعاقل لا يدخن التبغ، ولا يحتسي الخمرة أو المشروبات الروحية، ولا يتناول طعاماً مع الجهّال ولا يشارك في احتفالاتهم. وعندما انتقل الشيخ نعمان جنبلاط إلى فئة العقّال، حصل على إذن لكي يواصل تدخين التبغ. إلا أن مثل هذه الفتاوى نادرة جداً. وهو لا يتلفظ أبداً كلمات بذيئة، ولا يقسم أو يكذب بأي حال من الأحوال. وإذا طالب درزي عاقلاً غير شريف بدين له في ذمته، وسئل مثلاً: "هل أنت مدين بهذا المبلغ؟" ولأنه لا يجرؤ على الكذب، فإنه يبحث عن ذريعة ويقول: "ربّما كان خصمي مخطئاً. فهو رجل شريف لكن ذاكرته تخدعه".

ولا يقبل العقّال أيّ دعوة أو استضافة توجه إليهم من والي تركي أو مسلم. وهم يعتبرون أن المال القادم من الحكومة هو من نتاج الاستبداد، وإذا ما اضطرهم الأمر إلى الحصول على أي مبلغ منها، يقومون باستبدالها على الفور. ومما يدعو للاستغراب مشاعر الريبة تلك التي تعتنقها أمة ورثت عن القرامطة والباطنية فلسفتهم، إذ لا يعد قتل الكفّار ونهبم، كما يطلق على من هم من غير الدروز، جريمة.

ويكنّ الجميع احتراماً عميقاً للعقّال، إلا أنهم إذا لم يتمسكوا بالتزاماتهم بشدة يصبحون "محرومين"، ومنبوذين.

ويعقد اجتماع للأغراض الدينية بعد الغسق مباشرة من يوم الجمعة. وعادة ما تكون المعابد أبنية لا توجد فيها زخارف أو زينات، وتبنى دائما في أماكن معزولة. وثمة سور خشبي يفصل الذكور عن الإناث من فئة العقّال. وتبدأ الأحاديث بمناقشات عن الأحوال السياسية. ويتم تناقل الأخبار بأقصى درجات الصدق والواقعية. ويتم في هذه الجلسات تحديد من يجب أن يعتبرونه عدواً للأمة الدرزية، ويُوصى بتقديم الحماية والدعم إلى آخر يتعرض للاضطهاد من قبل الحكومة، كما يوصي شيخ العقّال في هذه الجلسات بتقديم مساعدة مالية لزيد من الناس بسبب فقره. ثم يقرؤون مقتطفات من كتبهم الدينية، ويقومون بترتيل أنشودة المحارب، التي تصف قدومهم من الصين*، وتدميرهم للكفّار، وغزوهم للعالم. ثم يتناولون قليلاً من الطعام كالتين والزبيب وما إلى هنالك على حساب وقف الخلوة. ثم يفترق الجمع، ولا يبقى في الجلسة سوى كبار العقّال، الذين يتشاورون فيما بينهم بشأن الإجراءات التي يجب أن يتخذونها بعد سماعهم الأخبار التي نقلت إليهم. أما الأخبار الأخرى، ذات الطبيعة الأكثر خصوصية، فتجري مناقشتها بدون تحفّظ. وعندما يحتاج الأمر إلى سرية بالغة، يعيّنون لجنة ثلاثية. وفي جميع الأحوال، يكون بعض من كبار العائلات الستّ التي تمتلك المقاطعات بالوراثة، حتى لو كانوا من الجهّال، أطرافاً في الإجراءات السياسية.

---

* يعتقد الدروز أن العديد من أبناء دينهم يوجدون في الصين؛ وقد شعر بعض الدروز المتشددين بالانزعاج عندما سمعوا أن حكومة جلالة الملكة قد شنت حرباً على أخوة الشمس والقمر.

وتتمثل إحدى البديهيات الأساسية التي يعتنقونها في القول بأن المعرفة قوة. وتتم الآلية التي تنقل من خلالها الأخبار من الأطراف البعيدة إلى قلب الهيئة السياسية، وعودتها من القلب إلى الأطراف، بطريقة في غاية الإبداع، وهي بسيطة وفعّالة من الناحية العملية. إذ يمثّل شيخ القرية (الخلوة) الناحية التي تتبع له في النقطة المركزية من المقاطعة. ويتصل جميع شيوخ خلوات المقاطعات بالكاهن الرئيسي في قرية بعقلين؛ وبعد أن يسمع الشيخ الأخبار المركزية في بعقلين، يعود ويبلغها إلى شيوخ القرى، ثم ينقل آخرهم ما يخص المجموعة كلها إلى عقّال قريته، أما الأخبار التي يجب أن تكون سرية فُتنقل إلى مجموعة قليلة مختارة. وقد مكنّت هذه الآلية في العديد من المناسبات، الأمة كلها من العمل كرجل واحد. وإذا أؤتمن الدروز على سرٍ، فهم يحافظون عليه لأن دينهم يحتم عليهم ذلك، وذلك لأن إفشاء سر وطني يعد أكبر جريمة يمكن أن يرتكبها درزي: بالإضافة إلى روابط الدم والدين - فضلاً عن التقاليد التي يتعلمها المرء من طفولته عن السرية - وهناك أيضاً الخوف من العقاب، كالعقوبة التي تنزل بخائن عند اكتشافه، وهي أنه يُقطع أشلاء.

وعندما يكون درزي في مكان غريب ويريد أن يتعرف على درزي آخر فيسأله: " هل يزرع الفلاحون في قريتك حب الإهليلج؟ فيقول الغريب: " لا"، أما الدرزي فيجيب " إنها مزروعة في قلوب المؤمنين". وثمة اختبار آخر يتمثل في معرفة الأئمة الخمسة الذين يُعرفون "بالحدود" وأسماؤهم هي: حمزة وإسماعيل وابن محمد وأبو عبد الله محمد بن وهب، وأبو الخير سلامة وأبو حسن علي. هذه هي إشارات التعارف عند الدروز

منذ غابر الأزمان؛ إلا أني أعتقد أنه منذ نشوب الحروب الأهلية في سورية، وتشتت العديد من الكتب التي كانوا يخفونها سراً في معابدهم أو (خلواتهم)، فقد غيّروا هذه الإشارات لأنهم لا يسمحون لأحد آخر بأن يطلع عليها.

لا توجد ثمة أمّة في العالم تنفذ مبدأ المساعدة المتبادلة والتعاون على النحو الذي يفعلونه - وفي الواقع، فهم أشبه بعائلة أو عشيرة واحدة أكثر من كونهم أمة. إذ إن ازدياد قوة الموارنة برعاية الأمير السابق بشير، جعلت الدروز يتكاتفون بقوة. ففي القرن الماضي، عندما كانوا يبسطون سيطرتهم السياسية ولم يكن لهم منازع، كانت أسرة جنبلاط وأسرة يزبك في حالة حرب دائمة مع بعضهما بعضا: ولم يضع الطرفان خلافاتهما جانباً حتى برزت أطراف ثالثة، وهم يعملون متكاتفين جميعهم حالياً، رغم أنه يبدو أن عائلتيّ تلحوق وعبد الملك تناصران آل شهاب. وإذا بدا أن العائلات الدرزية تتصرف بطريقة تتعارض مع السياسة العامّة للأمة، فإن الآخرين جميعهم يتفهمون ذلك، ويكون ذلك بهدف تلبية غرض معيّن. فالتخلي عن مصالح الأمّة أو خيانتها أمر ظاهر وليس حقيقياً.

إن الوحدة السياسية والدينية لدى الدروز هي أكثر التحاماً من أي قوم آخر عرفته. إذ يعتبر الدرزي الذي يكشف عن سر دنيوي مرتداً عن دينه.

وتتعلم جميع النساء الدرزيات القراءة والكتابة، وهو أمر رائع عندما نعلم مدى جهل المرأة المسلمة والمسيحية في سورية. ولا يحق لغريب أن يرى وجه امرأة درزية، إذ يبدو أن المرأة الدرزية أكثر تحجباً من المرأة المسلمة. ويتم الزواج عادة في سن مبكرة جداً. وبخلاف الأقوام الشرقية الأخرى،

يُمنع تعدد الزوجات، وحتى الجهّال الذين لا توجد لديهم قيود، فإنهم يقلدون العقّال في هذا المجال. ويتخلى العاقل الفقير، عندما يكون لديه ولدان، عن حقه في أملاكه، أما إذا كان غنياً، فلا يزول هذا الحق إلا بعد ولادة الابن الرابع. ولا تحسب ولادة الإناث في هذه الحالة. ولا يمارس هذا الحق خلال الأشهر التسعة من الحمل. وأصر الأمير سعيد التنوخي، على التمسك بهذه القوانين من أجل صحة الأطفال وقوتهم، ولكيلا تُقسم أملاك كل عائلة بين عدد كبير من الورثة. ولعل هذه الأمور هي التي جعلت الدروز يتفوقون كثيراً من حيث الممتلكات على الموارنة. كما أن هذه القوانين الأخيرة لا تناسب بشكل عام قوماً يعملون في التجارة، بل يتمسكون بالزراعة؛ إذ يمكن للتجار الموارنة مضاعفة رأسمالهم، في حين لا يستطيع الدروز الزراعيين زيادة مساحة أراضيهم.

ولا يسمح لامرأة من فئة العقّال أن تتزوج شخصاً من فئة الجهّال؛ وإذا فعلت ذلك، فُتستبعد من الخلوة أو من المعبد لمدّة عام أو عامين. وإذا طلّق رجل زوجته فلا يستطيع إرجاعها ثانية، بل حتى أنه لا يسمح له برؤية وجهها. وإذا وافق كل من الزوج والزوجة على الطلاق، فيتم لهما ذلك؛ وإذا لم يتم الطلاق، يُعقد اجتماع سرّي يحضره أصدقاء الطرفين، يسمى *جمعية التحقيق*. فإذا كان الخطأ يقع على الرجل، يتعين عليه أن يمنح الزوجة نصف أملاكه عند انفصالهما، والعكس صحيح. ومن العادات المميزة عند الدروز، هي أنه إذا انتشر خبر، سواء كان صحيحاً أم باطلاً، بأن رجلاً طلّق زوجته، فيبعث القاضي في إثره، ويقول له "بما أن خبر طلاقك قد شاع، فيجب أن يتم الطلاق". ولا جدوى من إنكار الرجل ذلك.

وإذا ارتكبت أيّ أنثى هفوة، فإن العار يلحق بالعائلة كلها، ولا يمكن عندها لأي فرد من العائلة أن يتزوج من عائلة أخرى، وتصبح العائلة مهانة؛ أما إذا قام أحد الأخوة أو الأعمام بقتلها، أو إذا لم يكن عندها قريب مباشر، فابن العم، وعندها يُغسل العار، وتستعيد العائلة وضعها السابق*. ونادراً ما تتدخل السلطة المدنية في هذه الحالات، أو لا تتدخل أبداً لإنزال العقوبة بالقاتل. وأفضل مثال يمكنني أن أقدمه حول هذا الموضوع حكاية رواها لي نائب والي محليّ إذ قال: - " كنت نائماً في السرير، عندما سمعت طرقات على باب غرفتي في منتصف الليل فقلت: من هناك، فأجاب صوت من وراء الباب، أنا نصر الدين. ففتحت الباب، ودخل درزي يحمل كيسا على كتفه. فقلت له: ماذا جاء بك إلى هنا في هذه الساعة المبكّرة؟ فقال: لقد تورطت أختي في علاقة غرامية سرية فقتلتها. ويوجد في الكيس طرطورها وحليها الأخرى؛ وأخشى أن يعاقبني الوالي، إني أريد شفاعتك. فقلت: لكن يوجد هنا طرطوران في الكيس، فقال: لقد قتلت أمها أيضاً، لأنها كانت تعرف بأمر علاقتها. فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله. إذا كانت أختك غير طاهرة، فما سبب قتلك لأمّك؟ لكن استلقي الآن ونم. وفي الصباح قلت له أظن أنك لم تنم جيداً. فقال بالله عليك يا عمّي (العبارة المستخدمة)، لقد جعلني العار حزيناً جداً، ولم أنم منذ سنة نوماً عميقاً حتى ليلة أمس. ثم رافقته إلى الوالي وقلت له: هل تعطي نصر الدين منديل العفو؟" فقال الوالي إلى نصر الدين: تكلّم بدون خوف. فحكى له نصر الدين قصّته، فقال الوالي: لا بأس عليك. فقبّل نصر الدين يدّ الولي وذهب".

---

* إذا ارتد فرد من أسرة مسيحية في جبل لبنان، يلحق بأقاربه العار ويعزلون بنفس الطريقة.

ويكنّ الدروز احتراماً مقدساً للحريم حتى في أشد ضغائنهم ويعتبرون أن ذلك أمراً لا يمكن انتهاكه. ولا تُعرف حالة أساء فيها الدروز معاملة امرأة مسيحية. وقارن في هذا الأمر بين الدروز مع الأسبان الكاثوليك المتدينين.

ولا يوجد لدى الدروز علم أو أدب يتجاوز العلم اللاهوتي العقائدي الخاص بهم. ويتعلّم شبانهم القراءة والكتابة؛ ويكرسون بقيّة حياتهم للسياسة والزراعة، وبعض الحروب الضئيلة في الجبل. وهم يقرؤون القرآن أيضاً لكي يطلعوا عليه، ويمارسون شعائر الدين الإسلامي عند الحاجة. ومما لا شك فيه، فهم أناس في غاية الذكاء في الأمور السياسية، ويتمتعون بمهارة في الخطابة أكثر بكثير من المسيحيين، إلا أنهم لا يجارونهم في إعداد الوثائق، وبتعبير أدق، فقد يكون الدرزي مناصراً أو داعية أكثر إقناعاً، أما المسيحي فقد يكون محامياً محنكاً.

وهم لا يتذوقون الفنون الجميلة، ولا يجدون ميلاً كبيراً نحو الصناعات المفيدة. فلم أر قط رسماً أو لوحة رسمها درزي. ويقال إن الزخرفة العربية والفسيفساء الموجودة في قصر المختارة، مقر آل جنبلاط، تعادل أيّ زخرفة من هذا القبيل في سورية، إلا أنها شأن الزخارف في بيت الدين، فقد نفذها فنانون من دمشق. وتزّين بعض قبور شيوخهم منحوتات وتماثيل مثيرة للفضول.

ومن المؤكد أن جبل الدروز ليس أرضاً للطرب؛ ولا شيء يكدر الأذن أكثر من سماع موسيقاهم القاسية. ولا أقصد أن أقول إن الموسيقى العربية غير مستساغة للأذن عندما يتعود المرء على سماعها، لا، فلا شيء أجمل من

أن تكون في أحد المراكب على نهر النيل، ونور البدر يضيء ذوؤبات أشجار بساتين النخيل، وأنت تستمع إلى جوقة من المراكبية وهي تغني والمركب ينسل فوق مياه النهر. وما أروع صوت المطرب عندما يغني ويقول يا ليل يا عين، والعديد من الأغاني الأخرى التي تغنى في المدن الكبيرة في الحفلات المحلية، التي جعلت الأوروبيين الذين عاشوا لمدة طويلة في البلاد يطربون لهذا النوع من الطرب: لكنني لم أسمع أغنية ترافقها الطبلة الصغيرة من الدروز لا تشي بالألم. والكمال الغنائي في لبنان هو أن يكون الصوت أجشاً وفيه غنة؛ وكما لو أنّ ذلك لا يعتبر قلباً للمعيار الأوروبي في البراعة، فإن ذلك الصوت الأجشّ المؤذي الذي يصدر عن حرف الغين، والذي يشبه صوت مثقاب نورثيمبريان، وهو يملأ الفواصل من أجل تجميل النغم.

تمارس العائلات الحاكمة الستّ نوعاً من الحكم الإقطاعي في منطقة كل منها، ويتم عن طريقها البتّ في معظم النزاعات والخلافات الكبيرة دون الرجوع إلى القاضي، الذي نادرا ما يتم اللجوء إليه في حالات الاستئناف في القضايا المتعلقة بوراثة العقارات والقضايا الهامة الأخرى. أما في حال النزاع بين مسيحي ومسيحي، فإن القاضي الدرزي لا يبت في المسألة أبداً، ويصبح رؤساء الأديرة هم القضاة في مثل هذه الحالات. ويدّعي القضاة الدروز بأنهم ينتمون إلى مذهب أبي حنيفة، أحد أئمة المذاهب الرئيسية الأربع في التشريع الإسلامي، أما في الواقع فإنهم يلتزمون بتقاليدهم الخاصة. ومن الغريب القول إنهم يقبلون شهادة مسيحي ضدّ درزي. وفي مناطق المسلمين لا يمكن لمسيحي إلا أن يورثّ ثلث أملاكه، أما الدروز فيسمحون لكلّ رجل عاقل يمتلك حريته أن يوّرث أملاكه كما يشاء. وفي حال تنصّر

درزي، فهم يدّعون أن أباه لم يكن درزياً، وأن أمه كانت على علاقة سرية مع رجل مسيحي. وعندما يحكم على رجل بأن يدفع ديناً، ويتهرب من دفعه، فلا يودع السجن، بل يحضر إلى بيته جنديان ويقيمان عنده حتى يسدد الدين أو يجهزان على كل الطعام في بيته. وعادة ما يتم التوصل إلى حل وسط بعد فترة قصيرة.

وسعى الدروز إلى التخلص من نير الأمير بشير الذي بذل ما بوسعه لسحق نفوذ الدروز، مما أدى إلى اندلاع اضطرابات: وقد رافق قمع هذه الاضطرابات مصادرات واسعة لأراضيهم. وقد أدى طرد الأمير بشير في عام ١٨٤٠ إلى استعادة الدروز لأراضيهم بالقوة، مما نشأ عن ذلك نزاعات شديدة التعقيد، فقد كانت الأراضي قد بيعت في بعض الحالات إلى أطراف ثالثة.

فمن ناحية، كان هناك الطلب لاستعادة الأموال التي تم دفعها، ومن ناحية أخرى، كان هناك حق الوراثة الذي لا يمكن بطلانه. وحتى وقت مغادرتي سورية في خريف عام ١٨٤٣، تمكن الدروز من استعادة معظم الأراضي التي كانت محل نزاع*.

تعطي الأرض عائداً يقدر بحوالي ٤ في المائة، إذا لم يقم المالك نفسه بزراعتها. ويعد الحرير المحصول الرئيسي. ولا يسع المسافر إلا أن يشعر بالإعجاب عندما يرى أن كلّ شبر من الأرض على أطراف الجبال قد جعلت في مصاطب لزراعة أشجار التوت، وسقايتها. ولا يولى اهتمام كبير

* اطلعت من الصحف أنه كان على الدروز أن يعيدوا مبلغاً كبيراً من المال كتعويض.

بشق الطرق. وثمة عدد قليل من أشجار البرتقال، أو تكاد لا توجد على الإطلاق في أعالي لبنان، إلا أنها تزرع بنجاح في الارتفاعات المتوسطة. ولا تزرع كذلك في مناطق الدروز، أو يزرع قدر قليل منها. أما المحاصيل التي لا تزرع في البقاع فهي تجلب من مصر. وتجلب جميع كميات الرزّ تقريباً، الذي يعد المادة الغذائية الرئيسية إلى جانب الخبز، من دمياط إلى صيدا أو بيروت.

وعدد الطرق قليل جداً في جبل لبنان: أما الطرق التي شقت بعناية شديدة، فتتألف من عدد متعاقب من الدرجات إلى أعلى أو إلى أسفل طرف الجبل. وفي العديد من الطرق المطروقة أكثر، فإن الحصان يعرف كيف يشق طريقه بأفضل وسيلة يستطيعها. وفي الواقع، فقد أبقيت الطرق بهذا الشكل عمداً لعرقلة تحركات القوات العسكرية. ويمكن للحكومة الجيّدة أن تشق طريقاً مرصوفاً عبر جبل لبنان بالقرب من المتن؛ وبما أن حركة المرور بين بيروت ودمشق شديدة، فيمكن فرض رسوم معتدلة، وإدخال عربات ذات عجلات لنقل السلع، للحصول على فائدة معقولة لتغطية النفقات. وحيوانات النقل الوحيدة المستخدمة حالياً هي البغال والحمير. ولا يستطيع الجمل العربي عبور هذه الجبال، أما الجمل التركماني الجبلي الذي يستخدم في شمال سورية، فهو غير معروف هنا. ويعمل الكثير من الدروز في تجارة النقل بين دمشق وبيروت. وقلما تحدث خسارات بسبب عدم صدق أو دقة مواعيد هؤلاء الناقلين أو أنها تكاد لا تحدث على الإطلاق.

تعد الضيافة قانوناً صارماً في كافة أنحاء الشرق، ولا أجازف إن قلت إن الدروز يتجاوزون المعايير الشرقية في هذا المجال. وانطلاقاً من الطبيعة

الأنانية للفلسفة التي ورثها الدروز من القرامطة والباطنية، فإن حماية غريب في خطر أو مساعدته تعتبر أمراً غير شرعي، بيد أنهم يفعلون ذلك من مبدأ الشرف. وإني إذ أتحدث من تجربتي الخاصة، فقد اسُتقبلت في كلّ بقعة من المناطق الدرزية بأقصى درجات الكرم والضيافة. وأسلوبهم في العيش على النحو التالي: فهم يأكلون ثلاث مرات في اليوم. ففي الصباح يتناولون قليلاً من الخبز والجبن أو العنب. ويتناولون وجبة الغداء في منتصف النهار: ومن أكثر الوجبات شيوعاً الكبة، أو لحم مفروم وذرة تُجعل في كرات وتُقلى، ويُلف الأرز في أوراق العنب المطهو، وتقدم أنواع مختلفة من السلطات، وأطباق العجة مع الأعشاب. والكثير من الأطباق شائعة على الموائد التركية والدرزية، مثل الأرز واللحم، والقرع المحشو بالرزّ. ويتم تناول اللبن المختّر دائماً مع الأرز واللحم. وفي بيوت الطبقات العليا، تقدم على المائدة الحساء، والطيور، ولحم الضأن، التي تطهى دائماً مع الخضار. وفي الأعياد أو في المناسبات، يدعى الغرباء وتقدم لهم لحوم الطرائد أو لحم حمل صغير. وعندما يرغب سيد المنزل في أن يكرّم أحد ضيوفه، يستوي واقفاً ويمزّق قطعة من اللحم بأصابعه، ويضعها في صحن الشخص الذي يريد تكريمه. إنّ مذاق الخروف في جبل لبنان رائع، أما لحم البقر فلا يؤكل أبداً. وشأن اليهود والمسلمين لا يتناول الدروز لحم الخنزير. ويعد التين والعنب أفضل الثمار في المناطق الدرزية. وحجم التفاح والأجاص صغير وعديم النكهة. وثمة أنواع من الأجاص تكون في غاية الخشونة بحيث يخيل إليك أنك تقشر قطعة من الخشب. ويُجلب بطيخ أحمر لذيذ من يافا بواسطة المراكب، ويجلب بعضها من طرابلس، ويشكّل مصدراً هاماً للنفوس الظمآنة في الطقس الحار.

وبسبب هواء الجبال النقي، واعتدال درجة الحرارة في الصيف وكذلك في الشتاء، فإن الدروز ليسوا أقوياء البنية فحسب، بل إنهم جنس معمر كذلك. ورغم أن الثلج يغطي قمم جبل لبنان في الشتاء، فإن المناطق المأهولة نادرا ما تتعرض للصقيع، بسبب قربها المباشر من البحر الأبيض المتوسط؛ وخلال الصيف، تهب نسائم غربية باردة منعشة، لا يُشعر بها كثيراً على الساحل، من خلال ممرات المناطق العليا، بحيث يصبح الفرق في درجة الحرارة ١٠ درجات فهرنهايت عند الارتفاعات المتوسطة. ورغم روعة المناخ الذي لا نظير له، فإن انتشار الطاعون ليس نادراً، ولا يعزى سببه في رأيي إلا إلى عدم إزالة الأوساخ المتراكمة في الشوارع. ورغم مستعمرات البراغيث التي تغزو البيوت، فعي تُكنس وتُغسل بعناية. وتعد الحمّى الصفراوية المتقطّعة والإسهال من الأمراض الأكثر تفشياً في الجبال. وتتفشى حمى الملاريا في القرى التي تنتشر فيها بساتين التوت المروية.

وعندما يتوفى درزي ذكر، يُعرض جثمانه وهو يرتدي أفضل ملابسه، ويكون وجهه مكشوفاً، في حين توضع المرأة المتوفاة في تابوت. وجميع القبور في الجبل على شكل غرفة تدعى خشخاشة، وتقع عادة إلى جانب الطريق العام.

ولا يُغلق غطاء تابوت الأنثى الميتة في بادئ الأمر، أما جثمان الرجل فيوضع فوق التابوت، ثم توضع صخرة كبيرة أمام مدخل القبر، الذي لا يُغلق لبضعة أيام. وذلك، لكي تتاح للشخص إذا لم يكن قد مات حقاً، بل كان في غيبوبة، فرصة الصراخ عالياً، بحيث يمكن للمسافرين أن يسمعوه وينقذوه. ويعتبرون أنه من المشين تماماً تقديم نقود إلى حاملي التابوت إلى

القبر، كما هو الحال في أجزاء أخرى من سورية. ويتزاحم المعزون على حمل التابوت. ويضع الدروز والمسيحيون في هذه المناسبات أحقادهم جانباً، ويسيرون جميعهم في موكب الجنازة. وعندما كان يتوفى أحد من كبار العقّال، كان الأمير بشير يقبّل يدّ الميت، ويرفع يدّه اليمنى ليحمل الجثّة. إلا أنه عندما تقدم به السن، فقد حرص على أن يرسل أحد أبنائه للقيام بهذه المهمة بدلاً عنه.

وعندما يتوفى أحد العقّال، يعقدون اجتماعاً ليحكموا على حسناته وسيئاته. فيستعرضون جميع دقائق وتفاصيل حياته ويفتقدونها. فإذا كان القرار لصالحه يقولون " الله يرحموا"، وإذا لم يكن كذلك، فهم يعتقدون أنه لا يستحق الرحمة.

الفصل السابع

البنية السياسية للدروز
لمحة تاريخية عن الدروز
هجرة المسيحيين
تحطيم تفوق الدروز على يد الأمير بشير
التاريخ الحديث للدروز

يتعذر دراسة وضع سورية الحالي دون معرفة البنية الجغرافية لهذا البلد الذي ترك بصماته الواضحة على تاريخ العصور السابقة. فمصر عبارة عن سهل، أما سورية فلا يعدو كونها أكثر من مجموعة من الجبال المحاذية للبحر. وكانت مصر دائماً تذعن للغزاة: أما سورية، ورغم انقساماتها الداخلية، تكون فريسة سهلة للغزو في بادئ الأمر، إلا أنها سرعان ما تصبح مصدر قلق واضطراب لمن يغزوها. هذه التعددية اللامحدودة من الطوائف والأعراق هي السبب الرئيسي في عدم التمكن من إخضاعها تماماً في الماضي. وتعزى الانقسامات السياسية في سورية إلى وضعها الجغرافي. وعبثاً تمكنت تركيا من رسم حدود واضحة على خريطة البشالق.

ويمكن مقارنة الأعيان السبعة الذين يحكمون عدداً مماثلاً من المناطق في جبال الدروز، برؤساء العشائر في المناطق المرتفعة الذين كانوا يتمتعون

بنفوذ كبير في بداية القرن الماضي على الفلاحين، وكان الاحترام الذي يكنّه الناس للعقّال يحد كثيراً من ممارسة السلطة الاستبدادية. وكان اثنان من هؤلاء الأعيان من الأمراء (رسلان وأبي اللمع)، في حين يطلق على الأعيان الخمسة الآخرين (جنبلاط وأبو نكد والعماد وتلحوق وعبد الملك) لقب شيخ، وهي تعني حرفيا الشخص المتقدم في السن، إلا أننا لكي نبرز فكرة الهيمنة الإقطاعية، يمكن التعبير عنها بشكل أفضل بالكلمتين الفرنسية والإيطالية سنيور.

وكان أمير جبل لبنان يحتل موقعاً وسطاً بين هؤلاء الزعماء وبين الحكومة التركية. وكانت تحمل هذا اللقب الرفيع الأسرتان اللتان انقرضتا الآن وهما التنوخيون والمعنيون، والذي انتقل منذ ما يقرب من قرن ونصف القرن إلى آل شهاب، وهي عائلة مسلمة قدمت من مكة المكرمة، وحلّ بها المقام في سلسلة جبال لبنان الشرقية منذ عدة قرون.

وكانت العائلات الأخرى الأقل شأناً في حالة عداء مع بعضها، وكانت تنقسم إلى حزبين - النباتيون واليزبيكيون أو العماد. وكانت سلطة أمير الدروز في هذه الحالات تكاد تكون شكلية.

وفي الماضي، عندما كان عدد الدروز يفوق عدد السكان المسيحيين كثيراً، كان يتم تشجيع المسيحيين على الهجرة لزراعة الأراضي. فقد امتهن المسيحيون الزراعة، وتمسّك الدروز بالسيف. وفيما كان المسيحيون منتجين وتزداد أعدادهم، كانت الضغائن بين الدروز تحول دون تقدمهم، لذلك نرى الآن أن المسيحيين في جميع مقاطعات الدروز، ما عدا الشوف، يشكّلون

الأغلبية. وكان هذا الأمر في حد ذاته ثورة كبيرة، أكملها الأمير بشير قاسم. فقد تخلى هذا الرجل الداهية عن ديانته الإسلامية، وأصبح مارونياً، وأقنع أمراء المتن (آل أبي اللمع) التي كان لآل شهاب علاقة قرابة معها، باعتناق المسيحية أيضاً، وتمكن بمواهبه ومركزه أن يشكل حزباً قضى على سلطة الدروز قضاء مبرماً.

وكان خصمه اللدود - بل أكاد أقول منافسه - الشيخ بشير جنبلاط، أكثر الدروز ثراء. ويقول بوكهاردت، الذي زار المناطق الدرزية في عام ١٨١١: " يسيطر آل جنبلاط حالياً على كلّ شيء، وعلى رأسهم الشيخ بشير، الأكثر ثراء وفطنة في الجبل، الذي كان يملك عقارات كثيرة جداً، ولم يكن بالإمكان حلّ أي مسألة ذات أهمية إذا لم يتم التقرب منه وكسب وده. ويبلغ دخله السنوي حوالي ألفيّ كيس، أو خمسين ألف جنيه إسترليني، ويقع إقليم الشوف كله تحت سيطرته، ويكاد يكون شريكاً مع جميع الدروز الذين يملكون أراضي هناك. وهو يمتلك الجزء الأكبر من منطقة جزين، ولا يسمح لأحد أن يمتلك عقارات في تلك المنطقة. ومع تزايد عدد عقاراته سنوياً، كان نفوذه يزداد باستمرار. ولم يكن بوسع الأمير بشير أن يفعل شيئاً ذا شأن دون حصوله على موافقة الشيخ بشير، والذي كان مرغماً على مشاركته في جميع المبالغ التي يحصل عليها بالابتزاز من سكان الجبل".

ولمواجهة هذا النفوذ، سعى الأمير بشير إلى تدعيم قوة الموارنة، وكان لديه تفاهم سري مع باشا عكا، لسحق آل جنبلاط في أول فرصة سانحة.

وعندما رأى الشيخ بشير جنبلاط أن صعود الأمير قد يؤدي إلى إضعاف أسرته وقومه، زاد من وتيرة التمرد، لكنه هُزم وهرب إلى حوران، ثم قُطع رأسه في عكا. واستولى الأمير بشير على أجزاء كبيرة من أراضيه، وهُدم منزله في المختارة، وأصبحت ألواح الرخام التي كانت تتألق في ردهاته الرائعة تزيّن حالياً قصر بيت الدين.

إن الضربة التي وجّهها الأمير بشير قصمت ظهر الدروز، إلا أن الأطراف تمكنت من تجميع نفسها وتمت المصالحة بين عائلتي تلحوق وعبد الملك. وأصبحت عائلة ضخمة في الشوف تدعى آل حمادة، كانت تعيش في بعقلين، شيوخاً في تلك المنطقة، وسارت الأمور سيراً حسناً حتى الغزو المصري. ووقف الأمير بشير إلى جانب محمد علي، في حين وقف الدروز إلى جانب السلطان؛ وبعد معركة حمص وبيلان تم نفي العديد من رؤساء الدروز إلى مصر.

وقد أدى رحيل إبراهيم باشا من سورية في عام ١٨٤٠ إلى عودة هؤلاء الشيوخ الدروز المنفيين إلى بيوتهم. وجال الشيوخ نعمان وسعيد وإسماعيل جنبلاط، أبناء الشيخ الراحل بشير جنبلاط بعد وفاة والدهم في أرجاء تركيا، وكانوا يقيمون حيناً في سالونيكا، وحيناً في القسطنطينية وإزمير، وكان الباب العالي يصرف لهم مبلغاً من المال، إلا أنه أخذ يتناقص شيئاً فشيئاً، ثم استقر بهم المقام في نهاية المطاف في مصر. وكمحاولة يائسة من محمد علي بعد أن وردته أنباء عن نجاح الأسطول البريطاني وارتداد الأمير بشير، فقد منح الشيخ نعمان جنبلاط، والشيخ

ناصيف أبو نكد، والشيخ خطار العماد لقب البيكوية المصرية، ووعدهم بـأنه سينّصب من يبرّز أكثر في خدمة قضيته أميراً على الجبل. وغمر شيوخ الدروز شعور بالسعادة الكبيرة لأنه أتيحت لهم فرصة العودة إلى سورية، وانطلقوا بدون تأخير عبر الصحراء. إلا أنهم عندما وصلوا إلى يافا، وجدوا أن إبراهيم باشا قد هزم تماماً، فقرروا أن يسبحوا مع التيار، وقدموا فروض الطاعة للأمير الجديد بشير قاسم. وكان هذا الرجل، الذي يتمتع بشجاعة شخصية كبيرة، مفعماً بالكبرياء والتعصب، ويتسم بشيء من الاستقامة والأمانة، وهو شيء نادر في الشرق. وكانت تعوزه بصورة عامة الكياسة التي يحتاجها الحاكم، الذي تكون واجباته مدنية لا عسكرية. واستقبلهم الأمير بشير استقبالاً سيئاً للغاية مما أثار حفيظتهم. وكان هذا التصرف يتسم بحماقة شديدة. وبسبب مركزهم المؤثر، والانضباط والسرية الذي يجمع الأمة الدرزية، على الأقل، كان يجب معاملتهم معاملة أفضل.

وعندما عاد الأمير بشير إلى جبل لبنان، بعد انتهاء الحملة وجلاء إبراهيم باشا عن سورية، لم يجد عوناً له. وقد عوّض الحماس الشديد الذي استقبل به الشيوخ الدروز بحماس شديد من قبل قومهم، الاستقبال البارد الذي استقبلهم به الأمير. وتم تجاهل سلطة الأمير بشير في جميع المناطق الدرزية، وحلت محلها سلطة الشيوخ. وخيل إليه أنه لكونه مارونياً، فإن ذلك سيجعل له نفوذاً في المناطق المارونية في الشمال، إلا أن الشيوخ هناك كانوا في توق شديد لكي يرفعوا من شأنهم والحّط من مقام آل شهاب.

وكان المنافس الرئيسي للأمير بشير البطرك الماروني الذي كان الأساقفة يتوقون إلى جعله بابا روحياً، لا بابا دنيوياً فقط في جبل لبنان. وقد أثار هذا الطموح امتعاض زعماء الدروز باعتباره تطاولاً على امتيازاتهم؛ وهكذا انتهى العداء الدامي بين هذين الفريقين الذي قضى عليه الباب العالي وأخضع كلا الطرفين.

هكذا كانت هي الأحوال في أثناء جولتي في المناطق الدرزية، ثم عدت بعدها إلى بيروت.

الفصل الثامن

الهجوم على دير القمر
أيوب باشا - آل أرسلان
مشهد ليلي - حرب الدروز
الأمير بشير - حالة حصار

بعد أن شن الدروز هجوماً على دير القمر وأحرقوها، بعد أن غادرها الأمير بشير، توجه أيوب باشا والكولونيل روز من بيروت إلى تلك البلدة لوقف إراقة الدماء. وقمت بمرافقة الكولونيل، وأتيحت لي الفرصة لأن أكون شاهد عيان على الطريقة التي تشن فيها مثل هذه الحروب في الجبل.

وكان مكان اللقاء في غيطة تكسوها أشجار الصنوبر، تبعد عن بيروت قرابة نصف ساعة. ويذّكرك مشهد الغيطة الرائع بأكثر الألوان حيوية في لوحة لامارتين، وتثير مخيلة الكثير من الفنانين. وبالإضافة إلى الإنكليز ومرافقيهم، كان هناك أيوب باشا، وهو شركسي الأصل، والتفنكجي باشي والعديد من العسكر. وكان التفنكجي باشي واسمه محمد آغا، شخصية مميّزة. إذ كان قصير القامة، ذا عين واحدة، وله صوت جهوري لا يجاريه فيه أحد، ولم أسمع له شبيهاً في حياتي. وهو ألباني الأصل (أرناؤطي)، وكان قد شارك في الحروب وأعمال النهب والسلب كقائد لقوات غير نظامية خلال السنوات الأربعين الماضية، - دوجالد دالجيتي - شخصية حقيقية من جبال ألبانيا.

كانت بلدة الحدث أول محطة توقفنا فيها، حيث انتظرنا وصول الأمير سليمان الذي سيقودنا من مواقع الموارنة إلى مواقع الدروز. وبعد أن تركنا خيولنا في الباحة صعدنا إلى الإيوان. وسرعان ما اكتظت الغرفة، وراح رجل بدين يعتمر عمامة بيضاء ضخمة يغني بصوت أجش يصم الآذان. ثم زعم أنه شاهد من النافذة عدداً من الأشخاص يهبطون من السفن لمساندة الدروز. وكما هو متوقع، فقد رأينا سفينتين شراعيتين يونانيتين راسيتين قبالة رأس بيروت. لكننا اكتشفنا أن الجيش المتحالف لم يكن سوى شريط رملي تكسوه شجيرات منخفضة. وما يميز الأمير سليمان عن باقي أفراد أسرته في لبنان أنه ظل متمسكاً بالدين الإسلامي، في حين تنصّر جميع ما تبقى من أمراء آل شهاب، ماعدا الذين يقيمون في حاصبيا. وكان الأمير سليمان في أيام شبابه من أكثر الأفراد الذين يتمتعون بالقوة والنشاط بين آل شهاب، وكان قد ثار على الأمير بشير، ففقئت عيناه، وقطع لسانه، ومن العجائب أن لسانه عاد ونما، وأصبح يتكلّم جيداً، وأصبح يرى كذلك بعين واحدة قليلاً. وتؤم زوجته وبناته الكنيسة، ولديهن كاهن ماروني للاعتراف، في حين أنه يعتبر استعادته لبصره وكلامه معجزة من معجزات نبي الإسلام، فتمّسك بدين آبائه وأجداده.

وعندما أُعلن عن وصول الأمير سليمان، دخل الغرفة رجل مسن، أحنت ظهره السنون السبعون من عمره، إلا أن إمارات الصحة كانت لا تزال بادية عليه. ورغم أنه لم يكن يرى بإحدى عينيه تماماً، ويرى بعض الشيء بالعين الأخرى، اتجه مباشرة نحو الباشا الجالس على عتبة النافذة. وانحنى هذا الرجل الطاعن في السن، الشهابي ذو اللحية البيضاء، أكثر

الناس شهرة في أرض العرب، وجثا على ركبة واحدة أمام هذا العبد القوقازي وقبّل يده، فأعرب هذا المملوك عن امتنانه بلطف شديد بإيماءة برأسه، ونهض مقدار نصف بوصة من عتبة النافذة. وبعد حديث قصير، اتفق على أن يرافقنا الأمير سليمان حتى مسافة قصيرة من الموقع الدرزي في عين عنوب، فامتطينا جميعنا خيولنا وبدأنا رحلتنا بالصعود الشديد المؤدي إلى هناك، وكانت قد سبقتنا رسالة موجهة إلى أمراء أرسلان الدروز المقيمين في عين عنوب.

وعند عين بسابا، وهو نبع مياه رائع، تظلّله أشجار الجوز الجميلة، ودّعنا الأمير العجوز، وانتقلنا إلى الأرض المحايدة. وصعدنا الآن إلى الجزء الأكثر قفراً من لبنان. وكان الطريق ضيقاً، وكان جدار صخري يجثم إلى يسارنا، ومنحدر عميق إلى يميننا: وأخيراً لاح أمامنا موقع الدروز المتقدم يتربع فوق نتوء يعتبر ممراً أساسياً.

لاقتنا مجموعة مؤلفة من ثلاثين رجلاً يرتدون سترات صوفية مخطّطة، يحمل كلّ منهم بندقية في يده، وحيتنا بأنشودة حربية. ومما أثار دهشتي، أني لاحظت أن اثنين من هؤلاء الرجال كانا متقدمين في العمر، إذ يبلغ عمر أحدهما ستين عاماً والآخر سبعين عاماً. وكان كلّ منهما يحمل بندقية على كتفه، ويصيح بصوت أجش، وقد خلا فم كل منهما من الأسنان. إن إلقاء نظرة واحدة إلى ملامح وقسمات هذه المجموعة تكفي لأن يقتنع المرء بأنهم ينتمون إلى قوم من المحاربين أكثر بكثير من القوم الذين كنا قد غادرناهم للتو.

أما عين عنوب التي بدأنا نقترب منها الآن، فهي القرية الرئيسية في منطقة الغرب الأدنى، ومقر إقامة العديد من أفراد آل أرسلان. وبرز من

القرية فارس شجاع يرتدي عباءة حمراء فاتحة اللون للقائنا، يرافقه عشرون أو ثلاثون مسلحاً. وتبين أن هذا الشخص هو الأمير سليمان أرسلان، الذي دعا المجموعة لقضاء الليلة في بيته. فأفرغت حمولة البغال ونصبت الخيام فوق هضبة واسعة أمام البيت تطلّ على الوادي.

ومن الجلي أن بيت الأمير معد للإقامة والحماية أكثر من كونه معداً للزينة. ويوجد في مقدمة المبنى الأمامي قوس عريض، توجد على جانبيه مصطبة للخدم، ودرج في الباحة الداخلية. وتحيط بالباحة مقاعد حجرية. أما الحرملك فيقع في الجزء العلوي، وهو بناء مرتفع متين. وكان هذا الشطر من المبنى، الأقرب إلى الطريق العام، مفتوحاً، محاطاً بسور، يتيح موقعاً رائعاً إذا ما هوجم البيت. وإني لا أتحدث هنا إلا عن حرب الجبل: فلا يعرف الدروز والموارنة شيئاً عن القذائف. وبما أن هذا الجزء من المنزل يطل على منظر جميل من الوادي، فقد كانت القبة الخفيفة للمشربية تمنح ظلاً وفيئاً للذين يرغبون في قضاء وقت ممتع، وهي المتعة الرئيسية عند العرب، التي تنحصر في احتساء الشرابات وتدخين النرجيلة.

دخلنا الآن الإيوان الخارجي، حيث استقبلنا الأمير أمين أرسلان، الذي لا يحتل مركز الصدارة في هذا المنزل فحسب، بل يُعتبر بالفطرة أحد أكثر الرجال الذين يتمتعون بنفوذ في صفوف الدروز، ويتمتع بميزات شخصية تجعله كذلك بحق. ولم يكن ضخماً، بل متوسط الحجم، ضامراً، ويرتدي الثياب المصرية العادية، وكان شديد الاعتداد بنفسه. وتحدث إلى الباشا باللغة التركية، وقال إنه لا يعرف شيئاً عما يحدث في دير القمر، واعتبر أن الموقف الذي اتخذه رجاله موقفاً دفاعياً صرفاً.

وكانت هناك في معسكرهم مجموعات وأفراد شديدي التباين- جنود أتراك، جنود مدفعية إنكليز، وحشود من المتفرجين الدروز، صغاراً وكباراً، مدججين بالسلاح، وغير مسلحين: وهناك خيمة ضابط إنكليزي أنيقة مسدلة، يكسوها السجاد، وفيها مرحاض متنقل، ونشريات وأشياء صغيرة مختلفة؛ وكنت ترى مجموعة من الرجال يجلسون القرفصاء ويتحلقون حول طبق من الرز واللحم، ثم يحصلون على قيلولتهم تحت غطاء الطبيعة. ويا لها من مجموعة متنوعة من الحيوانات، بدءا من الحصان النجدي المهيب، الأملس والمتغطرس، انتهاء بالبغال التي تحمل الأمتعة والتي لا يشعر المرء نحوها إلا بالحزن والأسف.

وما أن هبط المساء حتى قُدّم لنا عشاء عربي كبير في الإيوان. وبعد أن احتسينا القهوة ودخنا القلايين، مضيت إلى الباحة الكبيرة التي وصفتها للتو. كان قد هبط الليل، ولم تعد تبين ذرى الصخور التي تعلو المشربية، فيما كانت المشاعل تلقي بنورها المتوهج على كلّ زاوية من زوايا الباحة. وكان لا يقل عن مائة وخمسين درزياً يصطفون حول الجدران، يحمل كلّ واحد منهم بندقيته، صامتين وكأن على رؤوسهم الطير. ولم يكن يسمع شيء سوى صوت همهمة الأمير أمين، الجالس قرب المصابيح ويملي بعض الرسائل على أخيه محمد. وكان السعاة بين الحين والآخر ينقلون ما في جعبتهم من أخبار همساً. وكانت تعطى الأجوبة، وتصدر الأوامر، ويُعيّن الحراس في مواقعهم، إلا أن النظام والهدوء كانا سائدين تماماً. وكانت المشاعل تضطرم، والأشخاص في حركة دائبة. وقد سحرني هذا المشهد الرائع، ولا بدّ أن هذا المشهد هو الذي أوحى لرامبراندت بفكرة لوحة

الحارس الليلي: بقلمه الرصاص وذلك اللون الأصفر الفاقع، الذي يمكن أن يصور هذا المشهد في إحدى لوحاته على أفضل وجه. أين يمكن لرسام حديث أن يجد مشاهد رائعة كهذه في الحروب الأوروبية؟ إذ تعود المعسكرات ذات الألوان الزاهية والمشاهد الليلية التي لا يوجد لها مثيل إلى أيام سالفة في بلاد الشرق: فقد أتلفت الدقة في النظام ورتابة الزيّ الرسمي هذا المشهد الرائع.

وفي صباح اليوم التالي، عبرنا أول تل من تلال جبل لبنان، ثم انحدرنا باتجاه جسر القاضي، وهو جسر حجري يمر فوق جدول غزير من المياه، وتتشكل ضفتاه من صخور أصبحت ناعمة ملساء صقيلة بسبب استمرار تدفق المياه عليها. ويُعد الخان الرفيق الطبيعي للجسر وجدول المياه من هذا النوع. وتحت الشرفة البدائية، انتشرت تلال من البيض المسلوق، وصواني من العنب والتين والبطيخ، أدخلت البهجة إلى ناظري، وأشبعت ذوقي في جولاتي السابقة، أما الآن، فكان الماء كل ما كنت أصبو إليه. وروى لي قسّ ماروني رثّ الثياب، يحمل سيفاً تحت عباءته، قصة محزنة مفادها أنه بما أن صاحب الخان كان مسيحياً، فقد أساء الدروز معاملته، وكسروا جراره وصحونه. "ألا يمكننا أن نحصل على قليل من اللبن؟ "قال أحد الحاضرين. فكان الرد الوحيد الذي قدمه القسّ هو أن رفع مقبض القدح المكسور الذي التقطه من الأرض.

صعدنا الجبل الآن في الدرب المؤدي مباشرة إلى دير القمر. وتابعنا سيرنا مرهقين ونحن نشق طريقنا صعوداً لنعبر ممراً آخر. وبعد أن اجتزنا بستاناً مزروعاً بأشجار التين، كان مشهد البحر الرائع أجمل مكافئة لنا.

إنّ المتعة التي يستمدها المرء من هذه المساحة اللازوردية الممتدة على مد البصر، التي يمكن للمرء أن يشاهدها من فوق مرتفعات جبال لبنان، إذا كان الجوّ رائقاً، هي متعة حقيقية تماماً، بحيث تجعلك تتوقف عن المسير لا شعورياً. وشعرت بمتعة كبيرة، لولا أن شيئاً أسود جعلني أستدير بسرعة وأنظر في الاتجاه المعاكس. إذ بدأ يتصاعد عمود من الدخان الأسود الكثيف وشيئاً فشيئاً على نحو مخيف حتى وصل إلى علو يتجاوز المباني المحيطة بالقريتين الكبيرتين على منحدر جبال الشوف الواقعة على الطرف المقابل. وهذه هي المرة الأولى في حياتي كمواطن مسالم، أرى فيها ويلات الحرب.

وبعد أن واصلنا السير قليلاً، برزت أمامنا دير القمر. لكن يالها من صورة كئيبة وحزينة تلك التي مثلت أمام عيني، مقارنة بما كانت تنعم به من السلم والازدهار عندما رأيتها قبل شهر من الآن. فقد كان السواد والدمار يغلفان الجزء الأدنى من البلدة الواقعة إلى جانب طريق بيروت، وأصبحت البيوت بدون أسطح. وكانت النار تشتعل باستمرار بين سور القصر والبيوت في القسم المرتفع من البلدة.

دخلنا الآن البلدة، واستقبلنا الدروز بصرخات من البهجة والفرحة بسبب نصرهم الذي يدعو للرثاء، وبأقصى مظاهر الترحيب وحشية. لكن المشهد برمته كان فظيعاً، بحيث لم نبد أي استجابة لترحيبهم لكي لا يفسر على أنه تعاطف معهم: فقد قابلنا هتافاتهم وصراخهم بصمت رصين.

وسمعنا صوت طلقات نارية فأخذ الرجال يصيحون وطلبوا من القنصل العام المكوث داخل أحد البيوت. عدنا القهقرى بضعة ياردات،

وبناء على طلب القاضي دخلنا إلى أحد المنازل، الذي سرعان ما غص بالناس بعد بضع دقائق. وجلس إلى جانبي أمير مسيحي من المتن، كان في وضع لا يحسد عليه. فلم يكن يتوقع أن تندلع حرب أهلية، وجاء إلى دير القمر ليجري مع الأمير بشير الترتيبات الأولية حول اتفاق الزواج بين ابنته أو ابنة أخته، وهكذا احتجزه الدروز بشكل مؤدّب احتراماً لمكانته.

وقد دفعتنا أصوات الهتافات والصياح إلى الخروج إلى الشرفة، فرأيت الشيخ ناصيف أبو نكد، زعيم الدروز، آتياً نحونا. ولا شيء يمكن أن يفوق الحماس الشديد الذي استقبله به الناس. وبعد قرابة نصف ساعة تبعه الشيخ نعمان جنبلاط، الذي ظل في منزله في المختارة لا يحرك ساكناً طوال هذا الوقت. ولم يفتني أن ألاحظ الفرق بين سلوك هذين الرجلين. فقد كان الشيخ ناصيف، رئيس حزب الحرب الدرزي، يرتدي بدلة مصرية، بنية اللون، مطّرزة بشارات سوداء، وحذاء أحمر. وكان متوسط الحجم، متناسقاً، في حوالي الأربعين من عمره. وكان في ذروة نشاطه، ويسير بخطى خفيفة وسريعة حتى يخال إليك أنه يكاد يسير قفزاً.

أما الشيخ نعمان جنبلاط، فكان ضئيل الحجم، جميل الهيئة، لكن ثمة انحراف طفيف في بصره. ولم يكن يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره، ويرتدي ثياباً خضراء داكنة وحذاء أصفر. وكان نعمان المحب للسلام يشتعل غضباً، ومنديله القطني ذو الحواف الذهبية، الذي يمسكه بيده، في حركة دائمة بسبب هياجه وإثارته. فلا ريب أن هذه الفترة كانت فترة حرجة بالنسبة له، وذلك لأنه لم يكن بوسعه أن يتكهن فيما إذا كان هذا الأمر سيسفر عن موته، أو نفيه أو مصادرة أملاكه الواسعة، أم أن الأمر سيمّر

بسلام - ولا بد من الإقرار بأن الأمر كان عصيباً بالنسبة للجميع. وبكياسته المعتادة صاح: "أين الشيخ ناصيف؟"، وعندما رآه أقبل عليه وتعانقا.

وبعد مناقشة قصيرة، وافق الباشا والشيخان على اقتراح القنصل العام البريطاني بضرورة إخراج علم الهدنة وإرساله إلى الأمير بشير مرفقاً برسالة. وهكذا أنيطت مهمة رفع العلم والرسالة إلى عازف بوق تركي. فامتطى حصانه، وخرج من الحيّ الدرزي واجتاز الميدان. أما نحن فكنا جميعنا متجمهرين على سطح المنزل لرؤية ما ستسفر عنه هذه المهمة. وكانت أسطح القصر ووسط الحيّ المسيحي محتشداً بالناس كذلك.

وعند أول انطلاقة من البوق، صمت الجميع وساد صمت مطبق حتى وصل عازف البوق إلى الخطّ المسيحي. ولن أنسى ما حييت تلك الأصداء المثيرة للانقباض والحزن! وبإحساس غامض، فإن مشهد مجموعة البيوت السوداء المحترقة الخالية من سكانها جعلت صوت البوق جنائزياً إلى درجة كبيرة بالنسبة لأذني.

وبعد نصف ساعة وصلنا رد ودّي سلمي، فامتطينا خيولنا. واجتزنا الآن ما كان يعتبر السوق. وشقت الخيول طريقها فوق غبار معدني رمادي اللون أشبه بالثلج الوسخ، إذ إن حرارة الشمس صهرت الحجارة تماماً. وكان هذا الغبار ممزوجاً بالفحم. وما أن كان حصاني يضع حافره بين الحين والآخر في هذه الكتلة، حتى بدا وكأنه يطأ جيراً مغلياً. وكان كل ما حولنا قد أصبح خراباً وفي حلة سوداء. ففي هذا المكان رأيت قبل شهر صفوفاً من الدكاكين الممتلئة بالمواد، ومجموعات كثيرة من المشترين والباعة. أما الآن فلم تكن ترى في الساحة الكبيرة أو السوق إنساناً واحداً: وفي شارع

ضيّق يقع بمحاذاة السوق أقيم حاجز من الأحجار الكبيرة حتى مستوى الصدر، وكان يقبع وراءه مجموعة مؤلفة من ستة رجال. وبما أن بوّابة السرايا كانت قد حُصنت من الخارج والداخل، دخلنا من باب خلفي. ويعجز اللسان عن وصف مشهد الباحة الذي ترآى لنا. فقد لجأت ثلاثة أرباع العائلات المسيحية إلى هذا المكان وإلى الدير المجاور، وانحشر فيه ثلاثة آلاف رجل وامرأة وطفل وخيل ودابة.

أخذنا نصعد درجات ضيّقة وطويلة مفضية إلى غرفة استقبال الأمير بشير، وهي غرفة واسعة، لكنها مؤثثة ببساطة، تكسو أرضيتها حصيرة، وفيها أريكة يكسوها قماش أحمر على امتداد الجدران.

جلس الأمير بشير في الطرف. وكان يرتدي بدلة قرمزية اللون، وكانت طيّة عمامته عبارة عن شال كشميري من أجود الأنواع، وكان النيشان يتدلى من رقبته، وقد حشر في نطاقه خنجراً ذا مقبض من الماس الجميل. وقد حيانا بود ولم يكن مكتئباً، إذ بدا أنه يمتلك قدراً كبيراً من الرصانة تكاد لا توجد لدى أحد في مثل هذه الظروف الكئيبة.

وبعد أن استرحنا لمدة تقارب الساعة، هبطت الدرج برفقة بعض الضباط لنستطلع الأمر. والتقيت بالعديد من أصدقائي، لكني لم أتمكن من التعرف إليهم إلا بصعوبة. وكنا قد دخلنا في اليوم الرابع من المعارك. أما الحراس الثلاثة الذين كنت قد رأيتهم منذ بضعة أسابيع ببشرتهم الجبلية المتورّدة، ذوي الأجساد القوية المخيفة، فقد أصبح لون بشرتهم شاحباً، وغارت عيونهم وخسفت خدودهم. وقد قتل أو جرح آخرون ممن كنت قد تعرفت إليهم.

وأبدى جميع المسؤولين في البلدة احتراماً تجاه القنصل العام البريطاني، ولم يتوقف شكرهم له عند الأعمال الخيرية التي قام بها فقط. وقرابة المغرب، تناولنا طعام العشاء مع الأمير بشير بالطريقة العربية، أي جلسنا جميعنا القرفصاء وتحلقنا حول صينية دائرية كبيرة، ورحنا نتناول الطعام من مختلف الأطباق من لحم الخروف والطيور والخضار بأصابعنا.

وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، كان سعادته يتمشى على الشرفة ويتحدث إلى مرافقيه. وكان القيام بذلك قبل أربع وعشرين ساعة تقريباً يعد مجازفة غير مأمونة الجانب. ولكي أعطي القارئ فكرة عن الخطر الذي كان يمكن أن يتعرض له الأمير بشير، يمكنني أن أذكر أنّ آثار ثمانية عشرة رصاصة كانت بارزة في الجدار عند طرف القاعة، أو إيوان الاستقبال.

وبعد أن قدّم كبير الموارنة التحية إلى القنصل العام، توجه القنصل إلى دير هذه الطائفة، وهو مبنى واسع بالقرب من السراي، ويشكل معقل المسيحيين بالإضافة إلى مبنى ضخم يضم شققاً عديدة. وعبرنا من خلال درج إلى ممر يصل بين هذين المبنيين، يحميهما السوق، وهو الشيء الوحيد الذي لم يحرق في البلدة، وبرزت على الطرف الآخر الشرفات الغائصة في الأرض بين البلدة وقاع الوادي.

ولدى دخولنا الدير، وضعت حاستا الشم والبصر موضع اختبار شديد، إذ كان يتجمهر، أو بالأحرى ينحشر في هذا المكان جميع الفقراء والمصابين. وكم كان مؤلماً بالنسبة لي أن أرى تلك العائلات التي أعرفها كانت تعيش في بيوت مريحة رحبة، وقد حشرت الآن في غرف صغيرة، في

حين كان العشرات من العائلات تقيم في باحة الدير المكشوفة وممراته، وكانت النساء يتشاجرن حول أحقيتهن في النوم فوق بقعة صغيرة من الرصيف، أو الجلوس على إحدى الدرجات، وكان صراخ الأطفال يختلط بأنات المجروحين. وقاد كبير الكهنة القنصل العام إلى الغرف والحجرات المخصصة للمصابين: وبدت ابتسامة واهنة على الناس الذين شحبت وجوههم، وكنت ترى الدموع تذرف من العيون المبلّلة.

لكني قلت ما فيه الكفاية - فقد كان هذا هو حال دير القمر في تشرين الأول من عام ١٨٤١.

الفصل التاسع

حادثة سلب ونهب غريبة - مفوّض من السلطنة
اجتماع سكان الجبل - سرّية الدروز ومكرهم
تعصّب المسلمين - الخيانة التركية - مهزلة محلّية

بقيت الهدنة سارية طوال فترة بقاء أيوب باشا والكولونيل روز في دير القمر. إلا إنه ما أن عاد هذان المسؤولان إلى بيروت، حتى واصل الدروز معركتهم وحققوا نجاحاً يثير الحزن، بموافقة ضمنية من السلطات التركية. فقد أحرقوا ٤٠٠٠ بيت في مختلف مناطق الجبل، وقتلوا ٧٠٠ مسيحي واستولوا على غنائم كثيرة: ولم يستولوا على المال والأسلحة والأثاث فحسب، بل استولوا كذلك على الملابس.

وذات صباح استيقظت على دوي إطلاق مدفع للتحية والاستقبال، فهرعت إلى سطح البيت فرأيت سفينتين بخاريتين تركيتين مملوءتين بالجنود. ثم اتجهت إلى الميناء فتبين لي أن مصطفى باشا وسيرسكيير اللذين أرسلتهما الدولة العثمانية للتحقيق في الأحداث الأخيرة، كانا قد نزلا إلى اليابسة للتو. وكان رصيف الميناء يعج بالمتسكعين والجنود الذين نزلوا إلى اليابسة. وكان شيوخ المسيحيين والدروز قد بدأوا يتقاطرون من الجبل منذ عدّة أيام. وكانت عمائمهم البيضاء الكبيرة وملابسهم الزاهية تشكل تناقضًا كبيراً مع ثياب هؤلاء العثمانيين الذين لم يمض على نزولهم إلى اليابسة سوى فترة وجيزة، والذين بدوا وكأنهم سجناء محكوم عليهم بالأشغال الشاقة، إذ

اكتست وجوههم باللون الأسود بسبب هباب الفحم وبقائهم في السفن البخارية لفترة طويلة.

ثمّ توجهت إلى منزل- س- ووجدت أن أفراد أسرته في حالة من الاضطراب الشديد، فقد كانوا قد هربوا مؤخراً من دير القمر، واضطروا إلى البحث عن منزل آخر يؤويهم، بعد أن تلقوا إنذاراً بإخلاء البيت خلال ساعة واحدة فقط، لتوفير مكان لإقامة بعض الجنود الذين وصلوا إلى المدينة. أما زوجة س، التي كانت أجمل امرأة في دير القمر، وتحمل طفلاً بين ذراعيها، قد تلقت الخبر بروح مرحة، في حين كانت الجدّة العجوز في غاية الحزن والكرب. ولم يكن يسمح للجنود بالإقامة في البيوت مع الأسر وذلك لكي لا تنتهك حرمة النساء في الأسر المسلمة والمسيحية على حد سواء. لذلك كانوا يستولون على البيوت بكاملها، عندما يحتاجون إلى أماكن لإقامة الجنود. ولم يكن ثمة شيء يخفف من حدة هذه المشكلة سوى الأثاث الشرقي الخفيف الذي يمكن حمله، وترحيب الأصدقاء والأقارب بهم.

وخلال جولاتي المسائية بالقرب من برج الكشاش المتاخم للطريق المفضي إلى كسروان، كنت أرى بين الحين والآخر أسقفاً أو رئيس دير، شاحب الوجه منهكاً، قادماً إلى المدينة، ممتطياً دابته المثيرة للشفقة، ويرافقه خادم يكاد يتضور جوعاً. وبين الحين والآخر، كنت ترى على الطريق المؤدي إلى غيطة الصنوبر المفضية إلى منطقة الدروز، شيخاً يحيط به عدد من الرجال، يغنون ببهجة عارمة. أما المسيحيون فكانوا يسيرون في الشوارع، بوجوههم الممطوطة، والفقر باد عليهم، فيما كان أفراد حاشية شيوخ

الدروز (فمثلاً كان يرافق الشيخ نعمان سبعون رجلاً)، يجدون متعة كبيرة في رحلتهم إلى بيروت، إذ كانوا يصعدون إلى السفن لرؤيتها من الداخل، ويتسكعون في الأسواق ويتسلون كما يفعل البحارة الذي نزلوا إلى الشاطئ. وكان الشيوخ يدفعون النقود بسخاء شديد كنبلاء حقيقيين. فعندما توجه الشيخ حمود أبو نكد لزيارة الوزير، منح الخادم الذي قدم له القهوة بقشيشاً قدره ٥٠٠ قرش. خلاصة القول، كان المسيحيون في عسر من أمرهم، والدروز في يسر وبحبوحة.

بالإضافة إلى الأموال التي كان يملكها الدروز، كانوا يتمتعون بالقوة والاتحاد والدهاء والسرّية العميقة الغور. إذ لم يكن أحد يعرف ماذا يدور في اجتماعاتهم، بينما كانت تصبح مجالس المسيحيين حديث المدينة، حتى قبل أن يغادر الأعضاء أماكنهم.

لم تُر بيروت بهذا الازدحام والنشاط، وبهذا المشهد المثير من قبل. وقد ذكرّتني هذه المدينة الصغيرة باجتماع مفوضي السلطنة، والأعيان الإقطاعيين وحاشيتهم، والأساقفة، ورؤساء الأديرة، والرهبان والجنود، بالمجالس الكنسية الكبيرة في العصور الوسطى.

وقد حصل مصطفى باشا على رشوة كبيرة من الدروز، فأقال الأمير بشير، وعيّن مكانه عمر باشا، وهو منشقّ نمساوي، قام بنقل الأمير بعد ذلك إلى استنبول بالسفينة.

كان مصطفى باشا رجلاً شديد التعصب. وكان يقول للناس أينما ذهب إن نهضة سورية لم تتحقق بفضل مهارة الفرنجة الكفار أو شجاعتهم، بل بفضل إيمان وسلاح المؤمنين الحقيقيين في الإسلام! وتلاحظ في سورية حالياً

مؤشرات على ردود أفعال لصالح الإسلام القديم. إذ بدأ المسلمون المساكين يتجنبون البحث عن عمل لدى الفرنجة أو المسيحيين. وقد كنت أعرف خادماً مسلماً يعمل لدى أسرة أعرفها منذ سنوات عديدة، وكان على صلة وثيقة بجميع أفرادها، بدأ يرفض حمل طبق لحم الخنزير إلى غرفة الطعام بسبب تعاليم شيخه.

وعندما عاد زعماء الدروز إلى الجبل، تمتعوا بنفوذهم لفترة وجيزة من الزمن. ففي أحد الأيام، دعاهم عمر باشا إلى العشاء، وبعد مضي بضع ساعات من المرح والمتعة، بدأت الفرقة الموسيقية تعزف. وعند هذه الإشارة، أُغلقت البوّابات الكبيرة، وامتلئ بلاط القصر بالجنود الأتراك، فاقتيد زعماء الدروز، ونقلوا ليلاً إلى صيدا، ومنها نقلوا بحرًا إلى بيروت، حيث أقاموا بأمان في برج الدبوس، وهو بناء ضخم مربع فوق أسوار المدينة.

في هذه الفترة أقمت في بيت السيد إ. في ضواحي بيروت، وخلال فصل الشتاء، أتيحت لي فرصة للتعرف على المجتمع المسيحي المحلي عن كثب. فهم يعملون غالباً في التجارة، وأكثرهم ثراء يعمل في استيراد المنتجات البريطانية. ولا يتحدّث الآباء سوى اللغة العربية، أما معظم أبنائهم فيتعلمون اللغتين الفرنسية والإيطالية- وتقع مخازنهم في المدينة، إلا أنه نظراً لارتفاع إيجار البيوت (في هذا البلد) ارتفاعاً كبيراً في المنطقة الواقعة داخل السور، فهم يقيمون عادة في أكواخ في الضواحي، إذ يبلغ إيجار بيت صغير في المدينة نحو ٨٠ ليرة، في حين يبلغ إيجار قصر في دمشق نصف هذا المبلغ.

حدث ذات مساء شيء غريب في البيت الذي كنت أتناول فيه طعام العشاء. فقد أخذ شقيق مضيفنا يشكو من المرض، ونزولاً عند رغبتنا انتقل إلى غرفته، ولم تكد تقدم لنا الحلوى، حتى بدأنا نسمع أصوات أنينه وصراخه، فتغيّرت ملامح وجه أخيه وذهب لرؤية شقيقه. فلبثنا صامتين، وتوقف الحديث، ثم نهضنا جميعنا وانتقلنا إلى الإيوان. ومع وصول الطبيب أخذ أنينه يزداد، ودعي كاهن العائلة الذي كان يتناول العشاء معنا، لرغبة المريض في الاعتراف. فمن المؤكد أنه كان يتوقع أن يسلم الروح. جلسنا جميعًا، واحتسينا القهوة ودخنّا النرجيلة بصمت: وبعد انقضاء ربع ساعة، هرع الكاهن وأخذ يصرخ "الدواية.. الدواية" (القلم والدواة)، ليدوّن الوصية. وجلس والد المريض في ركن الغرفة، وكان نحيلاً ضامراً عجوزاً وارتسمت على وجهه تعابير الحزن، ووضع أنبوبة النرجيلة جانباً، وشبك يديه معًا، وذكّرني بلوحة الكونت المسكين أجولينو وهو في السجن في بيسان، بريشة السيد جاشوا رينولد. وبعد قليل لم نعد نسمع صوت الأنين، وظننا أن ابنه قد أسلم الروح: لكن، يا إلهي! هاهو الطبيب يدخل علينا، ويرد على استفساراتنا القلقة بقوله: " إن الأمر لا يستحق الذكر، فقد كان مجرد مغص شديد: وسيكون أفضل حالاً في الغد. وبعد بضع دقائق، دخل الرجل الذي كان يحتضر إلى الغرفة، وبدا عليه شحوب شديد، وطلب أن يدخن نرجيلة على الفور. وقد وبخّه شقيقه لأنه أدخل الذعر في نفوسنا، وانتهى الأمر بالضحك.



الفصل العاشر

بكفيا - مار حنا الشوير - المطبعة العربية - دير الراهبات الماروني - لبنان الطبيعي - بعلبك - وادي بردى

مع اقتراب فصل الصيف وبدء ذوبان الثلوج في جبال لبنان، أصبح بوسعي أن أستأنف رحلتي الجبلية الممتعة. فغادرت بيروت في ١٤ أيار ١٨٤٢ لزيارة بعلبك. ولم أسلك هذه المرة الطريق المعتاد، بل ذهبت عبر الجزء الأعلى من لبنان، بين جبل صنين وجبل المكمل، لأشاهد جسر الحجر، وهو جسر طبيعي شديد الضخامة. وقد استغرقت الرحلة من بيروت مدة يومين.

كانت بكفيا محطتنا الأولى. ثم انطلقنا وتركنا إلى يسارنا برج الكشاش باتجاه خليج القديس جورج، وبعد أن عبرنا مروجاً لبضعة أميال، بدأنا نصعد أول حافة من جبل لبنان. وبرزت أمامنا مدينة بيروت بوضوح شديد والخط الساحلي الواقع شمال البترون كله، في حين غلّفت طبقة كثيفة من الضباب سلسلة القمم الجبليّة فوقنا. أما الحافة السفلية المستقيمة والأفقية، فقد بدت وكأنها قطعت قمة جبل لبنان إلى شرائح. ولم نكد نصل إلى المنطقة التي تغمرها الشمس ونحن نواصل صعودنا، حتى عادت لتحتجب عنا بسرعة، وبدأت السماء والأفق والبحر والنتوء الخليجي تختفي شيئاً فشيئاً عن ناظرنا، إلا أنه بقي شق صغير تمكنا من خلاله من رؤية أشرعة السفينة الفرنسية سانتي بتري العريضة، العاملة على الخط البحري، وهي تجفف

نفسها تحت الشمس. وأعقب ستار السحابة ضباب، وتلا الضباب أمطار غزيرة، حتى أني لم أعد أرى شيئاً سوى أننا كنا نسير عبر مشاتل أشجار الصنوبر. وعندما اقتربنا من بكفيا، صحا الجو وأصبحت السماء صافية، ووجدنا أنفسنا في أعلى الجبل، وإلى يميننا منحدر كثيف الأشجار، وإلى يسارنا وادي نهر الكلب بعمق سحيق، بانعطافاته والتواءاته بين الصخور الرائعة متجهاً ليصب في البحر.

وبعد أن اجتزنا حراجاً كثيفة وجداول ماء كثيرة، وصلنا إلى دير يسوعي حديث البناء، وقدم لنا الراهب الوحيد الموجود في الدير، وهو راهب من سردينيا، طعام غداء جيد. وبعد أن زودنا أحصنتنا بالعلف، واصلنا طريقنا باتجاه مار حنا الشوير عن طريق أحد أجمل الطرق التي شاهدتها في لبنان. فبدلاً من رؤية أشجار التوت المملة الرديئة، أضفت البساتين المتعاقبة من أشجار الغابات على المشهد روعة وتنوعاً. وبعد مسافة من المسير اختفت الخضرة، وعندما انعطفنا يميناً دخلنا وادياً صخرياً ضيقاً، وبعد انعطاف آخر، بدت لنا مار حنا الشوير، وهي تعرض أمامنا مشهداً خلاباً من خط من الأبنية وكأنها حصن، تتخللها حدائق تتربع فوق رف صخري ناتئ. أما ما تبقى من الوادي فكان قاحلاً ومنحدراً. وهكذا نجد أن الرغبة في الأمن، وليس زراعة أية محاصيل محلية، كانت الحافز في بناء هذا الحصن التقليدي، الذي يعتبر وفقاً لمفاهيم الجبل، منيعاً لصد هجمات الجنود. وقد أدى صعودنا الطرق المنحدرة، بل إلى حدّ ما الدرجات الملتوية بين الصخور، إلى استنفاد طاقة خيولنا، وعندما وصلنا إلى التل، استقبلنا رئيس الدير بحفاوة وقادنا إلى حجرته.

وكان فولني قد أقام في هذا الدّير مدة ثمانية أشهر يدرس اللغة العربية. ويورد لنا تفصيلاً مستفيضاً عن إنشاء المطبعة، التي اكتسبت مار حنا سمعتها منها.

حسبنا القول إن المنافسة بين الروم والروم الكاثوليك في بداية القرن الماضي، هي التي دفعت الروم الكاثوليك إلى الانكباب على دراسة الطبقات العليا من الآداب العربية. واعتبر أحد الأشخاص نفسه، ويدعى عبد الله زاهر، عالماً في المنطق والبلاغة، مما دفع بطريرك الروم الأرثوذكس إلى الوشاية به إلى الحكومة بوصفه رجلاً خطيراً. وادعى الصدر الأعظم بأنه لا يصدق هذه الرواية، إلا أن أحد الأشراف جعله يسرع في إصدار حكم بإعدامه. ولحسن الحظ، لاذ عبد الله بالفرار إلى جبل لبنان، ثم لجأ إلى ملاذ المضطهدين (لم يعد ذلك الآن للأسف)، وفي مار حنا الشوير، حيث يرأس شقيقه الدير، مكنته مواهبه وعبقريته وعمله الدؤوب كمؤلف، وكمؤسس للمطبعة وعامل طباعة فيها، من إنشاء أول مطبعة عربية ناجحة في السلطنة العثمانية. وظهرت المزامير، أول مجهوداته في العام ١٧٣٥.

بعد تناول المرطبات، انتقلنا لمشاهدة "المطبعة القديمة الأصلية". لكن المزامير التي تُطبع الآن، وتشبه تماماً المزامير التي طبعت في القرن الماضي، أقل وضوحاً وجمالاً من المزامير والمطبوعات الأخرى التي تصدرها المطبعة الأمريكية في بيروت. وفي إحدى غرف هذا القسم، عُلقت صورة لعبد الله بلحية بيضاء مسترسلة. ويذكر بوركهاردت أنه طلب من رئيس الدير أن يلقي نظرة إلى المكتبة التي تضم بعض المخطوطات النادرة، لكن طلبه رُفِضَ لعذر ما. وكنا نحن كذلك متلهفين لرؤية المكتبة، إلا أنهم قالوا لنا إن

الكتب نُقلت إلى مكان أكثر أمناً خلال حرب الدروز الأهلية، ولم تستعد حتى الآن. ولم يكن لدينا سبب للشّك في هذا، وذلك لأن مار حنا الشوير لا تبعد عن زحلة سوى أربع ساعات، التي كانت مسرحاً لأكثر النزاعات دموية بين الدروز والمسيحيين.

ورأيت بعض الرّهبان الذين كنت قد تعرّفت عليهم في منطقة الدروز، ممن لجأوا إلى هذا المكان بعد أن أحرقت أديرتهم.

وبدلاً من أن نواصل طريقنا إلى زحلة، انطلقنا باتجاه وادي الصليب إلى الشمال الغربي، وقد عزمنا على قضاء الليلة في فقرا. وعند الظهيرة وصلنا إلى دير النياح، بعد أن اجتزنا مساحة شاسعة من الأرض الخصبة المتموجة قليلاً، وكنا نرى على الدوام الطرف الجنوبيّ من جبل صنين، المنحدر والخالي من النباتات.

ولدى دخولنا باحة دير النياح، الذي يعد أحد أكبر أديرة الراهبات في لبنان، وجدنا أنه بناء ضخم، ذو نوافذ مشبكّة: وبالطبع لم يُسمح لنا بالدخول إلى الأروقة، لكننا وجدنا ظلاً وبرودة في تجويف مرتفع وجيد البناء في واجهة المبنى. وأخبرنا رئيس الدير أنه يوجد في الدير ثلاثون راهبة، وأن الرهبان الذكور الثلاثة يقومون على رعايتهن الروحية. وتعتبر عزلتهن جزءا من السلوك المتبع في الشرق، لأنهن لا يجتزن عتبة الدير في حياتهن. ويشتهر دير سيدات النياح بالعنب والنبيذ الجيدين، ووجدنا في مكان قريب من الحديقة حفرة كبيرة لغلي العنب. وعندما صعدنا إلى سطح الدير وجدنا أنه كان كله على مستوى واحد، وأخبرنا الراهب الذي رافقنا أن السطح يعتبر النزهة المفضلة لسيدات الدير.

وقدم لنا قليل من أفضل نبيذهم عند الغداء، وسمح لنا أن نلتقي بالراهبات، ويعتبر ذلك معروفاً وفضلاً كبيرين من جانبهن. وعندما حان الوقت المحدد، أُوصِلْنَا إلى غرفة صغيرة مظلمة، وأُجلسنا وظهرنا باتجاه الضوء، وأمامنا لوح خشبي مشبّك عرضه أربعة أقدام وارتفاعه ستة أقدام، وخلف هذا اللوح المشبّك كان يوجد لوح آخر، ووراء ذلك ظلام. وقيل لنا إن عدّة راهبات يجلسن في الخلف، وبدأت المحادثة، وانتهت دون أن نتمكن من أن نعرف شيئاً عن شكل الناسكات، وقسماتهن أو لباسهن.

وفي الساعة الرابعة من بعد الظهر، انطلقنا باتجاه فقرا، وكان الطقس غير مريح بعض الشيء، وانطلقت رحلتنا عبر المراعي والغابات، وكان البحر يطل علينا بين الحين والآخر على عمق كبير تحتنا، لا بلونه الأزرق السماويّ الأصلي، بل تجلله طبقة رفيعة من السحب كما لو كان محيطًا مجمّدًا. وانطلق الرعد يقصف فوق جبل صنين، وهبت عاصفة هوجاء سوداء على الجزء الأعلى من وادي الصليب، وفيما كانت وجهتنا إلى الأعلى، فقد توقّعنا أن نصادف ريحاً شديدة وأمطاراً غزيرة، - ولم يكن ذلك يبشر بالخير، وذلك لعدم وجود مساكن في فقرا، ولم يكن لدينا سوى خيام: إلا أننا شعرنا بالسعادة عندما صفت السماء قبل الغروب، وأتيح لنا الوقت لمشاهدة آثار فقرا - برج ضخم، بقايا معبد كورونثي وبيوت وقبور.

وكانت المنطقة المجاورة للمعبد رطبة وطينية، فنصبنا خيمنا على جانب التّلّ، بالقرب من المياه العذبة الرائعة، وأمضينا الأمسية ونحن نغني مبتهجين. وفي اليوم التالي نهضنا في وقت مبكر، وغادرنا جبل صنين باتجاه اليمين، وواصلنا طريقنا المؤدي إلى الوادي، الذي كانت أرضه صالحة للزراعة، وبعد ساعة ونصف الساعة وصلنا إلى جسر الحجر. وتتساقط مياه

نهر اللبن كشلال أشبه بشلالات مدينة تيفولي، في حوض صخري كبير، ربّما بلغ قطره مائة ياردة، ثم يغمر الوادي في الأسفل في مجرى يبلغ ارتفاعه ١٥٠ قدمًا وعرضه ٩٠ قدماً. وعند النظر من أسفل الجسر، يخيل إليك أن النهر ينبع من كهف شاسع، سد قاعه بأحجار صخرية، أما إذا نظرت إليه من الأعلى، فستجد الجدار الصخري الذي يشكل ارتفاع الجسر، قد أصبح أملس، وقد حولته الطبيعة إلى قطعة فنية رائعة.

اجتزنا الآن الجسر، وانعطفنا إلى الأسفل حتى وصلنا إلى مستوى النهر. وفي بقعة اعتبرتها ملائمة لتناول العشاء، تبين لي من الروث أن الفلاحين يستخدمون هذه القنطرة الواسعة حظيرة لمواشيهم خلال الشتاء.

تسلقنا قمة إحدى الصخور الكبيرة، وشاهدنا الوعاء الصخري، تيفولي الصغيرة، وثلوج جبل صنين، التي شكلت من خلال الجسر إطاراً ضخماً للصورة، وكنت تسمع صدى هدير تيار المياه. وهنا لا تسعفني لغتي في وصف المشهد. فأفتح كتاب الذكريات، وأستعيد أجمل مشاهد Bernese Oberland دون أن أجد مثيلاً لها. إن القاعة الغربية المنعزلة لـ Fingal، وتدافع تيارات المحيط الهادئ، وحدها تعطي فكرة عن عظمة جسر الحجر، لكن لا عن جماله.

أخذنا نصعد الآن آخر قمة من قمم جبل لبنان، وكنا قد سلكنا طريقاً صعباً وضيقاً جداً يحده منحدر يفضي إلى هضبة، مموّجة بعض الشيء، تكسوها الثلوج في الغالب. وكان يعترض جبل صنين حاجز يحجب جهة الجنوب، أما المشهد شمالاً على طول الهضبة، أو إلى حدّ ما القمّة باتجاه جبل المكمل، فكان رائعاً. ويعتبر جبل المكمل أعلى جبل في سورية (٩٠٠٠ قدم فوق سطح البحر)، ويحتل جبل الشيخ مركز الصدارة منذ زمن بعيد، حيث يأتي في المرتبة

الثانية من حيث الارتفاع، ويأتي جبل صنين في المرتبة الثالثة. وبدت القمّة خالية تماماً من النباتات، ولم يكن بوسعنا أن نرى حتى الآن أي شيء من سهل بعلبك. وكانت تمتد أمامنا سلسلة جبال لبنان الشرقية، شمالاً على مد النظر.

وأخذنا نهبط الآن، الأمر الذي وجدناه أسهل مما كنا نتوقع، وذلك لأن هذا الطريق غير مطروق كثيراً. وعندما وصلنا إلى وادٍ ضيقٍ، صادفنا غدير ماء شديد البرودة، يطلق عليه الفلاحون اسم عين الفريدة، وهي من بقايا تسمية رومانية. وكان يحيط به البدو وأغنامهم. وفي حوالي الساعة الثالثة مساء هبطنا إلى سفح القمة، ووجدنا أنفسنا في قرية بائسة فيها مسجد متداعٍ. وفيما عدا كوخ يقع بين عين الفريدة وهذه القرية، لم نر أيّ منزل منذ أن غادرنا دير النياح البارحة.

عندما رأينا بعلبك في الجانب الآخر من السهل، لكزنا أحصنتنا فراحت تخب بسرعة عبر المراعي الكثيفة التي تشتهر بها بلدة بعلبك، وفي منتصف الطّريق تقريبًا بين السلسلتين الجبليتين، وجدنا أنفسنا بالقرب من معسكر للخيالة. إذ كانت مساحة كبيرة مربعة الشكل محاطة بالخيام، وقد أُلجمت الخيول في صف مواز للخيام، وكانت تتناول الحشائش، وما إن اقتربنا حتى بدأت الخيول تصهل، فاستولى على خيولنا مزاج عنيف. وكان الحصان الرمادي القوي، الذي كان يمتطيه كافاس، أول من شبّ وألقى براكبه برشاقة من على ظهره. وشبّ حصان الكولونيل روز بضع دقائق، لكنه ترجّل عن الحصان بعد أن فقد قبعته، ونجا بأعجوبة. أما الحصان الذي كان يمتطيه ترجمان الكولونيل روز، فقد اندفع باتجاه صف الأحصنة والخيام، وتبعه الحصان الرمادي، وأخذت الأحصنة جميعها تركل وتصهل أكثر. واندفع الأتراك وهم في قمصان نومهم وقبعاتهم بعد أن أفاقوا من قيلولتهم وهرعوا

خارج خيامهم، إذ ظنوا أنّ البدو قد انقضوا عليهم. أما المترجم المسكين فقد أصيب بالذعر عندما شاهد الغزل والتودد بين الحصان الرمادي ومهرته، فانتهز الفرصة وانزلق عنها، وترك الحصانين يجريان وغابا عن الأنظار.

وكان في نيتنا أن نبقى معاً، إلا أننا بعد أن وجدنا أن المعسكر قد سادته حالة من الهرج والمرج، توجهنا إلى بعلبك وتركنا الترجمان وكافاس ليبحثا عن حصانيهما.

لا يوجد شيء أضيفه على الأوصاف العديدة المنشورة عن عظمة بعلبك المقفرة. فالعقل يتأرجح بين الإعجاب والاكتئاب. وهنا ترى القانون الصارم، قانون تدهور الشعوب وفنائها، وكذلك الأفراد. ففي هذه البقعة، يرى المرء حشود القدماء الأولين الضخمة، ورشاقة ودقة اليونانيين المرهفة، لكنّ أين هم السوريون؟ وأين اليونانيّون؟ في بعلبك في العصور الوسطى التي كانت تضم خمسين ألف نسمة، أما الآن فلم يبق فيها سوى أكواخ قليلة. وغالباً ما يورد المؤلّفون العرب إيماءات جميلة عن الإمبراطورية. وأرى في أوراقي ترجمة لمقدمة كتاب، على النحو التالي:

"الحمد لله رب العالمين، المغيّر الذي لا يتغير، الذي ينثر بذور السيادة والسلطان، الذي يحنو على أكثر الناس ضعفاً بيد من العطف والحنان، الذي يغطّي الأرض بمدن نبيلة، ويدفن أكثر المدن في غياهب الأرض".

بعد رحلة دامت ثماني ساعات عبر سلسلة جبال لبنان الشرقية القاحلة والمملة، وصلنا إلى الزبداني الذي تحيط به حقول وبساتين كثيرة. ونصبنا خيامنا في بستان يقع في وسط البلدة: ومن شدة كثافة النباتات ووفرتها، خيّل إليّ أني في إحدى القرى الإنكليزية الجميلة.

وفي اليوم التالي، أمضينا رحلة ممتعة من الزبداني إلى دمشق، وكنا نسير في بعض الأحيان بمحاذاة ضفة نهر بردى. وعلى مسافة ساعة من دمشق، وبعد أن خلبت الظلال الرائعة المحيطة بنا عقولنا، ترجلنا عند خان يقع عند جسر على نهر بردى، الذي كان يتدفق في هذه البقعة بسرعة لا تقل عن ستة أميال في الساعة، وتحف به أشجار وارفة الظلال، كما لو أنها كانت تبشرنا بما ينتظرنا في ضواحي دمشق نفسها. وبما أننا كنا نتقدم حقائبنا وخدمنا، أوثقت حصاني بجذع شجرة، ورحت أتناول بعض الزبيب وأحتسي القهوة. وبعد بضع دقائق، تطلعت حولي فرأيت حصاني في الماء، لا يمنعه من الانجراف في التيار سوى رسنه. فقد أغرته المياه المتدفقة بالاقتراب من الضفة، فسقط في النهر لانخفاض الأرض بسبب شدة تيار الماء. هاهو الحصان، لكن أين هو الخُرج، الذي كان يحتوي على ملاحظاتي عن سورية وعن أشياء أخرى، نتيجة عمل سنة وربع السنة؟ وطلبت من أحد الفلاحين أن يقفز إلى الماء ويبحث لي عنها، لكني سرعان ما أدركت أن التيار كان سريعاً جداً، ولعله جرفها مسافة مائة ياردة. فانتابني شعور باليأس، إلا أني سرعان ما شاهدت فلاحاً يخرج من بين الأشجار عند أسفل الجسر، وهو يحمل شيئاً أسود، رطباً يقطر منه الماء. لقد كان السرج الذي أبحث عنه. فمن حسن الحظ أنه شاهده يطفو فوق الأمواج بسرعة، مع احتمال أن يصل إلى دمشق قبل أن أغادر الخان. وقد شعرت بالسعادة فأعطيته مسدسي ودولاراً مكافأة له.

في الساعة الواحدة وصلنا إلى قمة تل الصالحية، ولسعادتي البالغة برزت دمشق من وسط مدرج واسع فريد من نوعه. وكانت السماء صافية، ولا

حاجة للقول إن درة الشرق كانت في أبهى حلة. وكان الانطباع الذي خلفه المشهد على رفاقي متنوعاً إلى حد يثير الدهشة.

"إنها مدينة يكسوها الغبار عندما تدخلها"، قال الترجمان الذي أقام فيها أربع سنوات. أما بالنسبة للأشخاص، فالشامي شؤمي، رجل يحلف يميناً كاذبة عشر مرات قبل أن يسدد ديناً عليه".

"يبدو أنها مدينة فخمة" قال الكولونيل ر. وهو يربط فرسه العربي، ويتفحص الصورة البانورامية الجميلة من الجامع الكبير - فخمة، تغمرها الشمس ورقيقة، حتى أبعد شواطئ البحر، ومن أوراق الأشجار والنباتات، التي لم تعد خضراء، بل زرقاء، ضبابية، نصف رطبة في البعد". ويمكنني أن أتوقع بسهولة البرودة التي تمنحها الأشجار والجداول إلى المدينة.

"إن الحرّ شديد هنا"، دمدم أ. الذي كان يجفف جبينه بمنديل، وبدا أنه شعر بالبهجة عندما سمع هذه الملاحظة كبداية.

حظينا بحفاوة شديدة من السيد وود، الذي ما إن سمع بنيتي زيارة تلك المدينة، حتى وجه إليّ دعوة قبل أسابيع وطلب مني أن أجعل منزله بيتاً لي. وبيته من أجمل البيوت في دمشق، ويملكه المفتي أفندي، وكان بحري بك، وزير مالية محمد علي قد سكن فيه: إذ تكلف غرفة واحدة منه، مع الرخام والأحجار المحفورة، خمسة آلاف جنيه إسترليني.

الفصل الحادي عشر

عائلة دمشقية - الخدم
سهرة عند عائلة مسلمة - الحمامات
مغادرة الباشا - زواج مسيحي

لكي تتاح لي فرصة ممارسة اللغة العربية، انتقلت للإقامة في منزل تاجر دمشقي مسيحي. وكان مضيفي رجلاً ضئيل الحجم، هادئاً، وكان قد أخفق في إحدى المضاربات على القطن، وخسر ما يزيد على ألف ليرة، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لهذا البلد. وكان مستعداً لقبولي كمستأجر في بيته، لأنه وفقاً لقانون هذا البلد، لا يستطيع دائنوه أن يبيعوا منزله لتحصيل أموالهم في هذه الحالة.

ورغم أني شغلت غرفة في الطابق العلوي، فقد كنت أقرأ وأكتب في الصالون، الذي يغمره دائماً دفء لطيف، وبرودة حتى في درجات الحرارة المرتفعة في الصيف، وذلك بسبب سماكة الجدران الحجرية، وارتفاع السقف (أربعون قدماً)، والمياه الجارية.

وبالإضافة إلى صاحب البيت، كان يقيم في المنزل زوجته وابنته المتزوجة من شاب يعمل في صناعة الحرير، وابنه الذي يساعد والده في تجارته، وكنا نقرأ أنا وإيّاه "ألف ليلة وليلة". وكانت النسوة ينهمكن طوال اليوم في الأعمال المنزلية، ويتنقلن من جانب إلى آخر، ويحدثن جلبة في صحن الدار، وكانت تساعدهن أحياناً الجدة، وهي سيدة عجوز تناهز الأربعين من عمرها. وكانت ابتسامتها التي تخلو من كل تعبير، وخرفها ورغبتها الدائمة

في أن تراني مرتاحاً، تدل كلها على طيبة قلبها رغم ضعف عقلها وجسدها.
وبين الحين والآخر، كنت ترى جارية شديدة السواد من سنار (Sennar)، وكان نصف وجهها يشبه وجه قرد ونصفه الآخر يشبه وجه كلب من نوع بولدوغ، وهي تمد رأسها من إفريز كاتدرائية قوطية مهدمة. أما خادمي جورج، فكان شخصية مميزة حقاً. إذ استقرت روح سانشو بانزا، بعد أن تقمصت أرواحاً عديدة في روح شاب قوي ذي ملامح غليظة، وجفنين كثين، يسير الهوينى. وكان عدم إدراكه التام لأنانيته ومكره الدنيء، مصدر تسلية للأسرة كلها خلال فترة إقامتي. أما بالنسبة لمرونته وطباعه ومدى إطاعته لأوامري، فقد اضطررت لطرده من خدمتي بعد أسبوع واحد من عمله معي. لكنك مع الأسف، من الأفضل أن تتحمل مساوئ شخص تعرفه على أن تتعامل مع شخص لا تعرفه. ولاحظت بعد فترة وجيزة من وصولي، أنه كان يميل إلى الصمت والشرود، وكنت أعرف أنه كان يدبر شيئاً ما. وذات صباح جاء إليّ وقد بدت عليه ملامح وقسمات غامضة وقال:

- معلمي (يا سيدي)

نعم.

لا بد أنكم لاحظتم مقدار الجهد الذي أبذله ومدى التزامي وإخلاصي لحضرتكم، وإطاعتي لكم.

قلت لك منذ ثلاثة أيام أن تصلح مفصل السرير، وبسبب إهمالك تمزق الخيش.

هذه مسألة بسيطة. لكن عقلي مشغول بسعادتكم ليلاً نهاراً. عندي خطة أريد أن أقترحها عليكم وستعود عليكم بثروة كبيرة.

قل ما هي.

يباع العَلَق (جمع عَلقَة) في دمشق، قال جورج، وقد خفض صوته حتى كاد يصبح همساً، وهو يتطلع بقلق باتجاه الباب، خشية أن يطلع صاحب البيت على هذا السر، وأضاف: "يمكن بيعها في بيروت بأرباح تصل نسبتها إلى خمسين في المائة، وهكذا يزداد رأس المال شهرياً. وإذا أعطيت الجندي الإنكشاري الذي يقف عند شركة الهند الشرقية بقشيشاً، وأحضرت برميلاً كل يوم اثنين وثلاثاء إلى البساتين عند بوابة الصالحية، وبلغ الربح مائتي دولار في الشهر، أصبح المبلغ ألفين وأربعمائة دولار في السنة. وألفان وأربعمائة دولار في السنة، بنسبة اثني عشرة في المائة، يصبح......

أصبح وغداً وتصبح أنت أحمق. لذلك اذهب إلى الحداد وأصلح سريري قبل أن تحاول أن تصلح ثروتي.

ونظراً لندرة وجود إفرنجة في دمشق، كانت "السهرات"، أو الحفلات المسائية مع أصدقائي ومعارفي، مصدر تسليتي الرئيسية. وكان أيوب باشا، الذي يمتلك بعض البساتين الكبيرة في ضواحي المدينة، استثناء للكثيرين من سكان المدينة المسلمين، وذلك لأنه لم يكن جاهلاً ومتعصباً. ولكونه رجلاً غنياً، فقد كان يحظى باحترام شديد في حيه: وكان يحسن إلى الفقراء، ويعارض دائماً الظلم الذي يلحق بالمسيحيين، وكان قد وفر للكثيرين منهم الحماية بدون مقابل في أوقات الاضطرابات في الماضي، لكنه كان سريع الغضب، وكاد أن يسبب لأخيه الأصغر جرحاً قاتلاً بسبب عجرفته بعد نشوب خلاف معه. ونتيجة طيبته الفطرية، ورغبته في الاحتفاظ بشعبيته، فقد كان متسامحاً، ولم يكن يشجع بعض الأشخاص المثيرين للاضطرابات والشغب في حارته، لأن ذلك يؤدي إلى ضعف الحكومة. ويعتبر الأشخاص

ذوو النفوذ في مختلف الأحياء، أشبه بملوك صغار، ويمكنهم التحكم بالحكومة بإثارة الرعاع في فترة وجيزة جداً.

تقع غرفة الاستقبال في الطابق الأرضي في الباحة الخارجية، وذلك لأن الغرف الداخلية لا تشغلها سوى النساء. وفي غرفة الزوار توجد أريكة تمتد على طول جوانب الغرفة الثلاثة. ويأتي الزوار بعد صلاة العشاء، ويغادرون في حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً. وبموازاة الكنبة، يوجد صف من النراجيل التي تشبه أنابيبها الثعابين، ولها رؤوس مزينة بشكل جميل، يوضع فيها الفحم لإشعال التبغ. وفي وسط الغرفة انتصبت شمعدانات نحاسية يبلغ طول الواحد منها ثلاثة أقدام: وكنت أحرص عندما أتوجه إلى مكاني، على ألا أوقع ما كان يبدو مثل لعبة التسع خشبات.

وعند الطرف الآخر من الأريكة، كان صديقي أيوب يجلس في إحدى الزوايا، يدخن قلياناً أو قصبة. وكان في حوالي الخمسين من عمره، بديناً بعض الشيء، وتبدو على وجهه قسمات متسامحة. وكان يتمتع بروح مرحة، ولا يخلو من صفات الرجل النبيل. وكان يرتدي ثياباً جيدة ونظيفة، وقد بدأ الشيب يخط ذقنه.

وكان الأشخاص من ذوي المنزلة الرفيعة يجلسون في صدر الغرفة، بين الزاويتين، أما الأشخاص الأقل مقاماً، فيجلسون على الأرائك الجانبية بالقرب من الباب. وتقدم القهوة لكل ضيف حال وصوله، ويجلب بعض الجيران نرجيلتهم معهم.

ويتسم الحديث في السهرة بطبيعة عامة. فهذا تأخر في تسديد ما يترتب عليه للدفتردار أو أمين الخزينة، وقال الباشا كذا وكيت في هكذا مناسبة،

والجراد في منطقة حوران أتى على الذرة الصفراء، وسيرتفع ثمن الخبز. وهل يجب أن تعفى دمشق، بصفتها مدينة مقدسة، من ضريبة الرأس، وهل يدفع المرء من تلقاء نفسه؟ وما إلى ذلك. وكما هو متوقع، كانت توجه إليّ غالباً أسئلة عن إنكلترا، وعن انطباعاتي الأولى حول نفق نهر التيمز. ودار حديث مثير عن السفر بالسكك الحديدية، وأثار كثيراً من الدهشة. وكانوا يقولون: "عجيب، عجيب، ياله من بلد غريب! لكن الأمر الأكثر غرابة بالنسبة لهم، فهو أن تكون الملكة امرأة.

"ماذا تدخن؟ شيبوك أم نرجيلة؟"

"لا هذه ولا تلك".

"عجيب. عندما تقوم بأعمالها، هل تري وجهها إلى أعضاء المجلس؟"

"نعم".

"عجيب".

ورداً على سؤال آخر، حاولت أن أجيب بأن الملكة كانت تحكم وحدها، وأن الأمير لا يتدخل في شؤون الدولة. لكن بدا أن ذلك من الأمور التي يصعب عليهم تصديقها واستيعابها من بين جميع الأمور الأخرى، وقالوا إن الفرنجة شعوب غريبة.

ولكوني أجنبي، كان يوجه إليّ على الدوام السؤال: هل أعجبتك دمشق؟ وقد أصبحت محبوباً لديهم، لأن ردي كان ينطوي على شيء من الإطراء دون أن أبتعد عن الحقيقة - لأنه، باستثناء بعض الأمور المزعجة التي يسببها الطقس، كنت أجد متعة كبيرة في إقامتي في هذه المدينة. غير أن

الحاضرين لم يكونوا ليوافقوا على أن الطقس في دمشق سيء، وأقروا بوجود عدد قليل من الحميّات في شهر أيلول، لها في الحمّام العلاج الشافي.

"هل أبدوا عاجزاً؟" قال صديقي أيوب مازحاً. ففي إحدى المرات جاء طبيب فرنسي يسعى وراء تحقيق ثروة. وعندما رأى هذه الخضرة الوافرة قال " هذا هو المكان المناسب لي - ففيه الكثير من الحمى". وعندما رأى مياها وافرة قال: "المزيد من الحمى - لا يوجد مكان أفضل من دمشق". وعندما دخل المدينة سأل الناس: " ما هذا المبنى؟" فقالوا له: "حمّام"، "وما هذا المبنى؟"، قالوا: "حمّام". "وما هذا المبنى الآخر؟"، فكان الجواب على الدوام "حمّام"، فقال الطبيب: "لعن الله الحمّامات، فإنها ستأخذ الخبز من فمي" وأضاف " يجب أن أبحث عن معالجة الحمّى في مكان آخر". وهكذا عاد أدراجه، وخرج من باب المدينة واتجه إلى مكان آخر.

بعد بضعة أيام من هذه السهرة، ذهبت إلى الحمّام، وأصابتني دهشة من توسلات الشحاذين، وكانت عبارتهم التي لا تتوقف: "الله يجبر بخاطرك يا فاعل الخير". وسألني شحاذ مسيحي بالقرب من بيتي أن أعطيه صدقة بحق مريم العذراء. وكان شحاذ مسلم يتوجه إلى المارين بالقرب من الجامع الكبير بقوله " إحسان لله لوجه مولانا محمد أمير المرسلين".

يعتبر الحمّام مكاناً للتسلية والاستحمام، ويساعد في استرخاء الجهاز العصبي. ولا يستحسن الإكثار من التردد عليه، ففي غالب الأحيان تكفي مرّة واحدة في الأسبوع. وتتميز أرضيات الحمامات في دمشق من نوعها في الشرق وذلك لكثرة الرخام المتعدد الألوان الذي ترصف به. ويساعد إلقاء المياه الحارة باستمرار على الأرضية في إبراز الألوان الزاهية الجميلة.

يشبه الجزء الخارجي من الحمّام الدمشقي (البراني) جامعاً صغيراً، ففيه قبة مقنطرة واسعة، ويتسلل الضوء من السطح، وتوجد في الوسط نافورة كبيرة تتدفق منها المياه الباردة. وتمتد حبال ذات زوايا متناسقة بين طرفي القاعة، تتدلى منها المناشف وكأنها أكاليل في كنيسة صغيرة فخمة. ويجلس الرجال الذين أنهوا حمّامهم على مصاطب تحيط بقاعة، يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام، مئتزرين بالمناشف، وهم في حالة فتور واسترخاء، ينتظرون بفتور حافزاً يدفعهم للنهوض وارتداء ثيابهم. ويجلس صاحب الحمّام، وهو رجل مسلم مسن، في مكان أشبه بمحراب محفور، وعلى يمينه يوجد صندوق صغير يضع فيه القطع النقدية الصغيرة (القروش)، وآخر يودع فيه ساعات ومحافظ المستحمين، وتوجد على يساره مرآة يدوية مستديرة، مرصّعة بعرق اللؤلؤ، تقدم لكل مستحم عند مغادرته، يضع فوقها بقشيشاً لاستخدامه الحمام. ولا يتوقف القهوجي عن الحركة، فتارة ينفخ جذوة نار الجمر، وتارة يمزج البن العدني (الموكا) للمستحمين بعد خروجهم منهكين من الجواني. أما صبي الحلاق، بحزامه الأسود الطويل الذي يتدلى عند خصره، فيصدر خشخشة وهو يتنقل ذهاباً وإياباً وهو ينتعل قبقابه، فتراه يفرك ويجفف أحدهم، ويحلق رأس آخر، يقتلع شعيرات شاردة من منخري رجل ثالث بملقط صغيرة جداً. أما المدلّك (المكيّس)، فيخرج من الجواني، ويتجه نحو بركة الماء منتظراً دوره، ويدفع طاسة نحاسية في الماء البارد، ويجرعها كلها، وهو متأكد أنه لن يصاب بالرشح أو بالتهاب في الحلق، رغم أنه يعرّض جسمه كل خمس دقائق إلى تباين كبير في درجة الحرارة قد يصل إلى ثلاثين أو أربعين درجة. خلعت ثيابي الآن، ووضعت منشفة حول خصري كمئزر، ومنشفة على رأسي كعمامة، وأخرى تتدلى من كتفي مثل رداء

روماني، ثم انتعلت قبقاباً، وسرت بالقرب من المكيّس، متوجهاً إلى داخل الحمّام، حيث سأنظف نفسي. ولن أرهق القارئ بتقديم وصف مفصل عنها، لأنه لا بد أن القارئ قد قرأ عنها. وبعد أن سُلقت وسُلخت حياً، سرعان ما نسيت تلك العملية المزعجة بعد أن احتسيت شراباً مثلجاً، وقهوة ودخنت النرجيلة التي كانت بانتظاري في البراني.

وفيما كنت في غرفة التكييس، رحت أتسلى بمحاولة التعرف على فئات المستحمين وطبقاتهم من ملامحهم، لكنني كنت مخطئاً في معظم الأحيان. فهذا رجل ظننت من قسمات وجهه وملامحه النبيلة والمميزة أنه من الأعيان الأثرياء، رأيته عندما خرجنا إلى غرفة ارتداء الملابس "المشلح"، يرتدي أسمالاً بالية كالتي يرتديها الناسكون الفقراء، وذاك رجل آخر حدست من قسماته أنه رجل حقير فظ، لكنه بعد أن ارتدى ثيابه، تبين لي أنه أفندي محترم، إذ ارتدى عمامة بصراوية ونطاقاً كشميرياً. إن الحمام الشرقي جمهورية تتساوى فيها طبقات الناس، فهو يلغي المظاهر الزائفة من النبالة والشرف، والرفاهية التي يحصل عليها الخياط وبائع الحرائر والمنسوجات.

وفي ١٩ حزيران، غادر نجيب باشا، والي دمشق المتعصب، إلى بغداد التي نقل إليها ليحل مكان علي باشا، الذي سيحل محله في دمشق. وكان قد استقبل قبل عدة أيام عدداً من وجهاء المدينة المسلمين، الذين أعربوا عن عظيم أسفهم لمغادرته المدينة، ووجهوا إلى الباب العالي كتاباً بهذا الشأن.

وبعد أن شهدت قدومه، رغبت في أن أراه مغادراً، الأمر الذي تم بأبهة وبذخ شديدين. فنظراً لعدم وجود سباق للخيول، تصبح مصارعة الثيران ووسائل التسلية الخارجية الأخرى في هذه المناسبات مصدر رغبة للدمشقيين لكي يروها.

توجهت إلى باب السلام، وخرجت من المدينة واجتزت نهر بردى عند المقهى المشهور القابع في الجزيرة الصغيرة المظللة بالأشجار، التي تعتبر حسب روايات الرحالة جنة من جنات الأرض. ولا يبعد تقاطع الطرق الذي سيمر منه نجيب كثيراً عن هذا المكان، لتفادي الازدحام الذي سيحدث في شوارع المدينة الداخلية الضيقة. وكان الطريق قد رش بالماء، واصطف الجنود على طول السوق شبه الريفي حيث تنتهي الضواحي. إن أطراف دمشق من الجهة الشمالية تشبه بعضها بعضاً. إذ توجد دكاكين خشبية غير متقنة الصنع، تتكدس فيها ضروريات الحياة الرديئة التي تلبي احتياجات السكان الذين يعملون في الزراعة في الضواحي. وثمة رصيف خطر، بعضه مرصوف بأحجار شبيهة بالرخام، وقد أصابها البلى، وأصبحت في غاية النعومة، بحيث أصبحت خطورتها بخطورة الجليد تحت حوافر الخيل، وتظلله بعض أشجار الجوز التي أضفت عليه مظهراً ريفياً. وفي جميع الأماكن التي يتجمهر فيها الناس، كان توضع حصر فوق أعمدة خشبية غير متقنة الصنع للتخفيف من حدة حرارة الشمس، وكانت هذه الحصر تصل في بعض الأحيان إلى الشارع. ولاكتمال الصورة، هناك مسجد نصف خرب، مبني بخطوط متناوبة من الرخام الأسود وأحجار سيينا الملونة.

وكان الحشد المنتظر كله من المسلمين، ورغم أني كنت أرتدي ثيابي الإفرنجية، فلم يوّجه لي أحد إهانة أو يبدي أي مظهر من مظاهر قلة الاحترام. وكان انتظار الموكب الأوروبي عملاً مرهقاً جداً، لكننا سلكنا نفس سلوك الناس الموجودين حولنا، وبعثنا نطلب قهوة وقلايين ومقاعد من المقهى المجاور، وأخذنا ندخن ونتجاذب أطراف الحديث في الشارع، حتى وصل الموكب.

في البداية وصلت حقيبة الوالي وأمتعته، وهي قافلة طويلة من الدواب والجمال تحمل خيماً، وقرب ماء، ولوازم المعسكر. وبما أن حاشية الوالي تتألف من عدة مئات من الأفراد، فكان هناك ستة عشر جملاً محملاً بعدد وأدوات المطبخ فقط. وإني أورد هذه التفاصيل هنا لأبيّن كيف أن انتقال الوالي كان يعتبر أمراً هاماً.

انطلق دويّ المدفع معلناً خروج الباشا من قصره، وبعد قليل شوهدت فرقة من الخيالة الخفيفة تقترب. وكان لباس أفراد الفرقة سيئاً، لكنهم فرسان جيدون. ثم تقدمت فرقة الجنود غير النظاميين، وهم عصابة من المجرمين غريبي الأشكال، يمارسون العدالة بنزاهة. وكانوا منظمين في فوضاهم، إذ لم يسلم أصدقاؤهم من ابتزازاتهم كما هو حال ألد أعدائهم. ومرّ الآن شبلي العريان، زعيم الدروز المعروف من منطقة حوران، يتبعه رجاله. وكان يرتدي ثياب النظام، التي لم تكن على قياسه على الإطلاق، وبدا كذلك شاحباً وهزيلاً بسبب الجروح التي أصيب بها خلال المناوشات الأخيرة بين الموارنة والدروز. وكانت أجمل مجموعة من بين كل أولئك، مجموعة الأكابر، أو نبلاء دمشق، الذين كانوا يرتدون ثيابهم الشرقية التقليدية الرائعة. عمامات من الموسلين الناصعة البياض، نطاقات كشميرية، خناجر مرصعة باللآلئ، وأثواب فضفاضة من أرقى أنواع المنسوجات وأجمل وأزهى الألوان، التي حلت محل الطربوش الزاهي الألوان القاسي، والمعاطف الضيقة والسراويل والثياب التي لم تكن على القياس، والبشعة وغير الأنيقة للنظام المتفرنج. وأخيراً، جاء القاضي والمفتي، وبطبيعة الحال يكون القاضي عادة تركياً من استنبول، أما المفتي، فهو كبير عائلة مرادي العريقة، التي تلي في دمشق من حيث المرتبة أسرة العظم التي هي أسرة خرج منها العديد من

الوزراء. وكان المفتي أجمل شخصية في كل الموكب. لحية فضية، أنف دقيق، وعين تنم عن القوة، مما جعلني أظن على الفور أن أحد أعضاء مجلس الشيوخ من تيتيان أو جيورجوني قد عاد إلى الحياة.

وبعد تختروان أو (محفة) الباشا الكبير الحجم والمبطن بقماش الساتان الحلبي، تقدمت طليعة الخيالة وقائد الجند، ثم تلاه الضباط، ثم اقتربت مجموعة من جنود المشاة في شكل مربع، ويسير في وسطها مجذوب ديني يكاد يكون عارياً، بدا مثل أورسون في مسرحيته الإيمائية: فقد كانت عيناه زائغتين، ويدمدم كلاماً غير مفهوم، وشعره الأسود مسدل على كتفيه. وكانت الشمس قد لوّحت ساقيه وذراعيه وجسده فأصبحت سمراء داكنة، ولم يكن يستر عريه سوى خرقة صغيرة ملتفة حول خصره. وكان هذا استثناء، إذ إني كنت قد رأيت أشخاصاً من هذه الفئة في حي الدرويشية وهم يسيرون في حالة عري تام. وكلمة مجنون تعني الشخص الذي فقد عقله، أما حرفياً فهي تعني الشخص الذي تلبّسه جني، قد يكون خيّراً أو شريراً. ويحظى هؤلاء الناس باحترام شديد، بل يمكنني القول، فهم يلقون تسامحاً شديداً في المقاهي، بل حتى في بيوت الأثرياء الخاصة. وهم في حقيقة الأمر، أشخاص غالباً ما يكونون شباناً ذوي عقول ضعيفة، ممن حفظوا بضع آيات من القرآن عن ظهر قلب، ومع تقدمهم في السن، أتقنوا من أساليب المكر والنفاق أكثر مما تعلموه من الورع، وينتهي بهم الأمر في حالة من البلاهة والدجل، حيث يغلب هذا الأمر الأخير عليهم.

وأخيراً وصل نجيب باشا نفسه. وكان هذا الشخص المعروف في حوالي الخامسة والستين من عمره، له لحية مثل أي مسلم مؤمن، ويرتدي عباءة زرقاء لا توجد عليها تطريزات أو زركشات، ويمتطي حصاناً أصيلاً قوياً

شديد البياض، ويحمل سمات عربي حقيقي. وكانت قسماته تلائم طبعه وشخصيته: عينان مثيرتان للاستغراب، وشفتان تنمان عن التعالي والعجرفة.

وجاء فرسان السباهية في نهاية الموكب الذي سار خارج المدينة لمسافة ساعة واحدة إلى معسكر، ينتظر فيه نجيب باشا أنباء من استنبول.

وفي ١٢ حزيران، عقد زفاف ابنة مضيفي، وبهذا أتيحت لي فرصة مشاهدة حفل زفاف مسيحي في دمشق. ولم تتوقف النساء عن الحركة الدائبة طوال اليوم في البيت وهن يرتدين أبهى ثيابهن، وهي حقاً رائعة: إذ تعتبر الطبقة المتوسطة في هذا البلد أنه ينبغي امتلاك ما لايقل عن ثوب واحد من قماش الساتان الحلبي والذهب الحلبي، لا من باب التبذير والبذخ، بل كاستثمار يضمن لهم الأمان في المستقبل، وذلك كجزء من أملاكهن المنقولة القابلة للتوريث. ومع اقتراب المساء، عُلقت المصابيح على أشجار البرتقال في صحن الدار، مما أضفت مشهداً رائعاً. وعند الغروب، جلس مضيفي وأقاربه المباشرون من الذكور على مائدة امتلأت بأطايب الطعام العربي.

وبعد أن دخنا القلايين واحتسينا القهوة، شوهد ضوء ساطع في غرفة العروس، وانطلق موكب من اشبينات (وصيفات) العروس، تحمل كل منهن شمعة طويلة، ويرتدين أعلى زوجين من القباقيب، خارجات من غرفة العروس باتجاه صحن الدار. وأخيراً خرجت العروس نفسها، وهي ترتدي فستاناً وردياً ومذهباً، وقد اعتلت زوجاً من قباقيب الزفاف، المرصعّة والمزينة بنقوش بارزة من الصدف. وكانت عيناها مغمضتين، ولم تكن تبدو على وجهها أية تعابير أو قسمات. وكانت الشموع التي تحملها من عدة ألوان، وكانت ستبدو أجمل (حسب ذوقي الأوروبي) لو كانت مجردة من زركشات الحنة التي طبعت على يديها، والكحل في عينيها.

وأخذ الموكب الآن يدور ببطء ثلاث دورات حول بركة الماء، وبدأت مغنية عجوز تضرب على الطبلة وتغني أبياتاً تمدح فيها جمال العروس وسعادتها، وكانت الوصيفات يطلقن الزغاريد عند نهاية كل مقطع.

وكان مساعدي جورج في قمة مجده، فقد تساءل مضيفي إن كان بالإمكان أن يقدم لهم يد المساعدة في هذه المناسبة، لكن جورج الذي لم يكن قانعاً بأن يكون مجرد أجير أو خادم، فقد نصّب نفسه واحداً من سادة الحفل، وأذهل أصدقاء وأقارب مضيفي بترحيبه الحار بهم إلى البيت الذي لم يدخله هو نفسه إلا مؤخراً. فلم يكن ثمة شيء يفوق حرصه ومجاملته المستمرة وهو يقدم زجاجة من العرق، ويرشف بين الحين والآخر كأساً منها بنفسه، لكي يثبت للضيوف، مثل طبيب مستبد شرقي، أن لا يخشوا من وجود سم في الطعام. ثم دخلت الآن فرقة المغنين المسلمين، وأخذوا ينشدون أغاني يصحبها الكمان والقانون، قطعتها ثلاث طرقات عالية على الباب بعد منتصف الليل، معلنة وصول والد العريس وشقيقه، مع زهاء ثلاثين من أصدقائهم. وكان كل واحد منهم يحمل شمعة مضيئة، لذلك كان الشارع مضاء ومتألقاً. وقد قوبل دخولهم بنوع من الممانعة من قبل الأشخاص في المنزل، وذلك ليظهروا مدى الخسارة التي ستلحق بمنزل الوالدين نتيجة ذهاب ابنتهم. أما جورج الذي احتسى كمية كبيرة من البراندي، وبحماس شديد وغير اعتيادي تتملكه حيوية وصفاقة كبيرتان، فقد أخذ يدفع بكتفه أصدقاء العريس بحماس زائد وفظاظة، مانعاً إياهم من الدخول، إلى درجة أن أهل العريس تنحوا جانباً فجأة وبشكل بارع، فوقع جورج على طوله أمام العتبة، وحظي ذلك بسرور ومتعة جميع

الضيوف. فنهض محبطاً فزعاً، ووضع منديلاً على أنفه، لكني أمرته على الفور أن يغيب عن الأنظار، فتسلل إلى المطبخ، ولم أره لبضع ساعات.

وبدأت جوقة موسيقية تعزف الآن معزوفات أثارت إعجابي بجمالها وأصالتها أكثر مما كنت أتوقع بكثير من الموسيقيين العرب، ترحيباً بالزوار الجدد. وكان من مهام الفرقة مرافقة العروس، التي أوقفت خلال هذه الفترة في ركن الصالون، وقد أدارت ظهرها لصاحباتها، وحجاب أحمر منسدل عليها، وكان يفصلها عن الآخرين حاجز من الوسائد. وأخيراً حان وقت ذهابها، فهدم الحاجز المصنوع من الوسائد، وارتدت العروس حجاباً أبيض، وسارت برفقة الجميع في الحي المسيحي حتى منزل أهل زوجها، استعداداً للاحتفال الديني بالزفاف الذي سيجري على نطاق خاص في الغد، حيث تبقى العروس بعده منعزلة عن المجتمع لمدة ثمانية أيام. وكان الصخب الذي أُحدث في الشوارع، بالإضافة إلى الموسيقى في هذه الساعة المتأخرة، جعل الكلاب كلها تنبح وتعوي، فأيقظت النائمين وخرجوا إلى أسطح المنازل. وفي الساعة الثانية، عاد الأقارب المباشرون لتناول طعام العشاء، وتواصلت الاحتفالات والابتهاجات، حتى أضاء الباحة، التي خفتت فيها المصابيح، وهج الفجر الوردي المنعكس من مآذن المدينة وقمم جبالها.

الفصل الثاني عشر

الإرساليات التبشيرية
ضواحي دمشق - تبريد الماء
موكب احتفال بالختان - تاجر بغدادي

يحمل السوريون أفكاراً خاصة عن يوحنا بولس، فهم يسمعون من الكاثوليك الأوروبيين قصصاً غامضة ومثيرة عن جهل الطبقات الفقيرة في إنكلترا وفقرها، ويرون في الوقت نفسه أن الطبقات الغنية في إنكلترا تتبرع بمبالغ ضخمة لتوفير التعليم، وتقديم المشورة الطبية وما إلى ذلك، إلى الفقراء في سورية، الذين لو أتيحت لهم الفرصة بسبب اختلاف المناخ، لأمكنهم الحصول على طعام وثياب أفضل. أما فيما يتعلق بالقراءة والكتابة، فبوسع الفقراء هنا الحصول على تعليم أفضل مما يحصل عليه فقراء أي بلدة صناعية في إنكلترا. ولا يوجد لدي ما أقوله ضد هذا العمل الخيري الذي لا يسير في وجهته الصحيحة. فهناك بعض الإرساليات التبشيرية البروتستانتية في سورية، والتي أكنّ لها عميق الاحترام، وأكاد أنحني لها احتراماً، لكن السكان المحليين لا يدركون الهدف المقصود.

وقد سمعت قصصاً فردية كثيرة، وسأتحدث هنا عن شخص ينتمي إلى طائفة الروم الكاثوليك، والذي سأطلق عليه اسم موسى. فقد ورث موسى هذا أملاكاً من أبيه التي بددها نتيجة كرمه وتبذيره الشديدين، حتى وصل إلى حافة الإفلاس، وعاش فترة من الزمن من دخل مجوهرات زوجته، ثم

باع منزله ليتدبر أموره، ووصل به الأمر إلى أن يعمل بضع ساعات في اليوم ليكسب قوته: وبما أن هذا الأمر يزعج شخصاً يحب متع الحياة، فقد زارني ذات صباح وأفصح عن نيته في أن يصبح بروتستانتياً.

وكانت قسمات وجه موسى حادة، وعيناه غائرتين، وعصبي المزاج. وكانت الجبة (العباءة) التي يرتديها من أفضل أنواع الأقمشة، أما الآن فقد أصبحت ملوثة بمادة زيتية عند رقبته، واهترأت جبته وانسلت خيوطها الحريرية وحال لونها.

قال موسى: " لقد قررت أن أصبح بروتستانتياً وأن أضع نفسي تحت الحماية الإنكليزية".

فقلت له: " ها.. لا بد أن تعترف بأن الإنكليز شعب غني جداً ومحترم".

فقال موسى: " نعم"، وأضاءت قسمات وجهه الشاحب اليائسة بالأمل والجشع، وأضاف"لا يوجد شعب مثل الإنكليز، فرعاياهم كالأمراء، ونبلاؤهم كالسلاطين".

فأجبته بجفاء: "نعم، نعم، أظن أني فهمت قصدك".

فقال موسى: "لقد أخطأت". فمن الواضح أنه أحس أني كشفت عن نواياه وأضاف قائلاً: "إن كراهيتي للبابا مخلصة وصادقة. ولم أذهب للاعتراف منذ أشهر. إني أكره متاع هذا العالم".

" إن كونك كاثوليكياً سيئاً لا يعني بالضرورة أن تكون بروتستانتياً جيداً".

وبعد أن تبين لموسى أني لم أشجعه كثيراً على مشاريعه الدينية، حاول أن يطلب مني قرضا ببضع مئات من القروش، لكنه بعد أن فشل في مسعاه، ودعني وتحدث عن بعض الأفكار الفلسفية حول غرور الأغنياء وخيلائهم، وضرورة الاستسلام لإرادة الله.

بعد أن اكتشفت بنفسي العديد من الطرق الجميلة، كنت أخرج كل يوم عند الغروب، في نزهة ممتعة إلى البساتين. ويكمن سحر ضواحي دمشق في التنوع المبهج من أشجار الفاكهة، التي تتخللها حقول الذرة الصفراء وجداول المياه الكثيرة. ولا ترى بيوتاً منعزلة في البرية، فالذين يعملون في الأرض يعيشون إما في المدينة أو في القرى وفي المناطق المجاورة. وتشوه الجدران الطينية التي تحيط بالحقول كأسيجة لها، المشهد الطبيعي إلى درجة كبيرة.

أما الأبقار فهي الأكثر تميزاً، وهي تشبه الغزلان ولم أر مثيلاً لها في حياتي، فجلدها ناعم أملس، وشكلها أجمل من شكل الأبقار في أوروبا. لكن هذه النحافة والرشاقة في الأبقار، تعد عيباً حسب تقدير أحد الخبراء الزراعيين.

وقبل أن يهبط الظلام بقليل كنت أصعد إلى سطح البيت، وكنت أرى في البيوت المجاورة عدداً كبيراً من الرافعات الخشبية الطويلة لرفع جرار الماء لكي تهب عليها نسائم المساء، ويعتقد الناس هنا أن الماء المبرد بهذه الطريقة، يطفئ الظمأ أكثر من الماء المبرد بواسطة الثلج.

وفي العشرين من الشهر شاهدت موكباً للاحتفال بختان طفل مسلم، وهو أمر شائع جداً في دمشق. وكان يسير في المقدمة شخص،

يعتبر كنزاً ثميناً بالنسبة لرسام كاريكاتير، كموضوع للضحك والتسلية: فقد كان في حوالي الأربعين من عمره، قصيراً، مربوع القامة، ذا ملامح هزلية وجدية رائعة، وكان عاري الساقين، وربلتا ساقية ضخمتين. وكان يلوّح بسيف حول رأسه، ويضرب به بين الحين والأخر ترساً يمسكه بيده اليسرى. وكانت تقرع في ذات الوقت طبلة، ودربكة وست طبلات صغيرة. ولا ريب أن "صديقنا السمين" كان يظن أنه وحيد زمانه، لكن كان من الواضح تماماً أن أيام رقصه قد ولت. وقد تمكن في بعض الأحيان من الوقوف على أصابع قدمه. وكان أشبه بملاكم يترنح فوق الحبال.

ثم تلاه شاب ذو عينين مكحلتين، وكانت السيوف تلوّح بنفس الطريقة، وأعقبه مجموعة من الشبان يحملون عصياً، وهي لعبة تؤدى في دمشق بروح وخبرة عاليتين. ولاحظت أن الطبول تقرع بعصي، أما الطبول الصغيرة فتضرب بقطعة من الجلد المقسىّ، وكان معظم الطبالة من العميان. وأخيراً تقدم جمل، مزين بفخامة وروعة بقماش قرمزي، وتتدلى منه شراريب وأشرطة ذهبية، يمتطيه صبي في الثامنة من عمره، أو لعله لا يزيد على ذلك كثيراً، يرتدي ثوباً وردياً من القطن، ورداء من الحرير، وتزين طربوشه أزهار وأشرطة ذهبية. هذا هو السيد الذي أجريت له عملية الختان. وكان الموكب يتوقف عند كل منعطف لمشاهدة المبارزة. أما الصبي المسكين، الذي كان يجري كل ذلك إكراماً له، فلم يكن يشعر بالارتياح على الإطلاق. إذ بدا أن كل هذا المرح والصخب لم يفرّج عن شعوره بالحرج لكونه الشخص الرئيسي في الموكب ومحط أنظار الناس.

رافقت ز. في زيارة إلى أحد كبار تجار بغداد في دمشق. وبما أن مترجم ز. قدمه لنا بصفة أمير أوروبي ذي ثروة عظيمة، أصبح استقبالنا رسمياً ومفعماً بالمراسم أكثر مما كان يلائم ذوقي. وكانت تعابير الإطراء الشرقية التي صدرت عن صاحب البيت مغرقة جداً ومتكلفة، والذي أعرب عن بالغ سعادته عندما رأى ضيفه - وقال إنه سيدعوه يومياً من أجل ثراء وازدهار أولاده وأقاربه -فرد عليه مترجم ز. بألف مباركة على رأسه وعلى رؤوس أفراد أسرته.

انتقلنا الآن إلى بيت والده، وهو رجل مسن رزين وكان يقرأ القرآن. وكان قليل الكلام، لكن كلماته كانت موزونة ومختارة. فرداً على ثناء ومديح من ز. الذي أسهب فيه مترجمه حسب المعايير الشرقية، قال:" أعرف أن اتساع لغة هذا السيد تنبع من أعماق قلبه: فكل إناء ينضح بما فيه".

ولفت ز. انتباهي إلى سجادة فارسية جميلة في الطرف الآخر من الغرفة، وعندما لاحظ المضيف ذلك، أمر الخادم بأن يلفها وأن يأخذها إلى بيت ز. ثم أخذ يرينا بعض الحليّ، لكننا خشينا أن نعرب له عن إعجابنا بها فيقدمها لنا، ولكي نتجنب هذا الإحراج استأذنا وانصرفنا.



الفصل الثالث عشر

الميدان - الريفيون - مشايخ الحارات
سهرة ممتعة - رمضان
على آغا حسني كتبي

عندما تطالع المسافر الذي يهبط تل الصالحية، قباب ومآذن جوامع دمشق التي تعلو ذلك البحر الواسع من الخضرة والأشجار المحيطة بدمشق، يرى ضاحية كبيرة تبدأ من جنوب شرقي المدينة وتصل حتى برية دمشق (خارج المدينة). وتدعى هذه الضاحية الميدان. فعندما تحدث اضطرابات وقلاقل، يتدفق آلاف من رجال هذه الضاحية المكتظة بالسكان المتعصبين والدمويين إلى المدينة، لبث الذعر في قلوب السلطة، وسلب سكان المدينة المسالمين داخل البوابات. وحتى خلال فترة الاحتلال المصري، حافظت هذه الضاحية دائماً على نوع من الاستقلالية عن سلطة الحكومة. إذ لم يجرؤ أي والي تركي، مهما بلغ نفوذه في دمشق، على إلقاء القبض على المشاغبين في الميدان في أي وقت من الأوقات. وكانت السلطة الوحيدة التي يقر بها هؤلاء السكان الذين يصعب قيادهم، هي سلطة شيوخ الحارات، الذين كانت الحكومة تحرص على اختيارهم من بين زعمائهم من أصحاب النفوذ. وأدى لقاء جرى بالصدفة مع أحد هؤلاء الشيوخ إلى توجيه الدعوة لي لحضور سهرة ممتعة قلما توقعت أن أحضرها، بعد أن قيل لي إن سكان حي الميدان يكنون كراهية شديدة للإفرنجة.

سرت في "الشارع المستقيم" أو شارع الأسواق، ثم انعطفت يساراً عند جامع سنان باشا، الذي شيده في هذا المكان بعد أن اكتشف فيه كنزاً ضخماً من النقود الذهبية والفضية. وبعض نوافذ هذا الجامع جيدة الزخرفة، والمئذنة مكسوة كلها بآجر أخضر اللون، وتبدو من بعيد وكأنها برج من البرونز، وتضفي على جمال المدينة مشهداً رائعاً.

ووراء الجامع مباشرة يقع سوق السنانية، وهو أعرض سوق في سورية، إذ يقارب عرضه ٣٥ قدماً. وقد بني السوق كله بالحجر، وتقسمه أقواس إلى ست عشرة مقصورة، غير أن المحلات فيه رديئة الشكل. ولدى مغادرتك السوق يطالعك شيئان مختلفان تماماً. فإلى اليسار يوجد بيت وضيع جداً بدعامات خشبية، حيث يتم إعدام المجرمين شنقاً في هذا المكان، وكان يستخدم لصلبهم في عهد الخلفاء الأمويين. وإلى اليمين يقع أحد أجمل الجوامع في المدينة وهو مشيد على النمط الدمشقي الحقيقي. وباستثناء الزخارف المقطّرة، أو الزخارف التي تشبه قرص العسل، لا يكاد يوجد فيه أي نقش أو نحت، وتستند الجدران إلى أعمدة رخامية مرصعة بالأسود والأصفر. ويعتبر الميدان عاصمة حوران والصحراء الكبيرة. وما أن دخلت هذا الحي حتى أصبت بدهشة كبيرة. فقد كان هناك مقهيان كبيران يقعان على جانب الطريق ممتلئان بالرواد الذين لا يبدو عليهم أي مظهر من مظاهر سكان المدينة أو بشرة الدمشقيين الأنيقة. إذ ترى البدو، بمناديلهم الحريرية الصفراء الزاهية تلتف حول وجوههم الشديدة السمرة، وثيابهم الخشنة، وصراخهم بتلك اللهجة القاسية وهم يساومون على بيع

منتجاتهم. أما الدروز من منطقة حوران، فتبدو عليهم عوادي الطقس، وهم مدججون بالسلاح، ويحتسون القهوة، وخيولهم المتعبة غير المشطة يمسك بها رجال هم أشبه بقطاع طرق أكثر من كونهم خدماً.

وعندما سرت في حي الميدان مع مرافقي، شاهدت عدداً من الجلود معلقة فوق هياكل تشبه الخيام، لتقي من الشمس باعة الأواني التي يستخدمها البدو في الطهي والسفر - قدور، وخطافات وسكاكين وغيرها من اللوازم. وتمر قافلة من الجمال محملة بالحبوب قادمة من حوران، ونساء قبيحات ذوات شفاه مزرقة يمتطين الحمير، ثم يلي كل ذلك فتى بدا أنه يرى دمشق لأول مرة، وبدت على وجهه دهشة عظيمة وهو يتطلع إلى هذا المكان الذي يعج بالحركة مقارنه بالصحراء المنعزلة.

ولما كنا نشعر بالعطش، توجهنا إلى المقهى ووجدنا أن أيدي جميع الرجال الجالسين حولنا مصبوغة باللون الأزرق. وكان عدد من الرجال يتحدثون مع رجل مسيحي يرتدي ثياباً بيروتية. وكان هؤلاء بضعة من الصباغيّن الكثيرين الموجودين في الحي، يحاولون تخفيض ثمن القماش النيلي المستورد مؤخراً. وتظاهر البيروتي بأنه أحس بالإهانة لأنه عُرض عليه سعر زهيد جداً. وتظاهر الصبّاغ بالغضب لأن وقته ضاع سدى في مفاوضات عقيمة، ثم قال له كذبة لا تصدق، لكنه أكدّ على صدقها بقسم غليظ. أما تاجر القماش المسيحي، الذي كان في غاية التهذيب ولم يكذّب هذا التأكيد، بل أخبره كذبة أشد وأكدّ عليها بحلف يمين أغلظ. أما السمسار اليهودي الذي بذل كل ما بوسعه من دبلوماسية استمرت بمزيد من الهمسات في أذن الزبون البيروتي، تصاحبها إشارات

بالأصابع والكثير من الغمزات. ولكي يتظاهر بأنه يتخذ مظهر الشخص الحيادي الجاد مع الصباغين، كان يلقي بين الحين والآخر نكتة بذيئة، كانت تمر دون أن يلتفت إليها أيّ من الطرفين، والتي كان يداريها بضحكة عالية جداً وغير طبيعية، مبدياً لثة تزينها بقايا أربعة أو خمسة أسنان سوداء. وأخيراً بلغت المفاوضات نهايتها، وجمع اليهودي اليد المصبوغة بالأزرق باليد السمراء، وغادر المسيحي، وهو يرغب بالتأكيد في أن يبيع بضاعته بربح أكبر إذا تمكن من إيجاد من يشتريها قبل أن يحين وقت التسليم، ولعل الصباغ كان ينوي ألا يسدد فاتورته عندما يحين أوانها، ثم يأتي بشاهد يقسم بأن الأبيض أسود.

عندما وصلت إلى البيت، وجدت أنه مختلف تماماً عن البيوت الموجودة داخل المدينة. فهنا لا توجد زخرفة بالموزاييك أو الأرابسك ولا توجد برك ماء، بل سجادة سميكة ممدودة على الشرفة، ورسومات مصنوعة من الجص، ومحاطة بالوسائد. إنه مكان للالتقاء والمتعة (الكيف). وكان من بين الموجودين في هذه السهرة شيخ من شيوخ البدو كان يبيع كمية كبيرة من ريش النعام؛ ومعتّر من الميدان، ودرويش تركي، وعدد من الأشخاص الآخرين. وكان الآغا رجلاً بسيطاً، قليل الكلام، لكنه بدلاً من أن يتكلم، راح يعيد ويكرر ما لا يقل عن خمس عشرة مرة "الشرف الذي أسبغته عليه بحضوري". إذ كان يردد عبارة "تشرفت بوجودك" كلما توقف الحديث بين الآخرين. وكان الشخص الذي يمثل التمرد وأعمال الشغب في منطقة الميدان أحد أقارب مضيفنا - الذي كان يعلق سيفاً من كتفه بواسطة حزام متقاطع، رغم ارتدائه الثياب المعهودة

في المدينة. وقد منحه ذلك مظهر المتبجح الذي لم يقلل من تبجحه الإطراء الذي ذكره عن شجاعة البريطانيين خلال الحملة السورية. وفي أثناء الحديث، أخذ يروي لنا عن مشاركته الرعاع في أعمالهم، وعن قيامه بقتل أحد آغوات الحي الذي فقد شعبيته لأنه أذعن لنظام التجنيد الذي فرضه المصريون - ولم ينس أن يذكر في حديثه أنه يتمتع بصفات من الإنسانية والكرم تفوق ما لدى رفاقه، وذلك لأنه أطلق النار عليه فوراً ولم يقتله شنقاً أو بواسطة الخازوق كما اقترح بعضهم. أما البدوي فكان متواضعاً، ولم يتحدث كثيراً في البداية، لكنه سألني بعد قليل، نصف مازح، نصف متحمس، عن صيغ سحرية فعالّة، أو ذات توجيهات صريحة وواضحة ليتمكن من كشف بعض الكنوز من المدن الأثرية الواقعة إلى الشرق. أما الشخصية السياسية في تلك السهرة فكان الدرويش، الذي راح يتحدث بلغة عربية ركيكة: مضيفاً إلى ذلك أسلوبه غير الواضح في النطق. ورغم أنه كان يتمتع بروح مرحة، ويعرف الكثير من الطرائف والحكايات عن أسفاره، فقد كان متعصباً، لأني عندما دخلت الغرفة لم يحاول النهوض من أجلي، مما جعلني أستاء وأثار حفيظتي فتجاهلت وجوده. وكان هذا شيئاً مؤسفاً، لأنه قسم المجموعة إلى قسمين. وقد لاحظ الآغا ذلك، وعزم أن يبذل ما بوسعه لرأب الصدع، فتوقف عن تكرار صيغة ترحيبه بي، وكان من الواضح أنه يقدح زناد فكره ليطرح موضوعاً على بساط البحث، وبعد لأي تمكّن من جعل المناقشة عامة بعد أن طرح موضوع متعة الإقامة في دمشق. مما استتبع الحديث عن المقارنة بين مزاياها ومزايا القاهرة وحلب وبغداد، التي زارها عدد من الأشخاص الآخرين. وأشاد

الدرويش بجمال استنبول وبورصة، إلا أن شيخ منطقة الميدان والآخرين الذين كانوا يرددون ما كان يقوله، انحاز بشدة إلى تربة موطنه، وقال إنه رغم أن بردى أصغر من نهر النيل ودجلة فإنه أجمل بكثير من هذين النهرين. وقال إن بلح القاهرة جيد، لكن مشمش دمشق أفضل.

" آه، لكن الحميّات الشتوية هنا لا تقارن بالآثار التي تخلفها رياح الخماسين (رياح حارة صحراوية) في مصر، ورياح السموم في بغداد".

" وماذا تقول عن المناخ في حلب؟"

"حلب - لا تذكر لي حلب. فلا توجد فيها أشجار ولا مياه. إن الشام جنة، إنها فردوس".

وأخيراً، اضطررت إلى مجاراتهم والقبول بأن دمشق هي أجمل مدينة في العالم، وأن الميدان هو أفضل حي في دمشق! ودع المزاح جانباً، فإني أعتقد أنه بما أن هذا الحي يقع في منطقة أعلى وأكثر جفافاً من الكثير من الأجزاء الأخرى في المدينة، فهو أفضل للصحة، وسكانه أقوى وأشد صلابة من الناحية البدنية.

وحرصت المجموعة على إطالة السهرة إلى وقت متأخر من الليل، بل بالأحرى إلى ساعة مبكرة من الصباح، إذ جاءت فرقة موسيقية، وجعلت الموسيقى الجميع في مزاج جيد وروح مرحة. وتصالحنا أنا والدرويش ورحنا نتحدث بالتركية معاً، وانتاب الآغا السرور لأننا أعفيناه من المسؤولية التي كانت تؤرقه في توزيع التحيات والمجاملات. أما البدوي الذي كان مرهقاً من السفر طوال اليوم، فقد غط في سبات عميق. وبين الحين والآخر، كان المطرب يضع يده على خده، وغنى لحناً لم أسمعه من

قبل، وأقسم أني لا أرغب في سماعه مرة أخرى. لكن حوالي الساعة الحادية عشرة، وبعد أن دخن ما لا يقل عن اثني عشر نرجيلة، وجرع ضعف هذا العدد تقريباً من أكواب البراندي، دخل في مرحلة سبات. وبعد منتصف الليل بقليل، استأذنت بالانصراف، ورافقني رجلان مسلحان أوصلاني بأمان إلى منطقة الأسواق. ثم حان وقت الصراخ عند البوابات المتتالية، لكي يستيقظ حراس الأبواب من سباتهم ويفتحوا لي الباب. وما إن وصلت إلى أحد الأسواق، حتى جعلت قناطره الكئيبة تردد صدى صوتي كإشارة إلى البواب الآخر. ولم تكن لتجد أي روح- حتى الكلاب كانت تغط في سبات عميق مستلقية فوق دكك الدكاكين. وبعد أن دفعت بقشيشاً عند كل بوابة، وصلت أخيراً إلى البيت، وقلت في نفسي إنه رغم تصرفاتهم الخاطئة، فهناك أناس في هذا العالم أسوأ بكثير من "شباب" الميدان.

وبالإضافة إلى المسلمين، يقيم في الميدان ١٦٠٠ نسمة من الروم الكاثوليك. ويقيم سريان دمشق اليعاقبة في هذا الحي، ولا يتجاوز عددهم أربع عائلات. وكان هؤلاء ذات يوم طائفة كبيرة في دمشق، لكنه أصبح يطلق حالياً اسم السريان الكاثوليك على معظم رجال الدين وأفراد هذه الرعية، بعد أن اعترفوا بسلطة روما. وبهدف الاعتراف بهذه السلطة، تتظاهر روما بالتسامح في كل ما يتعلق بالعقيدة وأنظمة الكنائس الشرقية.

وبصورة عامة، يعمل معظم سكان الميدان في التجارة مع البدو وأهل حوران، أما معظم المسيحيين في الحي فهم بناءون وحدادون ونحاسون.

بدأ رمضان هذه السنة في شهر تشرين الأول. وخلال النهار كانت تغلق المحلات، ولا ترى أحداً في الشوارع، أما بعد الظهر، فكنت ترى رجالاً يدخلون الخانات ببطء، استعداداً لعمل اليوم، أو العمل في الليل. وكانت تطلق ثلاث طلقات من المدفع في القلعة - عند الغروب - دلالة على انتهاء الصيام، وإمكانية البدء في تناول طعام الإفطار. ويبدأ المرح بعد الغروب بساعتين، ويتحول الليل إلى نهار. وفي كل مساء في حوالي تلك الساعة، كنت أذهب إلى الدرويشية، التي يمكنك أن تعتبرها بولفارد إيطاليا في دمشق. فقد كانت الأضواء الساطعة تتلألأ من المصابيح في هذا الحي، ويتجمع فيه آلاف الأشخاص المبتهجين، فتراهم جالسين في المقاهي وحولها، أو يتسكعون أو يتمشون. وقرابة منتصف الليل تزداد الصورة سحراً وألقاً بسبب رؤية البدر الرائع. فقد كان مشهد الشرفات الخشبية الرثة التي تخلو من السكان في الدرويشية في النهار، تتعارض تماماً مع الناس المحتشدين في مجموعات متأنقة الملابس، قد ذكرتني بالفرق بين بروفة مسرحية تشاهدها من وراء الكواليس، وبين عرضها ليلاً على المسرح. ولكي تكتمل الفتنة الساحرة كان ينقصني سماع موسيقى جيدة. صحيح أن فرقة الباشا كانت تحتل وسط ساحة السرايا، لكنني أسرعت مبتعداً حتى اختفت أصوات الأبواق الغليظة وأصوات الناي النشاز، وتلاشت بين أصوات الخطوات والهمهمات غير المفهومة.

جلت بين أماكن التسلية واللهو كلها: الرقص على الحبل، وألعاب المشعوذين والحواة، ومسرح كراكوز، الذي يشبه Punch في الغرب، الذي أدخل المتعة والسرور إلى قلوب الناس حتى بعد منتصف الليل. وفي بعض

الأحيان كنت أتمشى حتى ساحة السرايا، أو دار الحكومة، التي كانت تبدو في وضح النهار مثل ثكنة كبيرة، وأدركت من نوافذ الخزينة أن الكتبة، رغم أنهم مسيحيون ويهود، كانوا يعملون طوال الليل ويناموت في النهار، متأقلمين مع ساعات عمل المسلمين.

وكانت سلطانة الثالثة، زوجة السلطان محمود، في المدينة في هذا الوقت، وكانت قد وصلت من استنبول وهي في طريقها إلى مكة، حيث سترافق القافلة. وكانت تقيم في بيت المرحوم علي آغا حسني كتبي، الذي يعتبر أجمل بيت في دمشق، والذي حاولت عبثاً أن أراه، رغم أني تعرفت على أقارب المرحوم الذكور. وكان السيد وود يحصل بين الحين والآخر على إذن ليقوم المسافرون الإنكليز برؤية البيت. لكن مجموعة من أولئك المسافرين حاولت أن تدخل إلى قسم الحرملك، بدافع من الفضول الوقح، ودون إبداء أي احترام للأسرة. ومنذ ذلك اليوم، أغلقت الأرملة بإصرار أبوابها أمام جميع الإفرنج.

وكان مصير زوج هذه السيدة حزيناً ومأساوياً. فقد كان أكثر الرجال نفوذاً في دمشق، وبجميع المعايير، كان رجلاً نبيلاً مثالياً ينتمي إلى المدرسة العربية القديمة. فقد كان صادقاً في كلمته، سخياً في ضيافته وكرم معاملته، ولطيفاً ودمثاً تجاه جميع الطبقات. وكان جميع الناس يكنون له كل المحبة والاحترام، وكان إبراهيم باشا يكنّ له احتراماً كبيراً، وكان يقيم في بيته عندما يأتي إلى دمشق بين الحين والآخر. لكن الرعاية والدعم اللذين أظهرهما له سيراسكير، خلقا له الكثير من الأعداء. لكن إبراهيم باشا كان يحميه دائماً من الدسائس والمؤامرات المحاكة ضده. وجاء دماره أخيراً نتيجة

طيش وحمق أحد ضيوفه. فقد عُين "سر أميني"، أو أمين خزينة السلطان للتوجه إلى مكة مع قافلة الحج، وأقام في بيته، واستقبله بحفاوة ورعاية شديدتين. ومع مرور الزمن، خسرت قوات السلطان معركة نزيب (نصيبين)، ووقعت خيمة وأوراق حافظ باشا، القائد العثماني في يد المصريين، وعثر على رسالة كتبها أمين الخزينة هذا، يصف فيها عطف ولطافة على آغا حسني كتبي، وقال إنه إذا تقدمت قوات السلطان إلى دمشق، فإن نفوذه قد يقلب الميزان ضد المصريين. وهنا تقدم أعداء على آغا المسكين وطالبوا برأسه. وعُينت لجنة عسكرية لمحاكمته، وقُطع رأسه، وساد المدينة حزن عام.

الفصل الرابع عشر
انطلاق قافلة الحج

تعتبر دمشق بالنسبة للأوروبيين لؤلؤة الشرق، عقداً من الزمرد، مدينة الصالونات المذهّبة، وخرير نوافير الماء، المحاطة بالأنهار والجداول المتدفقة، وذات الخلوات الظليلة الباردة. وكم من مرة أنساني تغريد الطيور عند الغسق، الذي يدخل السكينة إلى النفس في خمائل دمشق الكثيفة، أهواء وأمزجة الناس العنيفة، ومكائد ودسائس الحكام.

أما بالنسبة للمسلمين، فإن دمشق هي المدينة المقدّسة، المدينة التي تكتسب صفة قدسية أكثر بسبب انطلاق قافلة الحجاج منها إلى الكعبة في مكة المكرمة. ورغم الثورات والاضطرابات التي كانت سورية مسرحاً لها، لم يحدث شيء أبداً أدى إلى تعكير صفو السمات الشرقية والأصيلة لدمشق. فقد أصدر السلطان الخليفة فرماناً فتح بموجبه جميع مساجد استنبول، وأتاح تسامح محمد علي الفرصة للإنكليزي الهندي المنبهر للإطلاع على الخطوط الجليلة الجميلة المرسومة في إيواناتها الأربعة في مسجد السلطان حسن في القاهرة. إلا أنه لم يكن بوسع أي إفرنجي أن يدخل مسجد بني أمية في دمشق وهو يرتدي زيه الخاص. أما السيد ريتش، فقد كان متخفياً في زي تركي من جورجيا عندما زار المسجد. ويعد انطلاق قافلة الحج إلى مكة المكرمة أعظم يوم في تقويم الدمشقيين. فهو في جميع الأحوال، حدث مميز جداً. وفي حين يسيء سكان القاهرة

معاملة المسيحيين والفرنجة الذين يجرؤن وينظرون إلى قافلة انطلاق الحجاج الإفريقيين (رغم أنهم مطبوعون على التسامح من النواحي الأخرى)، فإن الدمشقيين، بخلافهم، يبذلون ما بوسعهم لتشجيع المتفرجين المسيحيين، بأمل أن يؤدي بهاء وفخامة المشهد إلى إقناعهم باعتناق الإسلام. وفي السنة الأولى من احتلال إبراهيم باشا لسورية، كان المصريون الأكثر تعصّبا يسيئون معاملة الكثير من المتفرجين المسيحيين. أما في السنة التالية، فقد أصدر شريف باشا أوامر كفلت الاستمرار في اتباع الأسلوب القديم الأكثر اعتدالاً.

قبل شهر من انطلاق القافلة، تزدحم شوارع دمشق بالجوابّين وأبناء السبيل القادمين من البحر الأسود وبحر قزوين وبحر آرال، ومن نسائم القوقاز المنعشة، ومن أبخرة نهر جيحون الضارة، والمناطق الأكثر بعداً من سمرقند. وتكون الدوافع الدينية الحافز الرئيسي للكثيرين، لكن ليس بالنسبة للجميع. وتعد التجارة، بنشاطها ومزاياها، أحد دوافع الحج. إذ يتم تبادل خناجر خراسان بحرائر دمشق. وتعود الجمال التي تنقل إلى مكة الرزّ في رحلتها جنوباً، محملة ببن الموكا. وأثناء فترة الحج تندر الخيول ويرتفع ثمنها، في حين تتوفر الجمال بكثرة ويقل ثمنها. إذ يمتطي الحاج المقتدر الحصان في رحلته إلى مكة، حيث يبيعه بضعف الثمن الذي اشتراه به، ويعود ممتطياً جملاً، كان يشتريه بثلاثمائة قرش، ويبيعه في الميدان بألف قرش. وفي دمشق تشتد الحركة التي تذّكر المرء بمعرض ليبزيك. وترتفع قيمة الغزّي الذهبي، الذي تتراوح قيمته القانونية بين واحد وعشرين وخمسة وعشرين قرشاً، لكن سرعان ما

تهبط قيمته حال انطلاق القافلة إلى مكة. ويتحمل الدمشقيون واجبات استضافة الحجاج، دون أن يشكل ذلك عبئاً عليهم، وذلك لأن للمضيف الحقّ في الحصول على نسبة اثنين ونصف في المائة من كل شيء يبيعه أو يشتريه ضيفه الحاجّ. والتجار الإيرانيون هم عادة الأكثر ثراء من بين جميع الحجاج.

بعد وصول قافلة حلب، يُعقد اجتماع يحضره الباشا (الوالي)، وأمير الحج وأمين السر (أمين خزينة الباب العالي) والقاضي والمفتي وأعيان المدينة، للتباحث في مسألة استئجار الجمال. ولا يعد هذا الأمر مسألة غير ذات أهمية، لأنه بالإضافة إلى الأربعة آلاف حصان، تتطلب قافلة الحج أكثر من ثمانية آلاف جمل. ويبلغ أجر الجمل من دمشق إلى مكة المكرمة عادة ثلاثة آلاف قرش، أما هذه السنة، فقد حُددت الأجرة بمبلغ ألفين وخمسمائة قرش بسبب تدني أسعار المؤن. ويبدأ المقيّمون (متعهدو الجمال) الأربعة بطلب ثلاثة آلاف وخمسمائة قرش كأجر للجمل الواحد، ويدوّن الأعيان ذلك على قطعة من الورق، ويسجلون جميع المواد والمؤن التي يتطلبها الجمل - الشعير، والماء، والحداة، والمساعدون، وما إلى ذلك - ويطلبون تخفيض الأجر، ثم يتم التوصل إلى اتفاق وتُعقد الصفقة بعد الاستماع إلى جميع الحجج والمناقشات من كلا الجانبين.

بدأت المراسم التي تسبق انطلاق القافلة يوم الأربعاء. فعند صلاة العصر، حُملت راية النبي الخضراء من القلعة القديمة إلى مسجد سنجقدار، ثم نقلت من هناك إلى السراي بعد الصلاة. وفيها تابعت بعينّي هذا الموكب الغريب، وفيها كنت أحدق في المبنى الذي انطلقت منه الراية أولاً، ثم في

المكان الذي وضعت فيها أخيراً، رحت أفكّر تلقائيا "بالتقدّم التركي". إذ تذكّر قلعة دمشق التي جلبت منها الراية، ببنائها الضخم وسورها المهيب ذي الفتحات، بالفترة التي قام فيها أتباع سليم وسليمان بتحصين معاقل الفاتحين العرب الأوائل، - بينما يغطي الطلاء والورنيش أبواب السراي الخشبية الرديئة والرقيقة، التي وضعت وفق أسلوب استنبول الهجين، الذي قد تهدمه مجرّد شرارة أو أول نسمة قد تهب عليها، مما ذكّرني بالتركيبة الحالية للقوّة العثمانية.

وعندما اقتربت الراية، هبط أحمد باشا الدرج، وخلع حذاءه، وتقدّم واستلم من السنجقدار الراية المقدّسة، التي قدمّ لها استقبالاً رسمياً. وبعد أن قبّل الراية، حملها على كتفه وصعد الدرج، فيما أطلق المدفع طلقة تحية.

في اليوم التالي، انطلقت قافلة الحج بأبهة عظيمة، وكانت رؤيتها، بلغة ذلك البلد الرنانة، تكفي لتفجير مرارة أسد. والحق يقال، إن اهتمامي بهذا المشهد ينبع من سماته الشرقية التامة، وعدم وجود أيّ شيء يمكن أن يذكّر المرء بالغرب، سوى الزرمايقة وبنطال أمير الحج وحاشيته. وعند انبلاج الفجر، كانت المدينة تضج بالحركة بدءا من الدرويشية وحتى الشارع المستقيم، والطرق الأخرى المؤدية إلى الميدان، التي تكتظ بالمتفرجين وهم يرتدون الملابس التي يرتدونها عادة في أيام عطلهم، وترى الجمال التي تنوء بأحمالها من العلف، أو المحفات (التختروان) والأشخاص الذين يستأجرونها. وكنت ترى بعض الحجاج يذرفون الدمع وداعاً، إلا أن ارتفاع أصوات الناس الآخرين يظهر أنهم نسوا الغرض الديني لرحلتهم، في نشاط ونفاد الصبر لانطلاقها.

بعد أن حصل السيد وود على إذن باستخدام شرفة تقع على الطريق الذي سيمر منه الموكب، قبلت دعوته للانضمام إلى مجموعته، وأمضى يوماً من التسلية والمتعة معهم. وفي الساعة الثامنة غادرنا القنصلية، وكان السيد وود يسير يسبقه ثمانية قواصين يوفرون له الحماية. وقد جعلت خصاله الشخصية، وثقافته الشرقية الدمشقيين يكنّون له مشاعر طيبة.

بدءاً من هذه الساعة وحتى الساعة الحادية عشرة، سار في الشارع صف طويل ومتواصل من الجمال المثقلة بالأحمال، والفرسان غير النظاميين الذين أخذوا يشقون طريقهم بصعوبة. وكان الناس يحتشدون فوق أسطح البيوت والمساجد الكثيرة تماماً كما كانت الأرصفة مكتظة بهم في الأسفل. وفي الحقيقة، لم أر ذلك الشارع الكئيب تغمره البهجة والمرح مثل الآن. ويعد الماء أهم شيء في الشرق. إذ كانت تأتي بين الحين والآخر مجموعة من حاملي الماء. وكانت المدافع التي يجرها زوج من الجمال، لا تستخدم لشيء سوى حمل أعباء ثقيلة، تدخل السرور إلى نفوس الناس تارة، وتبث الذعر فيهم تارة أخرى عندما تحرن وتجمح وهي سائرة، وحركة سيرها المتعرجة المخيفة تختلف تماماً عن خطواتها المعتادة المدروسة المهيبة. ثم أعقب المدفعية الجنود الأكراد (قوات القوزاق التركية)، برماحهم الطويلة الضخمة، وأرديتهم الهمجية، لكن الرائعة والمزركشة.

تخللت الموكب فجوة. وكان الطقس جميلاً والسماء صافية. واستدرت لأتطلع إلى سلسلة جبال لبنان الشرقية الجرداء بلون الظباء، وقد شطرتها إلى قسمين مئذنة جامع السنانية الخضراء الداكنة المائلة إلى اللون البرونزي، عندها أعلنت مدافع القلعة عن مغادرة أمير الحج والرايات المقدسة.

تقدمت فرقة السباهية، ثم لاح شيء ضخم يسير الهوينى: كان ذلك هو المحمل. تصور أضخم جمل في الشرق، جملاً عملاقاً وقد وضع فوقه صندوق كبير، كُسي بقماش من الحرير الأخضر، مطرّز بالذهب والفضة، يكاد يصل حتى حافري الجمل. وكان هذا الغطاء قد صنع في القاهرة في السنة الأولى من الاحتلال المصري، الذي حلّ مكان الغطاء السابق، الذي اختفى بعد الثورة التي قامت ضد محمد سليم باشا. وقد كلّف صنعه ستمائة محفظة، أو شيئاً يقل عن ثلاثة آلاف ليرة. ويبلغ وزن المحمل بكامله ستمائة وستين رطلاً، ثم تلاه السنجق، أو الراية وتلاها أعيان المدينة. وجاء في خاتمة الموكب أمين السر وأمير الحج كارا علي باشا.

وحسب الأعراف المتبعة منذ القدم، هناك ثلاثة أشخاص فقط يمكنهم استخدام البغال لحمل المحفة، أو كما تدعى التختروان، وهم أمير الحج، وكيخياه، وأمين السر الذي يحمل العشرة آلاف محفظة التي ينفق منها السلطان على الحجاج: أما المحفات الأخرى فتعلق بين جملين. وقد أدت السلطانة الثالثة مناسك الحجّ في عربة أوروبية، نظراً لأن الطريق من هنا إلى مكة المكرمة مستو تماماً، ومن المؤكد، فهي أول عربة تذهب إلى مكة المكرمة في التاريخ، وهي العربة الثالثة التي شوهدت في دمشق. أما العربتان الأخريان، فواحدة تخص الباشا شريف، والأخرى تخص القنصل العام السيد فارين. ولم تظهر السلطانة في الموكب الذي وصفته في الحال.

يخصص خمسمائة جمل لخدمة أمير الحج الشخصية. ووفق الرواية القانونية، لا يفترض أن ينفق أحدها وذلك لكي يبقي عددها كاملاً،

ويتم علفها من العائدات المخصصة لهذا الغرض. ويوجد عكّام واحد لكلّ جملين، أو قائد يتقاضى خمسمائة قرش من المتعهد، لتنكبه مشاق الذهاب إلى مكة. ولكلّ عشرة جمال هناك مشرف على علف الجمال، يتقاضى مائة قرش. أما الجمّال أو حوذي الجمال، ورجال الخيمة فيتقاضون مائة قرش من الحاج لقاء الرحلة؛ ثمّ يأتي البقشيش الذي أصبح ثابتاً حسب العادات المتبعة. وتستغرق الرحلة إلى مكة أربعين يوماً، وفي نهاية كلّ خامس يوم يتوقف الحجاج والدواب للحصول على استراحة لمدة أربع وعشرين ساعة: لذلك توجد سبع استراحات، يمنح الحاج في كلّ منها العكّام ومرافقيه الآخرين عشرين قرشاً أو أكثر، أي غزي ذهبي واحد: وتقدم للعكّام فقط كمية محددة من الطعام. أما القماش الذي يكسو المحفة فيوفره العكّام.

تعتبر مزيريب أول مكان لاستراحة القافلة، حيث تعقد المواثيق مع البدو لحماية القافلة وسلامتها من عمليات الابتزاز والنهب اللاحقة. وتجري الرحلة في الشتاء بدون صعوبات. أما عندما تصبح الرحلة في منتصف الصيف حسب دورة الأشهر الإسلامية، فيكون الإعياء مخيفاً. إذ يموت بعض الحجاج في أثناء النهار بسبب ضربات الشمس؛ وبسبب حركة الجمل الغريبة في الليل، يتخيل آخرون وهم في حالة سبات، أنفسهم أنهم في الحمّام، فينزعون ثيابهم التي يستولي عليها البدو في الليل. وقبل وصول القافلة إلى المدينة بثلاثة أيام، يلتقون بقافلة الإغاثة. وليس بإمكاني أن أصف المراسم في مكة؛ ويكفي القول إن الباشا يخلع ثيابه الإفرنجية، ويرتدي الثياب الشرقية قبل دخوله تلك المدينة.



الفصل الخامس عشر

مظهر الدمشقيين وهيئتهم - الثياب

الطعام - النساء - الخدم - الزنوج - الغجر

لا ريب في أن الدمشقيين أناس يتمتعون بالوسامة، وبشرتهم أكثر شحوباً من بشرة سكان إيطاليا وجنوب فرنسا. وفي الماضي، كان يوجد في دمشق الكثير من العميان والعوران بسبب تفشي الجدري، إلا أنه منذ حوالي عشرين عاماً، أفتى رجال الدين بأن التلقيح طاهر وشرعي. لذلك يتمتع الجيل الحالي ببصر أفضل بكثير من الجيل الذي سبقه. والتركمان وأهالي القنيطرة وحوران ذوو بشرة أكثر سمرة في الولاية (بالإضافة إلى البدو). وقلما تجد شخصاً ذا شعر فاتح اللون. والجميلات السمراوات البدينات هن الأكثر إثارة للإعجاب والرغبة. وقد دخل في رأس امرأة حمقاء أن موضة العيون الداكنة قد ولت، فقررت أن تغيّر لون عينيها باستخدام مادة كيميائية، وكانت النتيجة أنها أصيبت بالعمى.

دمشق، سليلة طيبة وبابل، والعديد من المدن العظيمة الأخرى، هي التي صمدت وبقيت في حين بادت المدن الأخرى. وهي تخضع حالياً لمانشستر و غلاسكو، إذ إن عصر البخار، الذي يعتبر العصر الذهبي بالنسبة لإنكلترا، هو عصر الحديد بالنسبة لدمشق، التي يمكن أن يطلق عليها مدينة الأنوال اليدوية.

ورغم ذلك، فإن دمشق تتمتّع بشيخوخة خضراء: فرغم التذمر من انخفاض الدخل، لا يزال يوجد في المدينة الكثير من الرغد والبحبوحة. إذ

لا ترى سوى قلة ممن يرتدون ثياباً بالية، ولا ترى جموعاً من الفلاحين القذرين البائسين كما هو الحال في مصر. ويبدو أن جميع المسلمين والمسيحيين واليهود في المدينة يرتدون ثياباً أنيقة ومحترمة. ورغم أن الصناعات الأوروبية ألحقت ضرراً بالحائكين المحليين بالنسبة للسلع القطنية، فقد باءت بالفشل المحاولات الرامية إلى تقليد الأقمشة الحريرية المخطّطة التي تصنع منها عباءات الرجال.

وكان من أسوأ الإصلاحات التي أدخلها السلطان محمود، الإصلاحات المتعلقة بالتحول من اللباس الشرقي إلى اللباس الأوروبي. ولم يثر ذلك حفيظتي في أي مكان آخر كما فعل بي في دمشق. فيا له من إحساس رائع ذاك الذي ينتاب الأوروبي وهو يسير لأول مرة في أسواق المدينة. وهو يشبه ذلك الشعور اللطيف، الرقيق الذي ينتابك وأنت تسير في ممر كنيسة، إذ ترى رويداً رويداً كتلة متلألئة من العباءات الزاهية، الغالية الثمن، الرائعة، الموشاة، والمسدسات والخناجر الجميلة، والخيول المطهمة، ثمّ هذا الانسجام التام مع هذه الحياة الغنية، الهادئة التي يظهرها ذلك الدمشقي، الذي يجلس في الطرف الآخر من السجادة، فكم تبدو عمامته نظيفة، وكم تبدو هيئته رشيقة، وملابسه جميلة. لكن من أين أتى ذلك الشكل المثير للسخرية هنا؟ من أين جاءت هذه المهزلة لهذا المظهر والهيئة الإفرنجية؟ فها هو ذا جندي النظام التركي بالزيّ الأوروبي، الذي لا يعرف كيف يرتدي الثياب الأوروبية بنفس قدر عدم معرفته قراءة كتاب أوروبي. فقد تلطخ معطفه بالحوّار الأبيض بسبب التصاقه بجدار أحد المقاهي، وقد تدلت صدريته خارج

بنطاله، وتلوث حذاءه الجلدي الأسود أو حذاءه نصف الطويل بالأوساخ عند الكعب، ويحتاج كثيراً إلى طلاء أسود.

ويكاد جميع الدمشقيين يرتدون الزي الشرقي القديم، ويرتدي قلة منهم بدلة النظام المصرية. ولا يرتدي ثياب النظام الذي تراه في استنبول إلا السباهية. والعمائم التي يعتمرها المسيحيون إما سوداء، أو زرقاء، أو بنية اللون، بالإضافة إلى شال من قماش الكشمير يضعونه أحياناً. وفي الشتاء، ينتعل الرجال القبقاب عندما يسيرون في الشوارع. أما النساء فهن مولعات كثيراً بانتعال قباقيب عالية داخل البيوت، التي يكون بعضها مطعّماً بالفضة وعرق اللؤلؤ، ويكلّف الزوج الواحد منها خمسة ليرات، في حين يبلغ ثمن القبقاب العادي دولاراً واحداً. ولا ينتعل أحذية صفراء سوى المسلمين وعدد قليل من المسيحيين من أصحاب الامتيازات الذين يعملون في الحكومة.

والطعام في دمشق وفير وممتاز. ويتناول المسلمون طعام إفطارهم بعد شروق الشمس بساعة واحدة، ويتناولون طبقاً أو طبقين، يجلب جاهزاً من الأسواق، كرؤوس وكوارع الخراف المسلوقة، مع الخلّ والبقدونس أو الثوم، والفول المسلوق، والحلويات، والبيض المقلي، والجبن، والرزّ، وما إلى ذلك. وعند منتصف النهار يتناولون قدراً قليلا من الطعام أو لا يتناولون شيئاً. أما العشاء، الذي يتناولونه قبل الغروب بساعتين، فيطهى عادة في البيت: ويتألف العشاء من خضراوات من جميع الأنواع، ولحم مشوي، وأخيراً الرزّ. وفي الشتاء يتناولون أحيانا عشاء خفيفاً مؤلفاً من الرزّ واللحم والحلويات. ولديهم بعض القواعد والأصول في تناول الفواكه، فهم

يتناولون مثلاً التوت في الصباح، والمشمش والعنب بعد العشاء. ويتناول المسيحيون عادة وجبة طعام دسمة في منتصف النهار، ويتناولون طعام العشاء عند غروب الشمس.

وحليب الماعز أكثر انتشاراً واستخداماً من حليب البقر. وبدلاً من أن يطرق الحلاّب أبواب البيوت وهو يحمل دلاءه، فإنه يجلب عنزاته إلى أمام باب زبونه، ويحلب الكمية المطلوبة مباشرة من ضرع الحيوان. والحليب المخثّر والقشدة في دمشق ممتازتين. وثمة وفرة في الزبدة التي تأتي من حوران ومن أماكن أخرى. وزبدة الخراف أكثر بياضاً، وتباع بسعر أغلى قليلاً من زبدة البقر.

ويأتي التبغ الذي يدخّن في دمشق في الغالب من المناطق المجاورة لسلسلة لبنان الشرقية. وهم يدخنون عادة النرجيلة ولا يقربون الأفيون أبداً. أما الحشيش، أو القنب، فُيدخن عادة في المقاهي ويتعاطاه المصريون والمغاربة غالباً.

وبما أنني لم أدعّي أنني طبيب، فلم أتمكن من الدخول إلى حرملك أيّ بيت من بيوت المسلمين، أو أكتسب بالملاحظة الشخصية أيّ معرفة عن أساليب وعادات أهلها: فكلّ ما أعرفه هو من السماع وثرثرة النساء المسيحيات.

ولا تضع النساء المسلمات الحمرة على خدودهن، لكنهن يضعن كحلاً أسود على عيونهن. أما استخدام الحمرة بين النساء المسيحيات، فيكاد يكون شائعاً. كما تستخدم الحنّاء لطلي الأظافر عند كل من النساء المسلمات والمسيحيات، ويعتقد الكثيرون أنها مسكّنة للحمّى.

وبدلاً من أن تكون ربة البيت هي السيدة فيه، فهي تعامل كما تعامل الخادمات من الطبقة العليا إلى حد كبير. وقد شاهدت حتى في بيوت المسيحيين وقاحة وتطاولاً من جانب الخدم الذكور على زوجة صاحب البيت، وهو أمر مقزز تماماً بالنسبة للأوروبي. وتعتبر ولادة الأنثى فألاً سيئاً - حتى أن القابلة تقول للأم عندما تضع مولودها إن المولود صبي، لكي لا يؤدي شعورها بالإحباط إلى وفاتها وهي في حالتها الضعيفة تلك. ويستمر النفاس ثمانية أيام، وفي لبنان يدوم خمسة عشر يوماً، مما يدل على أن للبرودة تأثير في ذلك.

تبلغ أجرة الخدم الذكور خمسة أو ستة ليرات تقريباً في السنة؛ لكنّهم كسالى إلى درجة كبيرة، ويتسكعون كثيراً ويعملون قليلاً. وتوجد قلة من الخدم اليونانيين من الذكور في دمشق، وقلة من القوقازيات. أما الحبشيون والزنوج من الذكور والإناث، فهم كثر، ويُجلب بعضهم من مصر، لكن الكثيرين منهم يُجلبون من مكة مع الحجاج العائدين، بعد أن يُنقلوا إلى هناك من سنار والحبشة، عن طريق جدة، وهناك عدد قليل جداً من المخصيين في دمشق.

وثمة عدد قليل من الغجر في الضواحي. ويقسّم العرب البشرية كلها، باستثناء الغجر، إلى صنفين: بدو الصحراء، والحضر. ولا يعتبر الغجر من البدو ولا من الحضر، لأنهم لا يقيمون في المدن ولا في الصحراء، بل في ضواحي المدن، وعلى أطراف الصحراء. وهم يبدأون ترحالهم عند الظهيرة تماماً، ويدّعون بأنهم مسلمون. لكن ساعة الانطلاق هذه جعلت الناس يعتقدون أنّهم من عبدة الشمس. وهم

يتكلمون العربية والتركية والغجرية، لكنهم يتكلمون التركية بشكل أفضل من اللغة العربية. ويدعى الآغا الذي تعيّنه الحكومة لجمع الضرائب منهم آغا هاشارجيان. وحاول إبراهيم باشا توطينهم، لكنه لم يفلح في ذلك. والاسم العربي الصحيح لهم هو النَوَر.

الفصل السادس عشر

العلماء - المساجد

المعرفة - الصناعات - التجارة

هناك الكثير من الأشخاص المسلمين البارزين الأتقياء والورعين والملتزمين التزاماً شديداً بدينهم. ويتعين على المسلم الجيد أن يكون إنساناً طيباً. وكان أحد هؤلاء الورعين، الشيخ سعيد الحلبي، أحد علماء المسجد الكبير. وهو يقوم بأعمال البر والإحسان ويتمتع بنزاهة كبيرة، ويتوجه إلى المسجد قبل فجر كلّ صباح، ويمضي فيه الشطر الأكبر من يومه. ويوجد لدى أحد العلماء ابن يدعى عبد الله، وهو تاجر ميسور. وروي أنه أبرم عقداً مع بعض الفلاحين لتوريد كمية من الحرير بقيمة ١٤٠ قرشاً، لكن السعر الحالي ارتفع منذ عقد الصفقة والتسليم إلى ١٦٠ قرشاً. وقدم عبد الله للفلاحين ١٤٥ قرشاً، أي بزيادة خمسة قروش عن السعر المتفق عليه. وطلب إليه والده الذي كان يقف بجانبه أن يمنحهم السعر الجاري. فأخذهم عبد الله جانباً وعرض عليهم مبلغ ١٥٠ قرشاً. وعندما علم والده هذا، استخدم سلطته الأبوية والورعة بطريقة لا نكاد نفهمها نحن الغربيين، وضرب ابنه ضربتين على رقبته بعصاه، وأمره أن يدفع الـ ١٦٠ قرشاً عداً ونقداً. ويرى والده أن عبد الله لم يكن خاسراً في تلك الصفقة، وذلك لأنه يضع علامة على الأقمشة التي يصدّرها، وعندما يرسلها إلى إزمير تباع على الفور، لأنها موردة من ابن رجل يتصف بهذا العلم والتقوى.

هناك ٧١ مسجداً في دمشق للوعظ وتلاوة الأدعية، و٢٤٨ مسجداً للصلاة فقط، بالإضافة إلى الكثير من المدارس، التي أوقفت بأموال كثيرة، لكن العائدات تكون محدودة جداً في بعض الأحيان، بسبب انخفاض قيمة العملة: فقطعة الأرض التي كان يبلغ ثمنها سابقاً مائتي قرش مثلاً، عندما كان الدولار يساوي قرشين، أصبحت تساوي الآن مائة دولار: ويساوي الدولار حالياً اثنين وعشرين قرشاً، فأصبحت قيمة الأرض تلك تسعة دولارات. وفي بعض الأحيان يُساء استخدام الجزء الأكبر من الإرث الموقوف إلى المساجد والمدارس. والعديد من المساجد في الضواحي في حالة سيئة، وأغلب المدارس الموقوفة بدون أساتذة أو طلاب. ويبلغ عدد الطلاب في جامع بني أمية الكبير ٣٠٠ شابّ يتلقون علوم الفقه والشريعة واللغة العربية. ومنذ إلغاء مدرسة النظام المصرية، لم يعد هناك في دمشق معهد لتعليم أيّ من العلوم الحديثة. ولا تزال كتب الفلك العربية القديمة رائجة، وهم يرفضون نظرية كوبرنيكوس عن دوران الأرض حول الشمس، ويعتبرونها نظرية فظيعة تستحق اللعنة.

وبطبيعة الحال فإن الطب في تراجع شديد. ويدعى أحد الأطباء المشهورين أبو عودي التيناري، ويطلق عليه أحياناً لقب كبير الأطباء. وكان في السابق المسؤول عن تلقيم الوقود في أتون الحمّام، وبما أنه كان رجلاً فطناً، فقد بدأ يمارس الطب. وعندما يأتي إليه مريض يسأله:"ما اسمك؟" فيكون الجواب مثلاً "خليل". فيسأله واسم أبوك "قاسم"، واسم أمّك؟ "فاطمة". ثمّ يقوم بحساب عدد معين لكلّ اسم من هذه الأسماء، ويربطها بطريقة ما بالنجوم، ثم يجس نبض الرجل، وينظر إلى لسانه. وبعد

أن يقوم برحلة قصيرة في عالم الأبراج الفلكية، تأتي الوصفة المعصومة! وثمة طبيب فاضل آخر يعالج الأزواج من الغيرة، والزوجات من الأفكار الضالة. وبإعطاء السيدة قليلاً من ماء قرد، يصبح محبوبها قبيحاً، ويصير في نظرها قرداً ضخماً ذا ذيل قصير.

وبما أن أهل دمشق المسلمين يؤمنون بالقضاء والقدر، فهم لا يتخذون الحيطة والحذر للوقاية من الطاعون، - ورغم نشر بحث عن العدوى مؤخراً في استنبول، حظي بموافقة شيخ الإسلام، فإنهم ينظرون إليه بازدراء واستخفاف. ويتساءل الناس ما هي فائدة الطب؟ ويسود في دمشق رأيان - أحدهما أن الطب بحد ذاته لا ينطوي على فائدة، لكن الله يضع فيه صفات الشفاء عند استخدامه، فيما يقول الرأي الآخر، إن الله يرسل في بعض الحالات ملاكاً يجعل الدواء غير ذي فائدة ويفقد مفعوله. وهم لا يفصدون الدم في يوم الجمعة، ولا يزورون مريضاً، إذ إن ذلك يعتبر فألاً سيئاً: ولا يقوم طبيب بزيارة المريض يوم الأربعاء*.

عندما كنت في دمشق، كان أكثر الأطباء البارزين طبيبين، أحدهما مصري مسلم، والآخر مسيحي من طائفة الروم الكاثوليك يتمتع بمواهب طبيعية قوية. وكان قد درس بعناية الكتب التي تتناول الطبّ والعلوم

---

* لا تقل بعض الخرافات الأخرى سخافة عن تلك. فإذا كُنس بيت بعد الغروب، فهم يعتقدون أن ذلك يجلب الفقر إلى سكانه. وإذا حُملت جثّة شخص مات في الشارع ذاته واجتاز باب بيت دمشقي، يجب أن يُرش الرصيف في الجهة المقابلة بالملح والماء للحيلولة دون حدوث شيء سيئ. وعند دفن جثة شخص، يوضع القماش الأبيض الذي يغطّي الوجه جانباً: وإذا لم يتم ذلك، فإن الصخرة التي توضع على القبر ستتعرق، وستقتل كلّ نقطة تهطل منها واحداً من أقارب المتوفى.

الصادرة عن مطبعة محمد علي في بولاق، ولم يكن يتحدث أي لغة أوروبية، لكنه كان يفهم كلّ شيء يتصل بالحضارة الأوروبية بسهولة تثير الدهشة. وفي أحد الأيام أخذت أقرأ له من مجلة "Quarterly Review" مقالة تحتوي على نقد لكيمياء الحيوان بقلم لايبيغ، وحاولت أشرحها له بلغتي العربية الركيكة، لكنه راح يبحث دون مساعدة من أحد في ألغاز الطبيعة، وأثبت لي معظم الفرضيات الواردة في المقالة بقصص من تجربته الشخصية.

وقد حاول عدد من الأطباء الإفرنج إثبات أنفسهم في دمشق، لكنهم لم يفلحوا في ذلك. إذ يرى السكان المحليون أنهم لا يعرفون مناخ المدينة (هوا البلد) والأمراض المحليّة الشائعة جيداً. ويجب أن أذكر أن الشخص الذي ذكرته آنفاً، كان يحقق نجاحاً كبيراً في معالجة الحمى والزحار (الديزنطاريا)، واضطرابات عديدة أخرى. لكن نظراً لعدم معرفته بشيء عن التشريح، فقد ترك العمل الجراحي للحلاقين.

وينجم الزحار هذا عن تناول الفاكهة غير الناضجة وتعرّض الأقدام لبلاط الرخام. والتهاب الحنجرة شائع بسبب تعرض الأشخاص إلى لفحة من الهواء البارد وهم خارجون من الحمّام، وتنتشر جميع أنواع الروماتزم بسبب رطوبة المناخ. وفي مواسم الفواكه الكثيرة تنتشر الكثير من الحميات ومرض الملاريا. وتظهر التجربة أن الرعاف أكثر انتشاراً في دمشق من جميع المناطق في سورية.

ورغم أن الدمشقيين جاهلون بصورة عامة في التاريخ والجغرافية وما شابهها من العلوم، فهم تجار بارعون، وخبراء في الرياضيات، ومبدعون في الحرف اليدوية، رغم انقراض العديد من تلك الصناعات، فقد انتقلت

صناعة الأنصال (السيوف) الدمشقية المشهورة كما يعرف معظم قرّائي إلى بلاد فارس منذ قرون. وكانت قد توقفت صناعة الخزف الدمشقي التي قد يراها المسافر في السراي في استنبول، وفي مسجد السنانية في دمشق منذ ما يقرب من ستين عاماً. أما الفنون والصناعات التي لا تزال موجودة والتي تشتهر بها دمشق فهي: الرسوم المنزلية ذات التضاد المنسجم في الألوان، وحفر التخاريب السداسية الشكل، وأشكال النوازل في الرخام، والحفر، والأواني المطلية باللك الياباني، والزخرفة بالفسيفساء، وحياكة الأقمشة القطنية والحريرية اليدوية التي تستخدم في الملابس الداخلية، والتي لا تستطيع الأنوال التي تعمل بالطاقة أن تقلدها، وتمشيط الجلد الأصفر.

إن أغنى التجار هم الذين يشتغلون في تجارة بغداد. ويدعى أحدهم البغدادي الذي توفي منذ سنوات قليلة، وخلّف ثروة قدرها ٣٠٠,٠٠٠ ليرة. ولدى عدد قليل من التجار الحاليين عُشر ما يملكه ذلك التاجر. ويقال إن التاجر المسيحي الرئيسي حنا حنا حوري يمتلك ١٥,٠٠٠ ليرة، وبسبب ارتفاع سعر الفائدة في هذا البلد، فيمكنه أن يكسب ٢٠٠٠ ليرة في السنة من ذلك المبلغ.

ولكلّ تجارة وحرفة شيخ، يتمتع بسلطة على أعضائها: وحتى الشحاذين يوجد لديهم شيخ. ولو كانت هناك حكومة نظامية لكان بوسع هذه الصلاحيات التي يتمتع بها شيخ الصنف أو الحرفة أن تساعد الشرطة في عمليات بحثها، والاستفادة منها. ويفتي شيخ الصنف في الأمور المتعلقة بالحرفة. فإذا حرق أحد الصبّاغين مثلاً قطعة قماش في عهدته، يقوم حينها شيخ الصنف بتقييم الضرر. ويحصل على دخله من الرسوم التي يدفعها

العمال، الذين يرغبون في أن يصبحوا معلمين، ومن بيع السندات التجارية والعقود، وفض الشراكات وغيرها من أمور. ويحصل شيخ صيّاغ الذهب والفضة على اثنين ونصف في المائة من ثمن جميع المجوهرات والمعادن النفيسة التي تباع بالمزاد في الأسواق - نظراً لأنه يتحمل مسؤولية كونها أصلية.

ويحتل الدباغون وصانعو الجلود مكانة مرموقة. ويتقدمون في بعض المواكب على جميع التجار. ولا يسمح لمسيحي أن يدخل هذه الحرفة. وجميع صنّاع الصمغ في سورية هم دمشقيون: وتعتبر تشكيلة صنف حرفتهم مميزة، إذ تكاد تكون شركة مغلقة، لا يدخلها غريب أبداً. ويشترون المواد شراكة، ثم توزّع حسب عدد الأفراد في العائلة التي تقدم لها: وهكذا، فإن العازب يحصل على كمية محدودة من المواد. وتبلغ نسبة ربح صنّاع الصمغ عدة مئات في المائة.

الفصل السابع عشر

الحكومة - الباشا - الكيخيا - القاضي الدفتردار - الديوان - نتائج سوء الحكم

يعتبر الدمشقيون أنفسهم مسلمين وعرباً، ويرون أنهم الجنس الأكثر نبلاً في العالم، وأن حكومة السلطان تأتي في المقام الأول، لا لأنه ملك بلاد الروم، بل لأنه الخليفة، أو خليفة الرسول محمد. ومن بين ألقاب السلطان، سلطان السلاطين. وعندما كنت في دمشق كان ثمة اعتقاد بأنّ الملوك الأوروبيين يتلقون أوامرهم من السلطان. ويعتقد الدمشقيون أن ملكة إنكلترا هي إحدى أتباعه الأقوياء، وأنها أرغمت على تقديم المساعدة له لاستعادة سورية من قبضة محمد علي، خشية منها على عدم سحب تاج العرش منها. وعندما أهداها السلطان سيفاً بمناسبة ولادة أمير ويلز، قيل إنه فعل ذلك ليجعله وريثاً شرعياً للعرش. ولن أنسى ما حييت الدهشة التي بدت على وجه ذلك الرجل البدين، الذي يتعاقد للحصول على الجمال من أجل قافلة الحج، عندما قال له السيد وود إن الدمشقيين الأفاضل مخطئون في هذه المسألة. وفي تلك الفترة تقريباً، انتشر خبر في دمشق مفاده أن إمبراطور روسيا قد مات، وراح مروجو هذه الخبر يفسرون ذلك على النحو التالي: كان الإمبراطور قد طلب النفقات المستحقّة من أجل الحرب، فأجابه السلطان إنه لا يملك مالاً، بل توجد لديه كميات كبيرة من بارود

المدافع والطلقات. لكن الإمبراطور أصرّ على طلبه، واتخذ المجلس إجراءات معينة لا يعلمها سوى قلة من الناس: وبعد ذلك بفترة وجيزة وجد الإمبراطور ميتاً، وانتقل العرش إلى وريثه.

وكانت ولاية دمشق في السابق تضم القدس ونابلس وغزة وغيرها، أما الآن فقد ضمت هذه المناطق لتشكل ولاية منفصلة. ولا تزال جميع المناطق الواقعة إلى شرق الأردن تقع تحت سلطة ولاية دمشق. وإلى الغرب، تضم الولاية جميع المناطق الواقعة في سلسلة جبال لبنان الشرقية والبقاع والمنحدر الشرقي لجبل لبنان حتى المياه الفاصلة.

ووالي دمشق برتبة مشير أو باشا بثلاثة أطواغ*، وهو يأتي من حيث المرتبة مباشرة بعد ولاة المدن المقدسة ومصر والروملي وبغداد. ويبلغ دخله ١٠٠,٠٠٠ قرش في الشهر، أو بين عشرة آلاف وأحد عشر ألف ليرة في السنة. وقد بلغ دخل شريف باشا، الذي كان حاكماً مدنياً خلال فترة حكم المصريين ١٢,٠٠٠ ليرة في السنة، وتزيد الجعالات والعلاوات على ألفي ليرة في السنة.

وقد ألغي النظام القديم لجمع العائدات التي يحصل عليها الباشا، على النحو الذي وصفه فولني ورحالة آخرون قاموا بزيارة سورية.

ويأتي الكيخيا أو النائب بعد الباشا مباشرة من حيث المرتبة فيما يتعلق بشؤون الحكومة، أما بالنسبة للأمور المتعلقة بالقضاء والمالية، فإن للقاضي والمفتي والدفتردار السلطة العليا. ويشغل الكيخيا في الوقت نفسه منصب المتسلم، أو حاكم مدينة دمشق، وهو ترتيب أُدخل بعد رحيل المصريين. ويدير الكيخيا جميع أمور الحكومة الذي لا يرفع إلى

الباشا إلا الأمور الأكثر أهمية. وعادة ما يتفاوض نوّاب الكيخيا ويحصلون على رشاوي.

والتفنكجي باشي أو رئيس الفرسان، هو مدير الشرطة وسجّان المدينة. ويوضع السجناء المهمون في الثكنة تحت حراسة عقيد. ويوجد تحت إمرة التفنكجي باشي مائة فارس.

ويأتي الدفتردار على رأس الإدارة المالية، الذي يقوم بتحصيل الضرائب، ويشرف على عمليات الإنفاق، ويرفع رواتب الكتبة الحكوميين أو يخفضها على النحو الذي يراه مناسباً. وليس بمقدور الباشا أن يزيد عدد القوات غير النظامية دون موافقة الدفتردار - وهذا الأمر يحدث بلبلة وقلاقل في معظم الأحيان؛ ففي بلاد مثل سورية المعرّضة لغارات البدو، ليس للقوّات النظامية فائدة كما هو الحال في مدن الحاميات. وكانت إرادة الباشا تأتي في المقام الأول بموجب النظام القديم، أما الآن، فقد أصبحت إدارة المالية مطلقة بيد الدفتردار. وتسود عادة كراهية ومنافسة شديدتين بين هذين الشخصين.

عندما كانت تقدم الممتلكات الحكومية إلى الشخص الذي يتقدم بأعلى عرض في المزادات التي يجريها المصريون، كان يحصل على وثيقة تكفل استئجاره لتلك الممتلكات بذلك المبلغ لفترة محددة. وطالما سدد المستأجر الإيجار، التزم بشروط الإيجار: أما الآن، فإذا تبين أن شخصاً يكسب أكثر من مبلغ إيجاره، عندها يُلغى الإيجار، ويلغي الدفتردار الملكية ويمنحها إلى شخص يدفع مبلغاً أكبر. وتبلغ عائدات ولاية دمشق زهاء ٢٠٠,٠٠٠ ليرة في السنة، وهي تشمل دخل القدس وغيرها من الولايات المنفصلة عن دمشق سياسياً، لكن ليس مالياً.

يُوفد القاضي من قبل هيئة العلماء في استنبول لمدّة عام واحد، ولكن يسمح له أحياناً بالبقاء بضعة شهور أخرى. ويحصل على جزء من أربعين جزءا من جميع المبالغ المتنازع عليها يدفعها الشخص الذي كسب الدعوى، بالإضافة إلى الرسوم المفروضة على عقود الإيجار، والاتفاقيات، والوصايا. وإذا مات رجل وهو في حالة إفلاس، يأخذ القاضي بارة عن كلّ قرش ونسبة جزء من أربعين جزءا عن الممتلكات التي خلفّها، ويأخذ ذات الشيء من كلّ دائن عند تحصيل الأرباح. ويعتبر دخل القاضي الرسمي ضئيلاً، لكن دخله الفعلي يصل إلى حوالي أربعة آلاف في السنة. ويحق للقاضي أن يسجن النساء، في حين لا يمكن للباشا أن يفعل ذلك. كما لا يمكن للباشا أن يطلق سراح شخص أمر القاضي بسجنه. ومعظم القضاة ليسوا شديدي التدين: وثمة حديث نبوي يقول: "قاضي يذهب إلى الجنة وقاضيان إلى النار".

يطلع المجلس على ما يجري من انتهاكات عامة وخاصة، بالإضافة إلى جميع المسائل التي لا تقع في نطاق القانون. لكن بما أن المجلس يقع تحت سيطرة الباشا والدفتردار سيطرة تامة، فلا يمكنه أن يبحث في أي مسألة إلا إذا وافق عليها الباشا والدفتردار. وبما أنهما يستطيعان تجاهل القرار الذي يتخذه، فلا أهمية كبيرة للمجلس. أما المجلس المصري فكان مستقلاً أكثر بكثير من المجلس في زمن شريف باشا، الذي كان يراقب تصرفاته.

هذه هي نظرية الحكومة. بيد أن الممارسة متراخية وفاسدة إلى حد لا يصدّق بالنسبة لشخص أوروبي. إذ إن المعاملات الإدارية بسيطة ومنتظمة، والعدالة فورية ورخيصة، والشرور التي لا تحصى لنظام بيروقراطي معقّد غير معروفة، إلا أنك لا تجد رجلاً شريفاً في منصبه.

مضى الآن ستون عاماً على كتاب فولني الرائع المثير للإعجاب "الوضع السياسي في سورية". وقد طرأ تغيير كبير على تفاصيل الإدارة منذ ذلك الوقت، لكن الروح القديمة لا تزال سائدة.

((بوسع الباشا أن يهنئ نفسه لأنه تمكن من فهم شراهة أعوانه وجشعهم. ولكن ما هي المحصلة في نهاية الأمر؟ فالشعب المنهك مقيد في نشاطاته إلى الحدود الدنيا من أجل توفير مقومات الحياة الرئيسية. فالفلاح يزرع ويحصد ليجني الكفاف، والعامل الحرفي يعمل لتأمين الغذاء لأسرته. وإذا زاد شيء عن حاجته فهو يحرص على إخفاءه. وهكذا فإن سلطة السلطان الجائرة والتعسفية، التي يمنحها إلى الباشا وجميع معاونيه، الأمر الذي يسمح لهم بإرضاء جميع شهواتهم، أصبحت أداة الاستبداد المنتشر بين جميع الطبقات، الذي تتجلى آثاره في الحد من الأعمال الزراعية والحرفية والتجارية. وبعبارة أخرى، أي كل ما يمثل مصدر قوة للدولة، وهي في هذه الحالة السلطة المتمثلة في السلطان)).

من هنا يأتي التدهور التدريجي للسلطنة العثمانية. إذ لا يوجد دستور، وإلى أي درجة يمكن الوقوف في وجه مثل هذه التجاوزات المفرطة المألوفة، مثل هذا الاستنزاف المنظّم. فقد انخفض عدد سكان البلد، وتم ابتزاز القرى واضطر القرويون إلى الهجرة إلى المدن، وتم ابتزاز مدينة دمشق وغيرها من المدن. ومن هنا ترى المساحات الشاسعة غير المزروعة التي تقع عليها عين كل رحاّلة في كلّ جزء من سورية.



الفصل الثامن عشر

ضواحي دمشق - وفرة المياه

بردى وروافده - البساتين - النباتات - المناخ

تدين حلب بأصولها إلى قلعتها، أما دمشق، فمن الواضح أنها تدين بوجودها إلى أرضها الخصبة وجداولها الوفيرة التي تنبع من سلسلة جبال لبنان الشرقية، والتي تلبي احتياجات عدد كبير من السكان. ولا تزيد سقاية البساتين المنتشرة حول المدينة روعة عن نظام القنوات الجوفية الهائل داخل المدينة نفسها، الذي لا بد أنه يعود إلى فترة سحيقة من الزمن.

إن فروع نهري فرفر وإبانا السبعة التي تروي مدينة دمشق وضواحيها هي: بردى وقنوات وتورا وبانياس ويزيد وعقربا والديراني. وتلتقي جميعها في جنوب المدينة، ثم تعاود سيرها باسم بردى حيث يصب في بحيرة المرج التي تبعد مسافة خمس ساعات من دمشق. وفي الخريف، وبعد أن تكون الأرض قد جفّت بسبب موجة الحرارة الطويلة في الصيف، وقبل أن تبدأ الأمطار بالهطول، تتلاشى البحيرة. ولا يرى المسافر شيئاً سوى مروج على مد البصر. وكانت الملاحظة الأولى التي لاحظتها عن عمق المرج عندما غاص حصاني حتى ركبتيه في المستنقع المغطى بالأعشاب الخضراء: أما بعد أن تهطل الأمطار فتعود البحيرة لتصبح كبيرة وواسعة.

وبخلاف نهر قويق في حلب، فإن بردى وفروعه نادراً ما تفيض. فبعد أن تهطل أكثر الأمطار غزارة، يرتفع منسوب النهر قدمين أو قدمين ونصف

القدم. وإذا كان لون المياه أثناء الفيضان أبيض، فهذا يدل على أن المطر يهطل في الحوارية وهي ضاحية قريبة جداً من دمشق، أما إذا كانت حمراء اللون، فهذا يعني أن الأمطار تهطل فوق سلسلة جبال لبنان الشرقية المرتفعة.

يدخل قنوات، فرع نهر بردى، المدينة من قناة قديمة رائعة تتكون من ٣٦٠ قوساً. أما الشيء الاستثنائي في إمداد دمشق بالماء فهو أن نهر بانياس يلتف، بدلاً من أن يواصل جريانه إلى الأمام، ويجري في قناة تحت الأرض عبر المدينة، تحت فرع قنوات ليمد حي الشاغور بالمياه. ويقول سكان المدينة إن دمشق قد أُنشئت منذ عصور قديمة، بأمر من ملك يدعى دامشقا، ووردت تقارير رائعة عن جمالها ووفرة الخضرة والمياه والأشجار المثمرة فيها.

وبعد أن بلغه عن طريق جواسيسه أن الوزير، الذي عهد إليه بمبلغ لتشييد مباني المدينة، قد اختلس هذه الأموال، لأنهم لم يشاهدوا بيوتاً مشيدة، فذهب الملك نفسه ليتبين حقيقة الأمر. وعندما لم ير دلائل على وجود بيوت، استشاط غضباً وقال: "أين المدينة التي ستسمى باسمي". لكن عندما أراه الوزير القنوات الرائعة الممتدة تحت الأرض، قال" رائع.. أيها الوزير، لقد أنفقت مالي في أغراض جيدة".

وتصب في فرع عقربة معظم مجاري المدينة، لذلك فهم يرددون هذه القصيدة الركيكة والمضحكة، والخالية من الأدب:

عقربة لا تقربا

واحد يخرا فيها

والتاني يشربا

ولا تعزى برودة البيوت في الصيف إلى وفرة المياه فقط، بل كذلك إلى وفرة الجنائن والخضرة الخلابة في الضواحي. ومعظم الأشجار المثمرة في دمشق هي أشجار مشمش وجوز. والمشمش الذي لا يتناولونه طازجاً، يحفظونه بطريقتين، فإما أن تنزع النواة منه، وتمدد حبة المشمش وتبسط، لتشكّل معجوناً حلواً رقيقاً، يدعى "قمر الدين المشمش" ويؤكل فقط في دمشق: وإذا حفظ كالتين، فيطلقون عليه اسم "النقوع" ويرسلونه إلى مصر واستنبول. أما الفواكه الأخرى فهي التفاح والأجاص والخوخ والكرز والدراق والبطيخ الأصفر والبطيخ الأحمر والتين والعنب واللوز والتوت والعليق والبرتقال والليمون والفستق الحلبي. وتزرع جميع أنواع الذرة والحبوب، أما التبغ فيزرع بكميات قليلة.

أما الأشجار اليابسة في برية دمشق فهي تكفي لتزويد المدينة بالحطب: أما الأفران فتستخدم القصب في وقودها، ويستخدم الروث في وقود الحمّامات، الذي يعطي حرارة حمراء باهتة، لكنها دائمة.

وفي الصيف، يخرج السكان للتنزه في الضواحي، ويبقون هناك عدة أيام، فينزلون في الضحى إلى بيوتهم ثم يعودون إلى البساتين بعد الظهر. والدمشقيون الأغنياء ليسوا مولعين بالصيد مثل أمراء لبنان وسلسلة جبال لبنان الشرقية. ولا توجد صقور بالقرب من دمشق، ولا يوجد صيد كثير باستثناء الحجل: إذ لا تؤكل الأرانب البرية والغزلان. ويصاد الخنزير البرّي في الشتاء، ويتناوله المسيحيون. ولا توجد حيوانات برّية في برية دمشق باستثناء الذئب، والقط البرّي، والسنور. وفي سلسلة جبال لبنان الشرقية يوجد الكثير من النمور، بعضها كبير الحجم، وهي شرسة جداً، بحيث يبلغ عن وجود ضحايا من حين لآخر.

وثمة احتمال كبير بأن المنطقة الواقعة إلى شمال المدينة كانت مأهولة بعدد كبير من السكان. فعندما كان المصريون يبحثون في القلعة عن سجلات قديمة حول ضرائب البيوت، عثروا على وثيقة تعود إلى عهد السلطان سليم، أي أكثر من ثلاثة قرون، تكشف عن وجود ١٢٠٠ بيت في حي لا يبعد كثيراً عن باب توما، تملأه الآن البساتين. وقد عثر فيه على بوابة سرايا رخامية رائعة منذ بضع سنوات.

يمكن اعتبار مناخ دمشق معتدلاً، وذلك لأنه ينمو فيها نخيل الجنوب وجوز الشمال معاً. ولا يمر شتاء دون أن تتشكل أحياناً طبقة من الجليد عل سطح برك الماء. وفي بعض فصول الشتاء يبقى الثلج يكسو الأرض لأيام عديدة. والربيع يدخل البهجة إلى النفوس إلى حد يفوق الوصف. فعندما وصلت إلى دمشق لأول مرة، لم تكن البراعم قد ظهرت على الأشجار. وقد انتابني شعور بالخيبة، لأن خيالي لم يتمكن من ملء الفراغات في المشهد الطبيعي: لكنه ما أن تقدم الربيع قليلاً، حتى اكتست البساتين والحدائق بالخضرة. ويعجز لساني عن وصف جمال المناطق المحيطة بدمشق في الربيع. أما في الصيف، فتكون درجة الحرارة خلال النهار عادة ثلاثين درجة من درجات Reaumurفي الظلّ، وخمسة وعشرين درجة داخل الشقق ذات الجدران الحجرية والنوافير. ويعاني الدمشقيون قليلاً من رياح الصحراء الحارة، وذلك لأنك تجتاز الكثير من الأميال من النباتات الكثيفة قبل أن تدخل المدينة: ومن الناحية الأخرى، تعمل الصخور الحوارية بالقرب من المدينة على رفع درجة الحرارة. وفي آب وأيلول، وخلال النصف الأول من تشرين الأول، تنتشر أبخرة سامة تفسد الهواء وتعمل على نشر الحمّى إلى درجة كبيرة.

الفصل التاسع عشر

رحلة إلى الساحل - الإسكندرونة - مناخ سيئ موستيك بك - بيلان - إنطاكية - الفرات

من دمشق توجهت إلى بيروت. ولكي أوفّر على نفسي رحلة برية مضجرة وشاقة إلى حلب، استقللت في ٤ شباط ١٨٤٣ المركب الشراعي التجاري الإنكليزي بالمر إلينور، المتجه إلى الإسكندرونة. وتكاد جميع السفن البريطانية التي تتردّد على الساحل السوري تفرغ جزءاً من حمولتها في بيروت، وتفرغ باقي حمولتها في الإسكندرونة دون أن تتوقّف في أيّ ميناء بين هذين الميناءين، وذلك لأن البضائع التي تحملها تلك السفن بضائع إنكليزية، وتكاد تكون كلها مرسلة إلى البيوت التجارية في كل من بيروت وحلب، التي تعتبر الإسكندرونة ميناءها الرئيسي، ثم تحمل بضائع من جديد وهي في طريق عودتها إلى إزمير أو الإسكندرية. أما السفن الفرنسية، فهي تتوقف في طرابلس واللاذقية لتنقل الحرير والزيت ومنتجات محلية أخرى.

وفي اليوم التالي، وجدنا أنفسنا قبالة اللاذقية تقريباً، بعد أن اجتزنا في الليل مسافة تسعين ميلاً. وتراءت لنا من بعيد قمة الجبل الأقرع (كاسيوس) المغطاة بقدر قليل من الثلج، وبدا لنا إلى الشمال رأس الخنزير. وقد أطلق عليه هذا الاسم لأن النتوء الصخري يشبه رأس الخنزير. ويطلق عليه البحارة الإنكليز الذين يبحرون في البحر الأبيض المتوسط "خطم

الخنزير". ورغم أن الجبل يرتفع بشكل حاد من المياه، يضطر الملاحون إلى الابتعاد عنه إلى مسافة كبيرة، وذلك بسبب بعض الصخور المنعزلة الحادّة، التي تدعى أنياب، والمياه الضحلة التي تمتد إلى مسافة عدّة أميال بعد رأس الخنزير. وقد اضطرنا ذلك إلى اتخاذ سبيل متعرج. وبدا لنا ساحل قرامانيا بوضوح إلى جهة اليسار.

وفي ٧ شباط، وجدنا أنفسنا في وسط خليج الإسكندرونة. وتراءت لنا الإسكندرونة في البعد، وقد انعكست بيوتها وأشجار النخيل فيها في البحر. وكانت الخلفية تشكل سهلاً مثلثاً أخضر، يصعد بشيء من الانحدار إلى قاعدة جبال وعرة ومرتفعة. وفي الاتجاه المقابل، شاهدنا عن كثب ساحل قرامانيا: وارتفع سهل أضنه من الأفق، وأظهرت سلسلة جبال طوروس الغربية خطاً طويلاً من القمم الثلجية.

نزلنا إلى اليابسة في منتصف النهار، واستقبلنا نائب القنصل الفاضل والوجيه الكولونيل نيل استقبالاً حاراً. وكان منشغلاً في إعداد منزل السيد هايز، وهو أفضل منزل في هذه البقعة، الذي أحرقه المصريون لدى جلائهم من البلد.

ومن المؤسف أنه لا توجد في سورية، التي تحتلّ موقعاً نبيلاً جداً في الطرف الشرقي من قناة البحر الأبيض المتوسط، إذا جاز لي القول، موانئ آمنة وواسعة. أما جارتها الشمالية، آسيا الصغرى، فهي صخرية وجبلية مثلها، وفيها مرافئ مغلقة، في حين أن مصر، جارتها الجنوبية المنبسطة في الداخل، وذات الساحل الضحل، فلديها على الأقل في الإسكندرية، أحد أجود الموانئ في الشرق.

وباستثناء المرفأ الواقع بالقرب من طرطوس خلف جزيرة أرواد، الذي قد يتسع لأربع أو خمس سفن، فلا توجد استراحة للبحارة على طول الساحل السوري كله بدءاً من العريش وحتى هذا المكان، الذي يعتبر الطرف الشمالي الأقصى. ورغم الامتيازات التي يتسم بها خليج الإسكندرونة، فهو الميناء الكبير الوحيد في البلاد، ويتصل جغرافياً بشبه جزيرة آسيا الصغرى. ولسوء الحظ، فإن الإسكندرونة ليست ميناء حلب وحدها، بل ميناء شمال سورية، وجزء كبير من كردستان وبلاد ما بين النهرين. ويتوقع المرء أن يشاهد قليلاً من الحركة في مكان ترسي فيه خمس وعشرون سفينة بريطانية في السنة. لكن لا شيء يمكن أن يكون مقفراً أو مدمّراً أكثر من هذا المكان. فالمناخ يشلّ حركة كلّ شيء. وكان القنصل البريطاني قد تعرض إلى حوالي خمسين إصابة بالحمّى قبل أن يتأقلم مع هذا المكان، ولدى باقي السكان طبيعة كئيبة، كالأشباح التي تنسل حول الحانات على الطريق في المستنقعات الجسرية بين فيليتري وتيراسينا.

قمت بزيارة شواهد القبور الرخام المنحوتة بإتقان للمتوفين الذين كانوا يعملون في الشركات التجارية والقناصل الإنكليز، وهي تبدو جديدة وبيضاء كما كانت منذ قرنين: ويضم أحد هذه القبور رفات السير توماس باي من ريف فارينغتون، الذي توفي في سنة ١٦٦٠. وأقام أحد وكلاء القناصل الحاليين أجمل شاهدة على قبر زوجته التي توفيت مؤخرا حفر عليها ميزات تاجر مسكين توفى في عهد تشارلز الثاني.

ثمّ توجهنا إلى مقر الوكالة التجارية البريطانية، الذي كان مبنى كبيراً ومتيناً في عهد ازدهار التجارة بين حلب والهند. وتقع المقبرة التي ذكرتها

حالياً بأيدي اليونانيين، وأصبحت المدافن الرطبة وباحة الوكالة التجارية (التي أصبحت أملاك ميري) محجراً صحياً. ومن المؤسف أنه لم يستأنف العمل في هذا المبنى، ولم يعاد بناؤه بشكل لائق، إذ يتكبدون خسارات كبيرة سنوياً نتيجة الضرر الذي يلحق بالسلع لوضع المخازن المزري التي يرشح منها الماء.

إن اختيار الإسكندرونة كمكان لأداء الحجر الصحي للأشخاص المتوجهين من سورية إلى آسيا الوسطى أمر جدير بالملاحظة. فالمكان الطبيعي لهذا المحجر الصحي العديم الفائدة، هو كولك بوغاز - أو دهليز الأذن، المضيق الجبلي المشهور في جبال طوروس الذي بذل محمد علي جهوداً مضنية لتحصينه. فبالإضافة إلى أن موقعه مرتفع وصحي، فإن الهرب منه من ضرب المستحيل. غير أن باشا قونية لم يسمح بأن يكون المحجر الصحي على حدود ولايته، لأن ذلك سيفصله عن ميناء طرسوس. ثم نقل إلى أضنه، لكن حاكم هذه الولاية لم يكن راغباً في ذلك أيضاً، لأنه يؤثر على عمليات المضاربة على القطن في ولايته، لذلك وقع الاختيار في نهاية الأمر على الإسكندرونة، التي لا بد لأي إنسان مهما بلغ من قوة البنية حين يصل إليها بين أيار وتشرين الأول أن يصاب بالحمّى. وتعزى ظاهرة انحسار مياه البحر الملحوظة في هذا المكان إلى شدة الرياح الشمالية الغربية، التي تدفع كتلاً من الخشب إلى الشاطئ، التي تطفو على أنهار كرامانيا، ثم تندفع إلى خليج الإسكندرونة. ويقال إن اليابسة تزحف إلى البحر نتيجة لذلك مسافة اثنتي عشرة أو خمس عشرة بوصة سنوياً.

أما من الناحية السياسية فليس هناك، كما هو متوقع، الكثير الذي يمكن ملاحظته في الإسكندرونة: فهي تخضع لسلطة متسلم بيلان. ويشتكي

السكان القليلون من الضرائب التي تفرض عليهم بشكل تعسفي واعتباطي والتي تدعى سليان، مما أدى إلى هجرة سكان عدّة قرى في المنطقة. فقد هجرت أربعون عائلة قرية خاراجاد بسبب السليان، وهاجرت إلى منطقة باياس التي يحكمها باستقلال تام عن الباب العالي رجل تركي شديد يدعى موستيك بك. وهو أحد الأغوات البربر، أو يمكن القول إنه محمد علي صغير، الذي يظهر باستمرار في الولايات التركية. وهو يسيطر على منطقة جبلية متمردة صغيرة بالقرب من رأس خليج الإسكندرونة، يبلغ عدد سكانها قرابة عشرين ألف نسمة. وقد أطلقت يده في المنطقة ما دام يقوم بحماية طريق أضنه من اللصوص. وعندما نشب نزاع بينه وبين باشا أضنة، كان ينسحب إلى الجبال، ويسمح لأتباعه بأن يفعلوا ما يشاءون: فيقطع الطريق، وسرعان ما يتم التوصل إلى تسوية مع الباشا.

وبشهادة كل من الأتراك والعرب، فهو رجل في غاية الذكاء، ورغم أن المنطقة التي يحكمها صغيرة، فهي أحد أكثر المناطق أماناً وأفضل حكماً في هذا الجزء من تركيا.

امتطينا خيولنا الآن وبدأنا نشق طريقنا باتجاه إنطاكية. وبعد أن اجتزنا المستنقعات، بدأ الطريق يصعد بنا بشكل مفاجئ، وتهنا في جبال بيلان المكسوة بأحراش كثيفة وجميلة. وكان الطريق الذي سرنا فيه جيداً، وهو الطريق الذي شقه إبراهيم باشا لنقل المدفعية والذخيرة من إنطاكية إلى أضنه. وما يعيب المشهد الطبيعي افتقار الجبل إلى وجود غابات فيه: لكن بما أن مناخ بيلان يشبه مناخ آسيا الصغرى، فقد ظننا أنفسنا في شمال لبنان بسبب اختلاف النباتات. وتمتاز بيلان التي وصلنا إليها عند الغروب بحالة من الرومانسية شبيهة بسويسرا، فهي تتربع على بقعة مرتفعة في وسط

الصخور، ويشقها وادي، وهي منحدرة بحيث تتدفق المياه بسرعة في شكل شلال: وكان الهواء عند غروب الشمس في شهر شباط، كما كان متوقعاً، شديد البرودة. ولكن يقال إنها رائعة بالمقارنة مع حرارة وحمّى الإسكندرونة في الصيف. وقد وضع الكولونيل نيل مشكوراً بيته الريفي تحت تصرفنا، إلا أن وكيل الشركات الإنكليزية الأرمني في حلب، أصرّ على أن نقيم في منزله. حيث وجدنا ناراً موقدة، ولم تكد تمضي ساعة حتى أعد لنا طباخ السيد ر. عشاء رائعاً.

وفي ٩ شباط، استيقظنا قبل بزوغ الفجر وواصلنا صعودنا. وعندما وصلنا إلى حافة جبال بيلان، رأينا تحت أقدامنا بحيرة إنطاكية، وشاهدنا على مسافة بعيدة نهر العاصي وهو يشق طريقه الملتوي باتجاه البحر. ويمرّ الطريق المباشر من الإسكندرونة إلى حلب عبر سهول التركمان، مخلفاً إنطاكية وبحيرتها بعيداً إلى الجنوب أو اليمين؛ لكن يستحيل المرور منه في فصل الشتاء، لأن الخيول تخوض في المياه حتى ركبها، وتبلغ البحيرة ضعف منسوبها في الصيف، بسبب انخفاض الأرض المجاورة. وأخذنا نسير في الطريق الجنوبي، مخلفين البحيرة إلى الشمال أو إلى جهة اليسار، لرغبتي في رؤية إنطاكية، وكذلك بسبب الضرورة. وكان السير في هذا الطريق في غاية الصعوبة بسبب الأمطار التي كانت قد هطلت. ولم نصل إلى إنطاكية حتى الساعة الثالثة، حيث نزلنا في بيت الوكيل البريطاني السيد جورج وولف.

وقد ذكر أكثر من كاتب أن المناطق التي تلتقي فيها الجبال بالسهول هي من أروع المناطق في جميع البلاد. ولا يمكن لأحد يشاهد إنطاكية إلا أن يشعر بأن تلاقي أجمل مزايا الجبل مع روعة المشهد السهلي فيها يجعلها تتقدم على جميع المدن السورية الأخرى المعروفة من حيث جمالها. إن وصف غيبون

الرائع لهذا الجزء من آسيا لم يوف إنطاكية حقها، إذ إن تربتها تلائم زراعة الذرة والمراعي: وفصل الشتاء معتدل بسبب قربها من البحر. وتبدأ الجبال فيها منفصلة لتشكّل بوابة واسعة، ويصبّ نهر العاصي في البحر الأبيض المتوسط، ويعيد النسمات الغربية التي تساعد في تلطيف حرارة الصيف الشديدة.

يوجد ١٢٠٠ مسيحي من بين عدد سكان إنطاكية البالغ عددهم ١٠,٠٠٠ نسمة. ورغم أن هذه البلدة هي بالاسم عاصمة الروم الأرثوذكس، فإنه لا يُسمح ببناء كنيسة في البلدة. لذلك يتوجهون للعبادة في كنيسة صغيرة تبعد عدة أميال عن الجبال في الصيف. أما في الشتاء، فيقيمون الصلاة في البيوت الخاصة.

أما الثكنات المصرية الجديدة البناء، التي يمكن أن تضم كتيبتين أو ٨٠٠٠ رجل فهي فارغة، إذ لا يتعدى عدد جنود النظام في إنطاكية اثني عشر جندياً، حيث تقوم ميليشيا محلية بخدمة المنطقة. ويحظى التركمان إلى الشمال باستقلالية، أما النصيريون والأرمن والمزارعون في المناطق المجاورة مباشرة لإنطاكية، فهم من بين أكثر الناس نشاطاً ووداعة في سورية. وبالإضافة إلى زراعة المحاصيل، فإن تربية دودة القز واصطياد سمك الأنقليس هما النشاط الأساسي في المنطقة. ولا يوازي حرير إنطاكية حرير لبنان من حيث الجودة، إلا أن رخص اليد العاملة الشديد يجعل إنطاكية مكاناً مفضلاً أكثر من بيروت لإدخال آلات الغزل الأوروبية القصيرة البكرة. وسمك أنقليس إنطاكية مشهور في كل أرجاء سورية لامتلائه بالدهن ولطيب نكهته. وتتراوح الكمية المصادرة من هذا السمك بين مائة

وعشرين ألفاً إلى مائة وخمسين ألفاً في السنة؛ وهي تصدّر مملّحة لاستهلاكها خلال فترة صوم المسيحيين الذي يدوم طويلاً في سورية.

ولا يزال ذلك الجزء من البحر الذي يلتقي بمياه نهر العاصي يدعى طريق إنطاكية. والرأي منقسم فيها إذا كانت السويدية أو الإسكندرونة هي الميناء الأفضل، إذا أعيدت الملاحة البخارية إلى بلاد ما بين النهرين كجزء من تجارة الترانزيت الهندية الأوروبية. علماً بأن الإسكندرونة تبعد مسافة عشر ساعات عن إنطاكية، فيما لا تبعد السويدية سوى ست ساعات. ويجب عبور جبال بيلان من خلال الطريق السابق، أما الطريق الأخير الذي يمر عبر الإسكندرونة فهو غير صحّي. وتتمتع السويدية بمناخ صحي جداً. ومن الناحية الأخرى، فإن ميناء الإسكندرونة جاهز للاستخدام في الحال، أما في السويدية فيجب إنفاق مصاريف كبيرة لتنظيف الميناء القديم، وتحويل قناة السيول الجبلية، الممتلئة بالحصى والتربة: وحتى عندما يتم ذلك، فلن يكون بمقدورها أن تستقبل سفناً تزيد زنتها على ٢٥٠ طناً، إلا إذا تم بناء مصدٍ للأمواج يكلف نفقات باهظة. ولعل الخطة الأفضل تتمثل في تجفيف مستنقع الإسكندرونة، واتخاذ الطريق العسكري الذي شقه إبراهيم باشا عبر جبال بيلان، قاعدة للمواصلات، ومع أنه ليس عريضاً جداً، فإنه ولأميال عديدة طريق جيد بقدر جودة الطريق الإنكليزي المرصوف.

الفصل العشرون

جسر الحديد - الوصول إلى حلب
الانطباعات الأولى- الجديدة - الزلزال
المجتمع المسيحي - الدير الأرمني

وصلنا إلى حلب بعد يومين ونصف من انطلاقنا من إنطاكية. ولم يكن الشطر الأول من رحلتنا ممتعاً بأي شكل من الأشكال. فلساعات عديدة راحت الخيول التي نمتطيها تخوض في المياه التي غمرتها حتى ركبها وبطونها، وذلك لأن منسوب نهر العاصي لم يرتفع الأقدام العشرة عن منسوبه المعتاد ويغمر الضفة فقط، بل غمر المناطق الريفية المحيطة به لمسافة أميال عديدة: وكنت ترى هنا وهناك خنزيراً برياً يخوض في المياه على نحو أخرق وسط عيدان القصب الطويلة. وعند جسر الحديد، وهو جسر حجري كبير يفصل إنطاكية عن ولاية حلب، فاضت المياه وغمرت الجسر حتى كادت خيولنا تصل إلى اليابسة سباحة. وعلى طول الطريق، شاهدنا آثار مدن رومانية وقرى وطرقاً معبدة، وهي في حالة أفضل بكثير من حالة المدن التي يشاهدها المرء في الأقاليم الإيطالية التي يعطي بعضها فكرة حقيقية عن الهندسة المعمارية المحلية للقدماء مثل شوارع بومبي التي تم الكشف عنها -تلك المدن الموميائية.

وبعض هذه المدن في حالة يرثى لها، وهي تظهر أن نعم الحضارة مكّنت سكان تلك المدن من العيش في المناطق القاحلة بعد أن اختلت موازين

الطبيعة وزالت منها الأراضي الخصبة. وتجد مدناً أخرى في الأماكن التي وهبها الله طبيعة خصبة ووافرة، وكان من الواضح أنها جذبت إليها أعداداً غفيرة من السكان، وتقدم لنا الآن هذه الكتل من الخرائب. ولا تزال إحدى تلك البقع ماثلة في ذاكرتي - سهل خصب صغير، تنتصب في وسطه ربوة، كان موقعاً لإحدى المدن، وفيه جدول ماء رقراق يتدفق من بحيرة زرقاء داكنة، تتشكّل من الينابيع المنسابة من سطح صخرة تتدلّى وتكاد تحيط بها، وتغمر قاعدة هذه الربوة وتتدفق شفافة رقراقة بين أحجار ضخمة لجسر روماني متداع، وتشق طريقها بشكل متعرج نحو نهر العاصي الموحل.

كانت الساعات الستّ الأخيرة من الطريق طويلة ومرهقة. وفي كلّ مرة كنا نجتاز فيها هضبة، كانت عيناي تحدقان بعيداً لعلهما تشاهدان في الأفق قمة مئذنة طويلة تؤذن بانتهاء الرحلة. وفيما كنا نواصل تقدمنا أخذ يبرز تدريجياً من وراء التلّ برج مربّع الشكل. لا يمكن أن تكون هذه هي حلب، بل كنيسة تعود إلى عهد الصليبيين أو الإغريق. هيا، ونحث خيولنا على التقدم فتسير خبباً: ويبرز برج من وراء سور ذي فتحات، ويطل السور من وراء تلّ، ويرتفع التلّ وعليه بحر من البيوت والقباب والمآذن. لقد وصلنا أخيراً إلى حلب الشهباء، التي وجدنا أن من أطلق عليها هذا الاسم قد أصاب في ذلك، وذلك لأن اليوم الغائم جعل اللون الرمادي أقرب إلى لونها أكثر من أي لون آخر.

وخلال جولاتي الأولى في أي مدينة شرقية كبيرة، كنت أشعر كما لو أنني كنت أدخل عالماً مختلفاً. إلا أني لم أكد أعبر بعض الشوارع في مدينة حلب، حتى أدركت أنني في المدينة ذات الأبنية الأكثر قوة وصلابة في

سورية كلها. وهنا تجد عاصمة عربية تتجلى فيها المباني الرائعة والمتينة والجيدة الزخرفة. ومن الأشياء التي تمنح عين الهاوي مشهداً طبيعياً رائعاً، عندما ترى الجمال والبغال المحمّلة وهي تملأ باحات الخانات المربعة الأضلاع وذات التهوية الجيدة من خلال الفسق عبر الممرات الطويلة والمقوسة. وبعد فترة توقّفنا عند بوّابة عربية مرتفعة، ونزلنا في بيت صديقي الفاضل ورفيق دربي، السيد ر. الذي يجمع بين نزاهة التاجر البريطاني ودماثة الطبيعة البشرية.

وبما أنني لم أكن قد حلقت لحيتي، فقد كنت أنوي أن أعيش في وسط المدينة، وارتديت ثياب أفندي. ومن أحاديث الناس المطلعين، تشكّل لديّ الرأي بأن المسلمين في حلب، بخلاف المسلمين في دمشق، معتادون منذ زمن بعيد على الفرنجة، وأن اللباس الأوروبي لن يشكل عائقاً في علاقتي بهم. كما علمت أن بعض الأعيان يبدون الكثير من التهذيب تجاه الغرباء الذين يرتدون ثيابهم أكثر مما يبدونه للذين يرتدون الزيّ المحلي. وهكذا فقد أقمت في حي الجديدة، وهو حي يقع شمال المدينة، وتقطنه في الغالب العائلات المسيحية العربية الهامة، مما جعلني أتنقل بحرية وسهولة لأطلع على أحوال المسلمين والأوروبيين على النحو الذي كنت أراه ملائماً. والبيوت في هذا الحي أصغر حجماً، لكنها أفضل من البيوت في المدينة أو في وسط المدينة. وهو يبعد مسيرة عشر دقائق سيراً على الأقدام من حي الكتّاب الذي يقطنه الأوربيون. فقد كان جميع الأوروبيين، يقطنون بيوتاً في وسط المدينة قبل الزلزال، لكن عندما ضرب هذا الزلزال المخيف حلب، هربوا إلى البساتين في الضواحي وشيدوا بيوتاً خشبية مؤقتة فيها، تم إصلاح

بعضها فيما بعد، وجدد بعضها الآخر وبنيت من الحجارة، وهكذا أصبحت الكتّاب حي الفرنجة. ويظهر هذا المكان في مخطط م. فنسينت جيرمين عن حلب، الذي قام بتحريره م. روسو، باسم بستان الكتّاب. وقد سُميّ هكذا، لأن والي حلب السابق كان يملك بيتاً وبستاناً في هذا المكان، وكان مولعاً بالأدب فأنشأ مكتبة، وكان يتردد كثيراً على هذا المكان ليقرأ الأدب دون إزعاج. وقد أصبح بيته هذا منزل السيد باركر، المعروف في الشرق قنصل صاحبة الجلالة في حلب، ثم حل محل السيد سولت، كقنصل عام في مصر.

تعتبر الجديدة أفضل حي من حيث البناء في حلب، وطرقاته معبدة مثل المدن الأوروبية - وهو أمر نادر في الشرق -. وأقمت في بيت م. س. شقيق ترجمان السيد Werry، وهو شاب محترم وفاضل، ويعد من أكثر مسيحيي حلب اتقاناً للغتين العربية والتركية. لذلك بدأت معرفتي بالمجتمع الحلبي في بيوت أصدقائه وأقربائه، وهم أكثر المسيحيين ثراء هنا.

يتم دخول البيت من حارة ضيقة، لا تتسع إلا لدابة واحدة. والبيت من الداخل رباعي الأضلاع، توجد فيه نافورة، لا تتدفّق دائماً كما هو الحال في دمشق، لكنها تُملئ مرة واحدة في اليوم وتُفرغ في الليل: ولا تجد إلا قدراً قليلاً من الرخام، لكن الباحة مرصوفة جيداً، والحيطان مبنية بأحجار مصقولة شديدة النعومة، وأطراف النوافذ مزخرفة ومنحوتة بشكل رائع. ولما كنا في الشتاء، ومناخ حلب قارس وبارد، فإن اللوح الزجاجي في القبة في الطرف العلوي من الباحة يساعد في التقليل من حدة البرد، وهي تشكّل غرفة الطعام. وفي القاعة، أو الغرفة الرئيسية في الطابق الأول، توجد أريكة عليها وسائد من المخمل. أما غرفة الجلوس فكانت في الطابق الأرضي

وفيها أريكة طويلة يكسوها قماش قطني وسجادة: وتوجد في هذه الغرفة خزانة زجاجية تضم صحوناً شرقية، أي صواني فضّية للحلويات، وحامل فناجين قهوة، وأوعية لحرق البخور، ورؤوس نرجيلة. كلّ شيء مريح وجميل ومتين. وهي نقيض تلك الأكشاك التي تسمى منازل في داخل تركيا.

ومضيفتي امرأة جميلة ممشوقة القوام، في الخامسة والعشرين من عمرها، ودودة. وكان زوجها ونسيبها، وهذا ما أدخل في نفسي السرور، يعاملانها على الطريقة الأوروبية، وكانت تجلس إلى العشاء معنا. وكان هناك ثلاثة خدم من الذكور وخادمة زنجية. لكن بما أن المضيفة لم تكن تتوقف عن العمل طوال النهار، فلم يكن الخدم يعملون كثيراً، بل كانوا لا يفعلون شيئاً.

وفي إحدى السهرات سألت الحاضرين عن بعض تفاصيل الزلزال الكبير الذي ضرب المدينة في عام ١٨٢٢، فراح كل واحد يتحدث عن حالته ويصف مشاعره عن ذلك الحدث الرهيب:

صاحب البيت: لم تكن معاناة الجديدة بسبب الزلزال بنفس درجة معاناة حي بحسيتا، الحي الذي يقيم فيه اليهود. كنت ليلتها قد أويت إلى فراشي عندما حدثت الهزة الهائلة. خرجت راكضاً ورأيت أن الماء في الحوض في صحن الدار قد جفّ. ثم أنزلت جميع أطفالي إلى القبو تحت البيت، وانتظرت حتى الصباح. وظن البعض أننا كنا بذلك نعرّض أنفسنا لخطر أكبر. إلا أن مسحاً للمدينة بعد الزلزال أظهر أنه لم يتهدم سوى عدد قليل جدا من الأقبية الضخمة، وأن البيوت الأكثر خطورة هي البيوت

المتوسطة القوة. لذلك كانت أفضل فرصة للنجاة الاحتماء في الأقبية المقنطرة المتينة أو في البيوت الخشبية الضعيفة.

شاب يرتدي عمامة بنية قال: كنت نائماً في الشرفة، واستيقظت في وسط حيطان تتحطم وتتهاوى بشكل مخيف. وكان أخي آنذاك خارج البيت متأخراً، ورحت أبحث عن الدرج لأهبط وأرى إن كان قد عاد إلى البيت. صعد أخي وقال: الحمد لله! إنك سليم. قلت له إني كنت على وشك أن أهبط الدرج لأبحث عنك، فقال أخي: "أيّ درج؟ إنك واقف على مستوى الشارع"، تطلعت حولي، ورأيت أن الجدران قد انهارت، وانهار السقف الذي كنت أنام تحته على شكل كتل على الأرض".

رجل يعتمر قبّعة من الفراء* قال: كان مشهدا رهيباً. فقد ظنّ أهل نصف المدينة أن يوم القيامة قد جاء".

وفي سهرة أخرى، أخذ رجل وصل مؤخراً من مصر يتحدث عن الفرق بين القاهرة وحلب، وأوضح عن رأيه عما يجب أن تكون عليه العاصمة فقال: "إن سكان القاهرة من الناحية الظاهرية أكثر ودّا في سلوكهم من سكان دمشق، لكنهم ليسوا مضيافين كثيراً نحو الغرباء، وقلوبهم ليست بيضاء كذلك. وهم أكثر تعلماً من سكان دمشق وحلب. لكن القاهرة تفتقر إلى متطلبات المدينة الكبيرة الأربعة وهي: وجود قلعة حصينة، وأسوار تحيط بالمدينة، وجر المياه إلى جميع البيوت، وشق مجاري في الشوارع".

---

* (كان المترجمون في حلب في الأوقات السابقة يعتمرون قبّعة عالية من الفراء تشبه القبعة التي يعتمرها الفرس، كما كان الرعايا الذين يتمتعون بنفس الحصانات في السلطنة يرتدون هذا النوع من القبعات).

يغار المسيحيون الحلبيون على زوجاتهم أكثر بكثير مما يفعل المسيحيون في دمشق، ولا يتركون لهن قدراً كبيراً من الحرية. وفي إحدى الأمسيات أبديت في كلامي شيئاً من القلق، ضمن مجموعة كبيرة من الحاضرين من كلا الجنسين، ورحت أمدح فضائل النساء. وعندما طلبت من بعض الأزواج بحماس ظاهر، أن يحاولوا النزول عند رغبات زوجاتهم لمدة شهر واحد، مستشهداً بالحالة في إنكلترا، بأن أقوى إمبراطورية وأكثرها ازدهاراً على سطح الكرة الأرضية، تحكمها امرأة. ويدرك هؤلاء الناس المكانة المختلفة التي تشغلها المرأة في أوروبا، لكنهم لا يستطيعون أن يفهموا كيف يمكن للمجتمع أن يصبح متماسكاً في إطار هذا الترتيب. فابتسم لي الشباب، الذين أصبحت أفكارهم أقرب قليلاً إلى المعايير الأوروبية، أما المتعصّبون الأكبر سناً، فقد عبست وجوههم وتجهمت عندما سمعوا هذه المشاعر التحريضية.

وقد ارتأى أحد الكهنة المسنين في أن يكون له الشرف في إبداء لهجة متشددة عن الأخلاق، بالاحتفاظ بالمذهب الشرقي في عزل النساء المسيحيات، والخطيئة في السماح لمسلم أن يرى وجه امرأة مسيحية. فأجبت بدون تحفظ وبشيء من الحرارة: "إن هذا لا يمت إلى مذهب المسيح، بل إلى مذهب المسلمين". غير أن ذلك أثار حفيظته، فاعتذرت لوقاحتي، ولم أحاول بعد ذلك أبداً أن أخالف هذا التعصب الراسخ.

يوجد بالقرب من البيت الذي أقيم فيه دير الأرمن ومسكن الأسقف الذي قمت بزيارته. وهو من توكات في آسيا الصغرى، ويتكلم العربية بصعوبة. أما بعض الكهنة الآخرين، الذين ولدوا في حلب، فكانوا

يتكلمون اللغة العربية على نحو أفضل مما يتكلمون اللغة التركية. وخلال الفترة التي سبقت إبرام اتفاقيات الامتيازات بين الباب العالي والسلطات الأوروبية، وعندما لم تكن الكنيسة اليونانية قد فقدت وحدتها بالانشقاق الديني الذي نقل العديد من أعضائها من سلطة إنطاكية إلى سلطة روما، كان البنادقة في المشرق يدفنون موتاهم في المقابر الأرمنية. وعندما عبرت الباحة شاهدت عدّة شواهد لقبور أشخاص من البندقية، كانت إحداها شاهدة لقبر قنصل كان قد توفي، كما تبين الكتابة المنقوشة عليها، في عام ١٥١٩، أي بعد سنتين من قيام السلطان سليم بغزو سورية.

ويكاد يكون جميع الخدم الذين يعملون لدى الفرنجة في حلب من الأرمن من بلدتيّ أرابكير وديار بكر، ويتكلم جميعهم ثلاث لغات. وجميعهم جديرون بالثقة إلى حدّ ما، حيث أن عمليات النصب والسرقة على الصعيد المحلي غير معروفة، إلا أنهم يحصلون على نسبة مئوية من كلّ مادة يقومون بشرائها لأسيادهم، وثمة اتفاق على نسبة واحدة، لذلك يدفع جميع الأسياد النسبة ذاتها، ولا أحد يدفع أكثر مما يدفعه جاره الفرنجي، لكن جميعها أعلى من سعر السوق.

الفصل الحادي والعشرون

قلعة حلب - المهندس الإيطالي
مسجد العادلية - مكتبة عامة
التعليم - المفتي - القاضي

أبدأ بزيارة المباني والمؤسسات العامة برفقة دليل سياحي ممتاز. وأول ما لفت انتباهي القلعة التي تحتلّ مركزاً وسط المدينة، القائمة فوق تلّ مرتفع بيضوي الشكل. وقد صقل المنحدر المحيط بها، ورصف بالحجارة رصفاً رتيباً. فإذا نظرت إلى قلعة حلب من بقعة ما، فإنها لا تبدو على تلك الدرجة من الجمال الذي يمكن أن تتصوره: وهنا لا تجد تلاً صخرياً وعراً، كما هو حال قلعة إدنبره التي تشبه قلعة حلب في العديد من النواحي الأخرى. لكن هل البروج الأثرية المتبقية من العصور الوسطى في أوروبا تعادل مدخل قلعة حلب؟ فالمدخل برج مربّع هائل، مطعّم بشكل جميل بحجارة ملوّنة داكنة مزخرفة، ينتصب بفخر وخيلاء فوق الخندق المائي. وعندما تدخل من البوابة الرئيسية، ترى ثعبانين متماثلين محفورين يزيّنان البوابة. لكن كلّ هذه العظمة الإسلامية، لا تقودك إلى شيء. إذ إن القلعة من الداخل لا تقدم سوى مشهد بلدة خربة لا يوجد فيها سوى بيتين صالحين للسكن، أحدهما يشغله آغا الإنكشارية والآخر يقطنه القائد. والذخيرة فيها عبارة عن ثلاثة مدافع قديمة تطلق قذائف من عيار إثني عشر رطلاً بدون عربات، ولا يتجاوز عدد الجنود في الحامية إثني عشر رجلاً. وكان القائد في غاية

التهذيب، وقدم لي القليان وبعض القهوة، إلا أنه دار بينه وبين شخص إيطالي الكثير من الهمس، لا تعرف عن ماذا، وقدمه لي على أنه ضابط في فرقة المهندسين العسكرية، وهو شيء كان بمقدوري أن أحكم عليه من زيّه الرسمي، إذ يبدو أنه تعرض لخدمة شاقة.

عندما حييت القائد وقلت له صباح الخير، أخذني أرخميدس هذا ليريني مئذنة المسجد، لكني عرفت أن شيئاً ما كان يدور في رأسه. إذ بدأ يحدثني عن الطقس أولاً بحماس وحيوية ليستا جديرتين بحديث عن بضع غيوم متفرقة في السماء. ثم راح يحدثني عن المطبخ التركي. ثم انتقل للحديث عن الحرب الصينية، ثم سألني كيف أرى مشهد المدينة من القلعة، وفيما إذا كنت رساماً هندسياً، أم أني درست الرياضيات، وأخيراً إن كنت ضابطا إنكليزياً من فرقة المهندسين.

"أوه! لا. فأنا مؤلف مسرحي أبحث عن مواقف كوميدية لأدخلها في النص الذي أكتبه".

"آه! هذه مسألة أخرى".

ثم نزلنا إلى المدينة، وزرنا السراي القديمة، التي كان معظمها في حالة خربة. ولا بدّ أنها كانت واسعة جداً، ويمكن الحكم على روعتها من مدخلها الذي لا تزال توجد عليه زخرفة مصنوعة بحرفية رائعة. وكان القوس يتكون من كتل من الرخام الأبيض والأسود المصقول، تلتقي بشكل متموج بمهارة عظيمة، وتحيط به زخرفة عربية.

توجهنا إلى دار المفتي لأقدم له شكري وأعرب له عن احترامي. وبما أنه لم يكن في البيت دلفنا إلى ديوان نائبه، أو كما يدعى "أمين الفتوى".

وكان رجلاً بديناً، متوسط العمر من الأشراف، أو من سلالة الرسول، لذلك كان يعتمر عمامة خضراء. وكان يجلس في غرفة معتمة واطئة، يدخّن القليان، وتحيط به ملفات سميكة عن القانون، بعضها من منشورات مطبعة محمد علي في بولاق. وعندما ألمحت إليها قال: " لو أن المصريين أطلقوا كمية أقل من الرصاص، وطبعوا عدداً أكبر من هذه الكتب، لكان أفضل لنا جميعا".

وخلال زيارتنا قدم عدد من الأشخاص وعرضوا قضاياهم عليه، فاطلع عليها، وطلب منهم أن يعودوا بعد بضعة أيام. وكان أحد هؤلاء امرأة، قالت إنها لم تسمع شيئاً عن زوجها منذ ثلاث سنوات، وهي لا تملك أسباب العيش وترغب في الزواج ثانية. وسألها النائب عن الشهود، الذين تقدّموا وقالوا إنهم سمعوا زوجها يقسم عليها الطلاق بالثلاثة. ثم قال النائب إن الفتوى، أو الوثيقة القانونية التي سيستند إليها القاضي في اتخاذ قراره، ستصدر قريباً. وعندما سئل عن الرسوم المطلوبة، قال قرشين "(أربعة بنسات ونصف البنس). ملاحظة: إن تكاليف الطلاق في سورية أرخص مما هي في إنكلترا.

ثم أخذني صديقي لزيارة أحد الأفندية الذي كان في غاية اللطف والدماثة، والذي كان أبوه مفتي حلب وقاضي أدريانبول لعدة سنوات. وفي أثناء حديثنا المسهب عن مجموعة متنوعة من المواضيع، ذكرت له ما قاله السيد راسل* الذي قال في كتابه الذي يصف فيه حلب، إن المفتي السابق

* يشير المؤلف هنا إلى كتاب الأخوين ألكسندر وباتريك راسل "تاريخ حلب الطبيعي - في القرن الثامن عشر"، ترجمة خالد الجبيلي، (مترجم هذا الكتاب).

طلب منه، عندما يعود إلى وطنه إنكلترا ويسجل ملاحظاته، ألا يحكم على عقيدة الدين الإسلامي حسب ما رآه من ممارسة الحلبيين لها، فكان جوابه بأن أخذ يعدد جميع مفاسد العصر التي تناقض نقاء الأزمان السابقة للإسلام، وخلص إلى أن نهاية العالم وشيكة.

يعد جامع العادلية أجمل مسجد على الإطلاق في حلب. وإني أعترف بتفوق الهندسة المعمارية لمسجد عمر في القدس على جميع المباني من هذا النوع في سورية، لكني أقول بصدق وثقة إن جامع العادلية يعد أجمل مسجد من الخارج من أيّ جامع في دمشق أو حلب أو الولايات الأخرى في هذه البلاد. ومن خلال صديق حصلت على إذن لزيارة كلّ جزء فيه، وهي خدمة نادرا ما تمنح لأوروبي. وكانت ساعة الزيارة المحددة قبل الغروب مباشرة، حيث يكون الأشخاص الذين أدوا صلاة العصر قد خرجوا من الجامع في ذلك الوقت، ولم يأت المصلون بعد لأداء صلاة المغرب. وبعد أن اجتزنا ممراً طويلاً مقنطراً معتماً، وجدنا أنفسنا في الباحة. وشاهدت المسجد عن كثب، الذي جَذَبَ بهاءه الأخاذ عينيّ وأنا استعرض مشهد المدينة البانورامي من نقاط أخرى. مبنى ضخم عريض، مربّع الشكل، مرتفع، يتمتع ببساطة مثالية تعلوه قبة ضخمة، شديدة الانحدار، تستند قاعدتها إلى الأجزاء المركزية لجدران المسجد الأربعة. ولكي تحقق للعين مبدأ الهرم، انتصبت مئذنة مرتفعة ومدببة برشاقة في السماء.

وكان رواق المسجد متداعياً بشكل يدعو إلى الحزن - ذكرى محزنة من ذكريات الزلزال. أما بالنسبة إلى الزخارف التي تزين البوابة الضخمة، فقال مؤذّن الجامع إنه ما من بنّاء أو مهندس معماري يستطيع حالياً أن يشيّد مبنى

بهذا الأسلوب. وكان الجامع من الداخل أقل بهجة بالنسبة لي: فقد حل الطلاء المبهرج محل بهاء الرخام وعظمته الدائمة. واكتست أرضية الجامع بالسجاد، وتدلت من السقف مصابيح عديدة.

وصعدنا إلى قمة المئذنة بواسطة درج حلزوني. وبما أنه لم يكن يُسمح لي أن أظهر بقبعتي فوق حاجز الشرفة، فقد خلعتها ووضعت عمامة المؤذّن الذي كان يرافقني. ولم يكن الارتفاع الذي كنا فيه يتيح لأي شخص يقف في الأسفل أن يميّز أجزاء أخرى من ثيابنا.

كنا نُطل على مشهد خلاب من كلّ الأطراف. ففي حين كان المنظر من القلعة أقل جمالاً لأنك ما كنت تستطيع أن ترى شيئاً رائعاً مثل مسجد العادلية نفسه، كان المنظر الذي تطل عليه من الجامع أكثر روعة لأنك تستطيع رؤية القلعة من أجمل نقطة. وكان اللون الذهبي الذي يشع برقة فوق السور يخف تدريجياً مع اقتراب الليل البارد المظلم والكئيب، البارز من الجزء الأوطأ من المدينة. وكنت أتمنى أن أبقى في هذا المكان فترة أطول، لكن نداء هامساً من أسفل الدرج الحلزوني ذكّرني بأن موعد آذان صلاة المغرب قد حان، فهبطت الدرج مسرعاً، وما أن وصلت إلى الشارع حتى كان نداء الله أكبر يدوّي من مئذنة إلى أخرى، وأخذ المؤمنون يهرعون لأداء الصلاة.

توجد مكتبتان عامتان في حلب، واحدة ملحقة بجامع العثمانية، والأخرى تابعة إلى معهد يدعى الأحمدية، التي تدعى أحياناً مكتبة جلبي أفندي. وقد قمت بزيارة المكتبة الأخيرة التي يقوم على رعايتها عمر أفندي،

ابن حفيد مؤسسها. وعندما قدمني إليه صديق مشترك، كان يجلس في السلاملك، الاسم الذي يطلقه الحلبيون على صالة الاستقبال (فهم يستخدمون الكلمة التركية)، واشتكى من أنه على وشك أن يفقد بصره، رغم أنه لم يكن تبدو على عينيه أي شيء غير عادي. وأُخرج مفتاح ضخم ومضينا إلى المعهد. وكانت توجد في الباحة الأولى قبور مؤسس المعهد وأسرته. وكانت الباحة الداخلية محاطة برواق مكسو بالحصر، تعطى فيه الدروس عندما يتحسن الطقس، وفي الشتاء تعطى الدروس في الغرف المطلة عليه. وتحتل نافورة من الرخام وسط الباحة.

خلعنا أحذيتنا ودخلنا مسجداً صغيراً، وبعد أن اجتزنا غرفة داخلية، وجدنا أنفسنا عند باب وستار المكتبة. ويعد هذا الباب تحفة رائعة لهواة الزخرفة العربية على الخشب، إذ إن تصميم كلّ مقصورة من الحاجز المشبك تختلف عن جارتها. وهذه المكتبة هي أفضل مكتبة في سورية كلها: لكن لا يظنن القارئ الكريم أنها تشبه مكتبة بودليان (Bodleian) أو مكتبة الملك (Bibliothe'que du Roi). وقد تكدست الكتب من غير ترتيب على رفوف كبيرة كانت معلقة على جدران غرفة حجمها عادي. وقد كتبت العناوين بالحبر على حافات المخطوطات بأحرف كبيرة. وكانت توجد في زاوية الغرفة كرتان جغرافيتان إنكليزيتان قديمتان، تحملان بطاقتين تذكران أنهما بيعتا من مكتبة أطلس وهرقل في بولتري بلندن. وعندما سألت مرافقي عن مكان غرفة المطالعة، أشار إلى الأروقة الرباعية الأضلاع التي مررنا عبرها. ثم سألته إن كان هناك عدد كبير من القرّاء، كان الجواب أنه ليس

لدى الحلبيين ذوق كبير للأدب. وقال إنه تُطلب منهم بعض الكتب في أسابيع محددة، وفي أسابيع أخرى لا يمس أحد الكتب المركونة على الرفوف. وقد وعدوني بإعطائي فهرساً بالكتب الموجودة في هذه المكتبة، وعرضت تقديم مكافأة للناسخ، إلا أنني، رغم تكرار طلبي هذا مرات عديدة، لم أحصل عليها أبداً.

وبشكل عام فإن التعليم العام مهمل في حلب. وقد أغلقت مدرسة النظام المصرية. وكم يتناقض الوضع الحالي لسورية مع تلك الفترة التي كان فيها العرب ورثة الإغريق في العلم الرفيع. ولم أر في أيدي السكان المحليين أيّ عمل يقرؤونه باستثناء كتاب "ألف ليلة وليلة" بطبعته المصرية، وكتب بعض الشعراء الشعبيين. ويعد الشيخ عقيل أول وأهم عالم عربي في حلب، وهو شيخ الجامع الكبير، الذي أعطاني دروساً، لأن دخله كمدرس في الجامع لم يكن يكفيه لإعالة نفسه، وكان يزيد دخله بالعمل قليلاً في التجارة. وكان قد قدم مؤخراً من مكة المكرمة، وجلب معه مجموعة من الخرز المرجاني وأساور خزفية ترتديها النساء من الطبقة الفقيرة في كواحلهن.

والمسيحيون غارقون في الظلام ذاته. إذ لم تحدث الأعمال الرئيسية التي أصدرتها المطبعة العربية في مالطا عن الجغرافيا والتاريخ وغيرها، تأثيراً كبيراً في السكان. إلا أنه رغم خلوها من التلميحات إلى علم اللاهوت الدوامات، لم يكن توزيع هذه الكتب يُشجع بين المسيحيين المحليين، إذ كان رجال الدين يخشون أن يقوم أشخاص ذوو طبيعة دنيوية أدنى بقراءة هذه الكتب.

تعرفت على المفتي جابر أفندي، الذي كان رجلاً محترماً ومثالياً وعلى اطلاع واسع: وربما كان في الخامسة والستين من عمره. ولا أذكر أني شاهدت في سورية شخصاً بهذه السعة من العلم والاحترام. وكانت غرفة الاستقبال في منزله تقع في الطابق العلوي وتطل على ضواحي حلب. وغالباً ما دارت أحاديثنا عن الدين، وقد سألني ذات يوم: "هل تؤمن بأن السيد المسيح هو ابن الله؟"

المؤلف: "نعم".

المفتي: هذا خطأ. فقد كان نبيا أرسله الله في وقت مناسب، ومنحه مؤهلات ملائمة. وقد تمكن نبينا موسى من السيطرة على عصا الساحر، وشفا نبينا المسيح المرضى بمعجزاته. وعندما أرسل الله النبي محمد إلى العرب، كانت قدرات الأمة الثقافية تقوم على أساس اللغة، واعتبر القرآن معجزة من معجزات البلاغة والفصاحة عندما كانت اللغة العربية في قمة ثرائها وروعتها".

وبعد بضعة أيام من هذا الحديث، كان المفتي في المحكمة، عندما قال له رجل فاقد البصر بنبرة غاضبة وساخطة بعد أن تم احتجازه: " صحيح أنه لا يمكنني أن أراك جالساً على المنصة، لكني سأراك إن شاء الله في نار جهنم".

وبدلاً من أن يبدي المفتي استياءه لإهانة المحكمة بهذه الطريقة، قال له بهدوء شديد: "آه، أيها الرجل الطيب، سترى الكثير من الرجال الأعظم مني هناك".

وتفضل المفتي مشكوراً بتعريفي إلى القاضي، وهو تركي من اسطنبول، كان يجلس في غرفة استقبال عادية الحجم، مؤثثة بأريكة، عليها أدوات الكتابة ولفائف من الورق: وقدم لنا القليان والقهوة. وبدا المشهد وكأنه مكان للزيارات العادية أكثر من كونه محكمة. وكان المدّعون من المرتبة الأعلى يجلسون على الأريكة، وقدمت لهم القهوة، وقدم لبعضهم الشيبوك، أما المدّعون الأدنى مرتبة فقد ظلوا واقفين في أسفل الغرفة. وكانت أعمال المحكمة كلها تجري بواسطة مترجم كان يقوم بترجمة ما يقوله المدعوّن بالعربية إلى اللغة التركية، وكان يعيد ترجمة أجوبة القاضي من اللغة التركية إلى المدعيّن باللغة العربية. ومن معرفة القاضي اللغة التركية الفصحى، أدركت أنه كان يخمّن كلّ ما كان يقال، لكنه لم يكن بإمكانه أن يعبّر عن نفسه باللغة العربية. وكان يطلب أداء القسم بين الحين والآخر. إلا أنه كان بوسعي أن أخمّن من هو المدّعي الصادق ومن هو المدّعي الكاذب من سلوك الأطراف المتنازعة.

أما القاضي نفسه فكان مشروعاً رائعاً لرسام. فقد كانت عيناه رائعتين، ولحيته مشذبة تشذيباً جيداً، وسلوكه سلساً ودمثاً، ويعتمر عمامة ويضع نطاقاً من الموسلين الأبيض الناصع، ويرتدي عباءة أرجوانية فاتحة اللون، تنم عن رجل محترم لطيف من النظام القديم.

وقد فوجئت بوجود عضو في هيئة العلماء لا يزدري معارف الغرب. فقد كان الزلزال الذي ضرب غوادالوب وأنتيغوا حديث المدينة، فاتجه إلى الخريطة وأشار إلى موقعهما بدقة في جزر الهند الغربية. وقد فوجئت كثيراً بذلك، رغم أن القارئ الكريم قد يأنف نوعاً ما من تقديمي ذلك

باعتباره برهاناً على ذكاء رجل. لكن للأسف! فكم من النادر أن تلتقي برجل شرقي يحب المعرفة والإطلاع. وطوال ذلك الوقت، كانت الوثائق تُجلب إلى القاضي من المكاتب الخارجية، فيمهرها بخاتمه بعد أن يدرسها. وكان يحتفظ بالخاتم في محفظة ذهبية، يعلقها في رقبته بسلسلة ذهبية.

الفصل الثاني والعشرون

الأشراف والإنكشاريون - شعبان أوغلو
مذبحة الإنكشاريين - خورشيد باشا
عبد الله بابلسي - أسعد باشا
الأرستقراطية المحليّة - الدسائس السياسية
بنقوسا - قهوة الآغا

لا يمكن للمرء أن يقف خلف ستارة ويراقب بهدوء أجهزة وإدارة الحكومة الشرقية في إزمير أو بيروت أو الإسكندرية، أو مدن الفرنجة الأخرى التي تضم هجيناً من السكان، بل يمكنه أن يفعل ذلك في المناطق الداخلية من الولايات الكبيرة. ومع أن مدينة حلب لم تكن في الآونة الأخيرة مسرحاً لأحداث مهمة، فإن وضعها السياسي يدخل في اهتمام الأوروبيين بسبب مكانتها الرفيعة بين مدن الدولة العثمانية في آسيا.

وكانت حلب منقسمة منذ فترة بعيدة إلى حزبين أو فئتين عنيفتين وهما: الأشراف أو ذوو العمامات الخضر المنحدرون من سلالة الرسول، والإنكشاريون، أو الفئة العسكرية. وكان يرأس فئة الأشراف في ١٨٤٣، المفتي الذي سبق لي وتحدثت عنه؛ أما الإنكشاريون الذين استعادوا نشاطهم بعد رحيل المصريين، فقد اعتبروا أن عبد الله بك، الحاكم المحليّ، رئيساً لهم.

ولكي نفهم وضع الفئتين في العاصمة السورية الشمالية جيداً خلال فترة زيارتي، يجب أن أعود بقرّائي إلى بداية القرن الحالي، وهي الفترة التي لم تكن

تحظى فيها فئة الأشراف بالاحترام والتقدير، وكان الإنكشاريون يتمتعون خلالها بكامل قوتهم. وكما كان الحال مع المماليك في مصر قبل الاحتلال الفرنسي، كانت سلطة باشا السلطان الذي كان يمهر جميع القوانين والوثائق الرسمية بختمه، اسمية فيما كانت القوّة الحقيقية تكمن في أيدي البكوات والأبوات، الذين كان لكل واحد منهم شخص يوّفر له الحماية في الباب العالي، أشخاص يحملون طوغاً أو ذيل حصان واحد، أو بعض الأثرياء من الرعايا، أو قناصل الدول الأوروبية العظمى. وذلك لأنه لا يمكن للشخص أن يفعل شيئاً دون عون بعض هؤلاء الوسطاء، ولا يمكن استعادة حق أو إنصاف في أي شكوى أو قضية بدونهم. وفي بعض الأحيان، لا يكون على رأس السلطة والٍ أو باشا على الإطلاق، بل مجرد محصّل لجباية الضرائب وإرسالها إلى الباب العالي. وفي عام ١٨١٥، وهي سنة حافلة بالأحداث، عُيِّن شعبان أوغلو والياً على حلب. وعندما قدم إلى المدينة، أقام في بيت الشيخ أبو بكر الواقع خارج المدينة. وقد حظي بشعبية كبيرة لم ينلها أي وال آخر، وذلك لأنه لم يكن يطمع في فرض سلطته. وبعد بضعة أشهر من وصوله، تعرضت قافلة كبيرة متوجهة إلى استنبول إلى النهب والسلب، وعرف عن تورط اثنين من كبار الإنكشاريين في حلب في هذه القضية، وأصّر شعبان أوغلو على استرجاع الممتلكات أو التعويض عنها، وإلا تقدم التجار بشكوى إلى الباب العالي، وقد يؤدي ذلك إلى استدعائه وعزله.

وكان معظم زعماء الإنكشارية الآخرين يرغبون في أن يظل الباشا بعيداً عن التدخل في شؤونهم. وكان ذلك سبباً وجيهاً لأن يتداعى البكوات

والأبوات لعقد اجتماع لهم، وتوجهوا إلى القصر في حي أبو بكر في ضواحي حلب. وبما أنهم لم يساورهم أي شك في إمكانية حدوث شيء، فلم يرافقهم سوى حفنة قليلة من المرافقين. وقد استقبلهم الباشا استقبالاً حسناً، وبعد انتهاء بعض المناقشات، خرج من الغرفة ودخل الجنود المختبئون في الغرف المجاورة، وقتلوا جميع الزعماء المجتمعين البالغ عددهم ثلاثين شخصاً بدم بارد. وكذا فعل الباب العالي في التخلّص من جميع أعضاء الإنكشارية الأشد بأساً.

وهكذا اتخذ الأشراف مكانتهم: وكانت المدينة مركز تجمعهم، وهي الجزء المركزي من المدينة، أما الضواحي فكانت تخضع جميعها للإنكشارية. وكانت "قهوة الآغا"، المقهى الذي يلتقي فيه آغوات الإنكشارية، تقع في وسط ضاحية بنقوسا الكبيرة. غير أن خورشيد باشا فرض ضريبة جديدة في عام ١٨١٩، مما أدى إلى توحيد كلا الفئتين، وقُتل عدد من ضبّاط الباب العالي، فحاصر الباشا وقوّاته المدينة مدة أربعة أشهر، وألحق بهم هزيمة في نهاية الأمر.

وكانت مشاعر الفئتين قد أصيبت بالشلل التام بسبب زلزال عام ١٨٢٢، وقضي عليها قضاء تاماً بعد الاحتلال المصري.

وجاء الآن وقت تقديم شخصية هامة إلى المسرح. فرغم القضاء على زعماء الإنكشارية منذ فترة طويلة، إلا أنه بقيت الفئة الرئيسية منهم بالإضافة إلى أبناء الأفراد المنكودي الحظ، والرؤساء الأكبر سنّا من المراتب الأدنى. وكان عبد الله بابلسي الذي ينتمي إلى أصول وضيعة، الشخص الأكثر نفوذاً بينهم. وكان فظاً وجلفاً وأمياً، لكنه يتمتع بنشاط وحيوية،

وكان مرناً في علاقاته مع المحيطين به، وكريماً معهم في المسائل المالية - وهي صفات يستخدمها الزعماء لخدمة الأصدقاء وإخافة الأعداء، وتعد من عناصر نجاح الفئات الشرقية.

ورغم أنه كان بوسع إبراهيم باشا أن يسحق أيّ تمرّد في المدينة، إلا أنه كان من الدهاء إلى درجة أنه أراد أن يتفادى خطر حدوث اضطرابات في العاصمة الشمالية، التي لا تبعد سوى بضعة أيام عن جبال طوروس: فقد عيّن عبد الله في منصب المتسلم، وعيّن في الوقت نفسه عادلي بك رئيساً للأشراف. وشريطة أن يتمكن عبد الله من السيطرة على غوغاء الإنكشارية، غض المصريون الطرف عنه وعن أساليبه وأعفي رجاله من التجنيد. ومع أن عادلي بك، وهو رجل ينتمي إلى عائلة عريقة، تبددت ثروتها (فقد تهدمت ثروتها بالمعنى الحرفي للكلمة، إذ كان يمتلك قبل الزلزال شوارع كاملة من البيوت الجيدة)، فإنه لم يكن ينتمي إلى طبقة الأشراف، كان يتمتع بشعبية كبيرة من قبل جميع فئات السكان لسمو شخصه.

وعندما استعاد السلطان سورية، وجد أسعد باشا، الوزير المحنك، أن التحالف مع الإنكشارية أمر لا بد منه من أجل حفظ النظام. فاستغل قوّة عبد الله بابلسي، الذي أصبح الآن عبد الله بك. إلا أنه أبقاه بعيداً عنه، ولم يكن يسمح له بالجلوس في المجلس. وكانت تقدم له القهوة، لكن لا يقدم له الشيبوك.

وازدادت قوّة عبد الله بك في ظل ولاية فيدجيهي باشا، الذي عامله باحترام كبير، وأخذ يقدّم له الشيبوك كذلك. ولم يكن هناك سوى ١٥٠٠ جندي من جنود النظام في الولاية، إلا أن جميع الرعاع في الولاية كانوا تحت

إمرة عبد الله: ورغم أنه لم يكن يدفع لهم رواتبهم، فإنهم كانوا تحت حمايته. ولكونه المتسلم، كانت لديه أساليب كثيرة ليؤمن مصالحهم. بالإضافة إلى ذلك، كان له نفوذ كبير لدى شيوخ البدو على أطراف الولاية، وبوسعي القول إنه لا يوجد رجل في سورية تتركز في يده سلطة سياسية كبيرة. وكانت تحل جميع القضايا بالرشوة، وكان عبد الله وكيخيا الباشا يتقاسمان الغنائم. وفي أحد الأيام نُهبت قافلة كبيرة كانت متجهة من دمشق إلى بغداد. وبما أنه لم يكن بالإمكان بيع السلع المسروقة من القافلة في هاتين المدينتين، فقد تم بيعها علناً في أسواق حلب. وبما أنه لا يمكن لفأر أن يتحرك في المدينة دون معرفة المتسلم، فقد انتشرت شائعات سيئة عن هذه الصفقة القبيحة.

وكان الأعيان أو الأرستقراطيون المحليون المعارضين الحقيقيين للإنكشاريين، ممن تمكنوا من جمع الثروة، بعد أن تلاشت الأرستقراطية القديمة التي كانت تقوم على أساس النسب. فقد تلاشت عائلة جلبي، التي كانت تحتل المقام الأول في مدينة حلب، وأنفقت بسخاء على تأسيس المعهد والمكتبة اللذين ذكرتهما. وكان عادلي بك، المالك الاسمي لأفضل أحياء حلب، يمر حقاً في ظروف صعبة للغاية، فقد كانت جميع البيوت التي يمتلكها الفرنجة من أملاك هذه العائلة.

توجد حالياً عائلتان رئيسيتان في حلب، يكاد أفرادهما يحتكرون مقاعد المجلس: الأولى، عائلة شريف بك طه اغاسي، حفيد إبراهيم باشا، التي رأست خلال فترة الثورة الفرنسية الحكومات السورية الأربع في ذات الوقت. والثانية، عائلة الجابري، التي يأتي على رأسها المفتي محمد الجابري الذي كنت قد قدمته إلى القارئ سابقاً، والذي تتعارض شخصيته تماماً مع

شخصية المتسلم عبد الله بك. وكان يتمتع بشعبية كبيرة في المجتمع لذكائه ودماثته وحنكته السياسية.

وقد أدرك إبراهيم باشا تعاطفه مع السلطان، وخشي أن يترك شخصاً محنكاً وذكياً في مدينة قريبة من الحدود الشمالية، فنفاه إلى منطقة في وسط غوطة دمشق. وقال أسعد باشا، الذي يتمتع بقدرة كبيرة على قراءة الشخصية الإنسانية، بعد أن تعرفّ عليه: "لم أفاجأ بأن المصريين أبعدوا ذلك الرجل عن طريقهم. فلم أر في حياتي رأساً أكثر شموخاً أو لساناً أكثر نعومة منه". باختصار، لم يتمكن المفتي من التعايش مع المتسلم، لأن أساليبه التي تخلو من أي ضمير، والأكثر وقاحة وفظاظة، تتناقض مع مكانته كرجل دين ومفتي، وتتعارض مع دماثته. كما أن فئة الأشراف التي ينتمي إليها تضم في معظمها التجار والمشتغلين في التجارة، ممن ينحون نحو السلم أكثر من الإنكشاريين.

وعندما وصل القاضي أيّد الأعيان، وذلك لأن أسعد باشا أقصى سلفه ولم يعد يبت في القضايا في المحكمة، بل في المجلس فقط. وبطبيعة الحال حاول القاضي أن يعيد للمحكمة مكانتها: وبعد أن نجح جزئياً في ذلك بإدارته الجيدة، اتخذ موقعا محايداً في السياسة، رغم تعاطفه مع الأعيان والأشراف، وكان ذلك ملائماً لمكانته.

إن روح الانقسام والتحزب، إن لم تكن دامية بالقدر الذي كانت عليه في زمن بوركهاردت، فقد كانت مفعمة بالمرارة. إذ إن الحسد والكراهية شائعان لدى الحلبيين. ورغم أنه لا يفصل دمشق عن حلب سوى مائتي ميل، فإن هاتين المدينتين مختلفتان كاختلاف فيينا وبرلين. إذ يمكن اعتبار دمشق فيينا

السورية، حيث تجد أن جمال الضواحي وروعة الحياة المادية فيها تجعل السكان ينصرفون إلى المتعة والملذات، ويضفي ذلك طبعاً جيداً على الناس: أما حلب، فعلى العكس من ذلك، فيمكن اعتبارها برلين شرقية، فجدب الطبيعة الخارجية يشحذ ذكاء السكان، لكن للأسف، يزيد من أنانيتهم.

بعد أن سمعت كثيراً عن قهوة الآغا، أو المقهى الذي يلتقي فيه الإنكشاريون، في ضاحية بنقوسا، طلبت يوماً من دليلي السياحي الخدوم أن نتمشى في ذلك الحي. وانطلقنا من الجديدة، وسرنا في جادة المدينة، وكان الخندق الذي يبلغ عرضه قرابة خمسين خطوة، جافاً جداً ومغطى بالأشجار والشجيرات الملتفة الكثيفة. وكان السور في الجادة مزيجاً رائعاً من الهندسة المعمارية المحلية الحديثة والقلاعية القديمة، إذ كنت ترى هنا وهناك نوافذ مشربية تبرز من بين الأسوار السميكة التي تعود إلى أيام تيمورلنك أو سليم.

ونظراً لقصر المسافة التي تفصل المدينة عن الضاحية، فإن التناقض بينهما مميّز ومثير للاهتمام. وقد كنت قد ألمحت إلى المظهر الحضري للمدينة ذاتها، لكن ضاحية بنقوسا مثل أي بلدة عربية ريفية. ففي المدينة ترى بيوتاً عالية، وأسواقاً طويلة مقوّسة، كلّ سوق منها مخصص لتجارة معينة، حيث يمكنك أن ترى أحد الأفندية يرتدي ثياباً جميلة ويمتطي حصاناً، ويهز برأسه يميناً ويساراً وهو ينظر إلى أصدقائه المغمورين، ويبتسم صاحب المحل مسروراً، وتعقد الصفقة، ويُنزل اللوح الخشبي لباب الدكان ويعيد التحية.

وحي بنقوسا مفعم بالحيوية والنشاط. والبيوت فيه إما بيوت ريفية أو من بيوت الضواحي. والسوق ليس مقنطراً، بل عبارة عن عواميد عارية،

قلما تكسوه الحصر التي تقي من شمس الصيف ومطر الشتاء. والدكاكين ليست مجمعة في أسواق متخصصة، إذ يمكنك أن تجد أن محل الجزّار ومحل العطّار متجاورين، بحيث تسبق رائحة ماء الورد رائحة أحشاء الذبيحة. وهاهو البدوي الذي يبيع منتجات ألبانه وسط النفايات في سوق الضواحي الكبير. وأخيراً (إياك أن تبوح بشيء)، هاهو يساوم على بيع مواد من القافلة المسروقة مؤخراً. لكن أنظر إلى أعلى الطريق، حيث يسير المعتّر أو الأزعر. وتتأكد من أنه إنكشاري: فملابسه رثّة، لكن مسدساته وخنجره في حالة لا بأس بها، ولا يبدي احتراماً لأي أفندي، لكنه يلقي التحية على رفاقه الخارجين عن القانون من قرلق حتى باب النصر.

"حسناً، هنا نحن أخيراً قد وصلنا إلى قهوة الآغا الشهيرة"، قال صديقي. "أين هي؟"، سألته واستدرت بلهفة، ورحت أحدق لعلي أرى هذا المقهى السياسي المشهور، الذي رحت أقارنه بمكان التقاء المتآمرين في القصر الملكي القديم.. وتتبعت بعيني الاتجاه الذي يؤشر إليه بإصبعه، ورأيت مكاناً يشبه مبنى خارجياً خرباً لمصنع جعة، يجلس أمامه عشرة رجال أو اثنا عشر رجلاً يشبهون بعضهم من حيث المظهر ويدخّنون النارجيلة. "هل هذا هو المقهى الذي جئنا لرؤيته؟ "قلت، مشدوهاً، فقال: "نعم أنا متأكّد. هل ظننت أنّك كنت ذاهباً إلى باب السلام في دمشق؟"، فقلت " كفانا من رؤية المقاهي السياسية في حلب!".

الفصل الثالث والعشرون

الشركة البريطانية القديمة - المراسم
دعابات عملية - الكرامة القنصلية
الفرنجة - حفلة إنكليزية
المسيحيون في حلب - المرتدّون - جمال يوناني

سمح لي السيد "ويري" أن أبحث في سجلات القنصلية البريطانية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر: ومما لا ريب فيه، أن الفضل في بقاء هذه الوثائق وحفظها يعود إلى طريقة بناء البيوت بشكل متين في حلب، إذ لا تكاد تعرف الحرائق فيها. ويبدو أن تجارة الشركة البريطانية كانت في أوجها خلال فترة الكومنولث، وخلال عهد تشارلز الثاني، كان هناك أكثر من خمسين بيتاً بريطانياً في هذه المدينة. وكان يوجد كذلك في حلب، التي كانت مركز التجارة الهندية، شركات هولندية وفرنسية ومن البندقية، التي كانت تشكل جميعها مجموعة أوروبية كبيرة في وسط السكان المسلمين. لكن إلى أي حد كان وضعهم مختلفاً عن وضع الفرنجة في الوقت الحاضر: فقد كان الباشا يزج في بعض الأحيان القنصل في السجن لأسباب وذرائع تافهة وواهية. وكانوا يتعاملون فيما بينهم بطريقة رسمية جداً، وكانت طرق تسليتهم صارمة إلى درجة تثير الضحك. وأقتطع هذه الفقرة من أحد السجلات التي بحثت فيها عن طريقة المراسم التي كانت متبعة:

"في الساعة الثالثة والنصف جاءت زوجة القنصل وهي تجلس في كرسيها إلى بيت القنصل، يرافقها جاويش وإنكشاري. ودنا السيد رينود، نائب القنصل في الإسكندرونة، قليلاً من الكرسي، وتوقّف عند أسفل الدرجات، حيث استقبلها رئيس الديوان والمترجمون والجاويش والإنكشاريون يسبقهم أربعة حراس. وعندما نهضت من الكرسي، تقدم رئيس الديوان ليساعدها في صعود الدرج إلى البهو، حيث سيستقبلها القنصل، إلا أن السيد رينود منعه من أن يفعل ذلك، ودفعه جانباً وأمسك بيدها وقادها صاعداً الدرج*، واجتاز الأشخاص الواقفين في أعلى الدرج وحملها إلى القنصل الذي استقبلها عند الباب الكبير، واصطحبها إلى غرفة الاستقبال.

لا يزال الحلبيون المتقدمون في السن يتذكرون بعض أطوار السلوك الغريبة التي كان يمارسها بعض أفراد الشركة البريطانية. فذات يوم، وخلال فترة الكرنفال، كان الفرنسيون في نزهة إلى البستان. وكانوا يضعون جميعهم أقنعة، وكان القنصل، ذلك الشخص المهم الوقور، يتقلدّ سيفاً خشبياً، ويرتدي قبعة سوداء، وسترة متعددة الألوان يرتديها المهرجون عادة! وفيما كان هذا الضجيج يعلو بالقرب من الخانات، كان السيد فيرنون، أحد أقرباء الأدميرال فيرنون، يخطط للقيام بمزحة عملية، أحدثت الكثير من البهجة والضحك لفترة طويلة بعد ذلك.. فبما أنه كان قد تعرف إلى الباشا، استعار بدلته، وتنكّر أفراد الشركة ليظهروا بمظهر حاشيته، بالإضافة إلى

---

* ملاحظة: يتسم السلوك الذي قام به السيد نائب القنصل بالفظاظة، وكان يجب التذمر منه. لكن بما أن ذلك أُهمل في ذلك الوقت، فلا يجب اعتباره العادة المتبعة في مثل تلك المناسبات.

القواصين والجنود غير النظاميين، وساروا في موكبه باتجاه البستان. وكان الفرنسيون في غمرة متعتهم وبهجتهم (الكيف)، وشيئاً فشيئاً بدأت تتسلل أصوات قرع الطبول الصغيرة إلى آذانهم. وظنوا أن الموكب، الذي كانت تحجبه الأشجار، موكب قوّات غير نظامية متوجهة إلى القرى. وفيما كان المهرج يقف على أطراف أصابعه، ويلوّح بسيفه عالياً بيد واحدة، ويرفع كأس شمبانيا باليد بالأخرى محيياً إحدى السيدات، دخل ترجمان الباشا، بالابتسامة الرسمية التي تجمع بين التملق والغرور، وأعلن أن سعادة الباشا، الذي كان يشعر بالتعب بسبب رحلته، يطلب إذناً من القنصل لزيارة خيمته ليمكث بضع دقائق للاستراحة ويحتسي معه فنجاناً من القهوة.

ولم تحدث في تاريخ القنصل أو نائب القنصل مثل هذه المشكلة. أن يقوم ممثل أمة كبرى باستقبال سعادة الباشا وهو متنكر في ثياب مهرج، وتعريض سمعتها للخطر. أما المهرج، الذي كان يتمنّى أن يكون الباشا لا يزال بعيداً، فبدت على وجهه علامات الدهشة من هذه الزيارة. وقد زاد من عذابه ضحكات المرافقين المكبوتة، وهرع وخلع القناع والسيف، واستعار باروكة من شخص، وقبعة من آخر، وغطّى سترة المهرج بعباءة، وطلب إليهم متوسلاً أن يتوقفوا عن مرحهم وصخبهم حتى تنتهي الزيارة الرسمية. وبصعوبة تمكن من ترتيب باروكته، ورغم أن العباءة غطته جيداً، إلا أنها كانت لا تزال تكشف عن الرداء الذي يجمع كلّ ألوان قوس قزح تحتها، ودوّت في الخيمة ضحكة لا يمكن التحكم بها. وفي هذه اللحظة بالذات دخل الترجمان ثانية وأعلن: "لقد وصل سعادته". وكان القنصل منقطع

الأنفاس عندما ظهر السيد فيرنون ومرافقوه، وعلت ضحكات الفرنسيين كذلك. أما القنصل، الذي وجد نفسه بين نارين، فقد نزع عباءته غاضباً وصاح: " السيد فيرنون هذا كثير"؟

فرد عليه السيد فيرنون، بالرطانة البريطانية: "حسب أعراف المجتمع الحلبي، يجب على كل من يغضب أثناء الكرنفال، أن يقدم وليمة عشاء إلى اثني عشر شخصاً". فقال الفرنسيون: " السيد فيرنون على حق، فقد غضب القنصل".

فقال القنصل: "سأدعوكم إلى العشاء، ولتحيا البهجة والمرح"، واستأنف دوره كمهرج، واستمر المرح الذي جعل الشعبين في روح مرحة لأيام قادمة.

وكان السيد سميث، وهو أحد أفراد الشركة، معروفاً بدعاباته العملية، لكن دعاباته كانت تتصف بالجنون أكثر مما تتصف بالذكاء. وكانت أكثر دعاباته براءة عندما صعد إلى قمة شجرة، وطلب من الأشخاص في الأسفل أن يبعدوا السلّم الذي صعد عليه. ثم طلب الحلاق ليحلق له شعره، وشاهد حشد من المسلمين المتهكمين جهود الحلاق الخرقاء لتسلق الشجرة، ليحلق شعر الإنكليزي المجنون ويحصل على أجر ممتاز.

ولعل بعض دعاباته العملية كانت تشبه في غرابتها، غرابة أطوار دالي، المهرّج الشرير في مسرحية ثيودور هووك "جلبرت غيرني". ففي إحدى المرات أقام حفل عشاء في البستان، ودعا جميع سيدات الفرنجة في حلب للبحث في أفضل المأكولات وأشهاها، وذكر في ملاحظة بأنه سيزود المدعوات بحمير لنقلهن من بيته عند الشروق. وامتطت السيدات الحمير في

غسق الصباح، إلا أن الحمير، التي طُليت باللون الأسود أثناء الليل، أبرزت لون ثياب السيدات البراقة الزاهية. ولعل المشهد الذي أعقب ذلك، عندما ترجلن من فوق ظهور الحمير، يعتبر كنزاً دفيناً لسوميلت.

وشأن العديد من رجال هذه الأيام، كانت تنتابه مشاعر من الذعر تجاه البابا، الشيطان والمدعيّ، ولم يكن يوفر مناسبة لا يسخر فيها من الكاثوليكية. فقد دأب على تقليد عادة استخارة قدّيس قبل الشروع في رحلة ما، وخرافات أخرى مثل وضع تمثال في غرفته لاستشارته في أمور مهمة مثل قبول دعوة إلى العشاء والمساومة أو ما شابه ذلك.

وكان يمقت العادة المتبعة في تقديم القليان خلال الزيارات. وبما أن آداب السلوك في الشرق تحرص على التمسك بالرسميات والمجاملات اللطيفة، كان يحوي قلايين طولها ستّة أقدام وأخرى لا يزيد طولها على قدم ونصف القدم. ولكي لا يبدو أنه يسئ إلى مشاعر الآخرين، كان على كلّ ضيف أن يختار قلياناً طويلاً أو قصيراً. وبالإضافة إلى شعوره بالمتعة من الحرج الذي يسببه ذلك لدى زوّاره، كانوا يعتذرون دائماً عن تدخينها في نهاية الأمر.

وكان من أشد الأشياء التي يكرهها استعراض جلال القنصل ومنزلته. ففي إحدى المرات حل مكان القنصل، ودخل إلى حلب وهو يمتطي حماراً كان قد لف حول ذيله رباطاً ذهبياً، مما أثار حفيظة الجميع لخرقه آداب اللياقة.

إن الفرنجة في حلب مشرقيون أكثر مما هم في أي جزء آخر من تركيا. وفي الواقع، فإن الفرنجة الذين ولدوا في هذا البلد يمتلكون صفات العرب

في شخصيتهم أكثر بكثير مما يمتلكون من صفات الأوروبيين. وعندما بدأت تجارة حلب في الانحدار في حوالي نهاية القرن الماضي، غادر جميع الإنكليز المدينة. أما الجاليتان الفرنسية والإيطالية فكانتا عبارة عن مستعمرات أكثر من كونهما شركات تجارية، وذلك لأن أفراد هاتين الجاليتين يعيشون في مناخ يشبه مناخ بلادهم، فقد اشتروا بيوتاً وبساتين، واستمروا في ممارسة عملهم في التجارة المحلية معتمدين على المصادر المتبقية في المدينة. وحتى الآن، ففي الوقت الذي تبنت فيه السيدات اليونانيات والأرمنيات في تركيا أبهة المجتمع الأوروبي، فإن الشابات الإفرنجيات في حلب لا يزلن يحتفظن بعظمة الزي السوري القديم الرائع، ويتكلمن اللغة العربية، وتكون أحياناً لغتهن الوحيدة التي يتكلمنها. ولا شيء يمكن أن يتجاوز كرم ولطف هؤلاء الناس: إذ إن بعض أجمل ساعات حياتي وأكثرها سعادة هي تلك التي أمضيتها في ربوع حي الكتّاب في حلب.

وخلال إقامتي، أقام الإنكليز حفلة للفرنجة الموجودين في حلب. إذ إن إقامة حفلة في إزمير أو في الإسكندرونة تشبه إلى درجة كبيرة أي حفلة تقام في إحدى مدن الموانئ الإيطالية، أما الحفلات التي تقام في هذه المدينة فتمتاز بطابع شرقي. ولكي أذهب إلى الحفلة كان عليّ أن أمرّ عبر الأسواق، التي كان يخيم عليها في هذه الساعة من اليوم سكون مطبق وتخلو من أي إنسان، وكان ينيرها عدد من المشاعل، وبدونا مثل فريق من الرحالة يستكشفون تجويف كهف واسع تحت الأرض. وعندما دخلت الصالة حيث تقام الحفلة تكون لدي انطباع بعد اجتيازنا هذه المحنة المتجهّمة كالتجربة التي يتعرض لها الهواة ممن يبهرهم ألق بول فيرونيس بعد أن يحدقوا طويلاً في الظلام

الدامس الفظيع الذي يغمر لوحة ليلية بريشة رامبراندت. فقد كان يغمر هذا المكان النور والجمال. إذ كانت السيدات يرتدين أثواباً جميلة أنيقة مصنوعة من الساتان الحلبي الموشى بالذهب، التي يؤكد لنا المؤرخون القدماء أنها من بقايا الصناعات التي خلفها الإغريق. وكنت قد سمعت في دمشق قصصاً غير سارة عن تأثير المناخ وآثار حبة حلب* (اللشمانيا) على جمال الحلبيين الوسيمين. لكننا في هذه المناسبة، وبعيدا عن رؤية أيّ شئ لتأكيد ذلك، أصبنا جميعنا بالدهشة أمام هذا الاستعراض الرائع للجمال الأنثوي. وكان سقف القاعة في شكل قبة، ولم تكن هناك أرضية للرقص، بل أرض مزخرفة بالفسيفساء الباهظ الثمن. وبين الرقصة التي يتخذ فيها الراقصون شكلّ مربع ورقصة الفالس، قدمت رقصات عربية بأسلوب سكان اللاذقية الأكثر رشاقة في سورية.

والمسيحيون المحليون أفضل حالاً الآن مما كانوا عليه في عهد المصريين، ولم يعودوا يتعرضون إلى عمليات الابتزاز كما كان يحدث في أثناء فترة النظام القديم في تركيا. وبما أنهم يعيشون في حي منفصل، وتغلق البوابات بعد ساعة من الغروب، فهم يعيشون في وضع أمني أفضل مما يعيشه سكان المدينة نفسها، وذلك لحدوث عدة سرقات في الأحياء داخل السور خلال فترة إقامتي. ويخضع الرعايا المسيحيون في جميع الأمور الدنيوية للسلطة القضائية التركية، أما النزاعات فيما بينهم فيقوم بتسويتها كبار رجال الدين دون تدخّل من السلطة المدنية.

وقبل وصولي إلى المدينة كانت قد جرت حالات عديدة اعتنق فيها مسيحيون الدين الإسلامي. وبشكل عام فقد انخفض عدد الأشخاص

الذين اعتنقوا الإسلام أكثر مما كان في السابق. ويعزى أحد أسباب ذلك إلى تدني القدرات السياسية للسلطنة العثمانية، بالإضافة إلى استقلال اليونان وضغط روسيا ونظام محمد علي، التي ساعدت جميعها في عدم التشجيع على تغيير الدين. وبعد رحيل محمد علي من سورية، حدثت حالات قليلة من اعتناق الدين الإسلامي في سورية، وخاصة في حلب. وبين الآونة والأخرى، كنت ترى أحد المغامرين الأوروبيين ممن يجوبون في أنحاء تركيا، على استعداد خلال خمس دقائق أن يجري تدريبات عسكرية، أو أن يؤدي خدمة في المستشفيات، ويعتنق الإسلام لسنة أو سنتين ثم يغادر البلاد، إلا أن هذا الأمر لا يؤخذ في الحسبان. وقد اكتشف أحد هؤلاء الوجهاء في أثناء إقامتي في حلب، أرناؤطياً كان قد اعتنق الإسلام في مكان ما في تركيا، واضطر للبقاء متوارياً عن الأنظار حتى غادر المدينة إنقاذاً لحياته. ولا يخلو الترحيب الذي يحظى به هؤلاء الأفراد من اخوتهم في الدين الجديد أحيانا من الإطراء.

وذات يوم، بلغت الوقاحة لدى يهودي كان قد اعتنق الإسلام مؤخراً أن يضع عمامة شيخ مرتفعة عندما ذهب إلى مسجد زكريا. وعندما شاهده أحد العلماء، دفعها من فوق رأسه، وقال له إنه يجب ألا يفعل ذلك مرة أخرى. وكانت آخر مرة علمت بها اعتنق فيها أرمني كاثوليكي الدين الإسلامي جرت علناً في المحكمة. وعندما نطق الشهادة، قال أحد كبار الكاثوليك بصوت مرتفع " لا زاد عدد المسلمين ولا نقص النصارى".

خلال هذه الفترة وصل إلى حلب أميران من بلاد فارس، هما رضا خولي ميرزا، وابنة الشاه فيث علي شاه، اللذان اضطرا إلى مغادرة منفاهما في

بغداد بسبب الهجوم الذي حدث على كربلاء. وأقاما في خيم خارج المدينة، وكانا يخرجان يومياً في رحلة صيد بالصقر: وحدث شيء يدعو إلى الإعجاب في إحدى رحلات الصيد، إذ أصيب طائر حباري في جناحه وهو في كامل سرعته. وعندما قُدم الطير الضخم إلى الرجل الفاضل السيد "ويري"، الذي أقام حفلة جميلة بمناسبة هذه الصيد الكبير.

استقبلت الأميرة السيدات من الفرنجة في حي الكتّاب التي أدهشهن ألق وبريق جواهرها. وكانت مدام ف. معجبة جداً بهذه المجموعة من المجوهرات الملكية. وإكراماً لها قامت الأميرة برّد الزيارة لها في اليوم التالي، وجلبت معها كلّ الجواهر، وزينت المدام ف. بها. إن تاريخ مدام ف. رومانسي، فهي تنتمي إلى إحدى أكثر الأسر العريقة والثرية في موريا، إلا أنها في الثامنة من عمرها، ونتيجة للحرب اليونانية، وجدت نفسها أسيرة ويتيمة في سوق الرقيق في الإسكندرية. فشاهدتها السيدة هـ.، ودفعت ثمنها واصطحبتها إلى البيت وعلّمتها، وبعد مضي فترة من الزمن، كبرت وأصبحت شابّة في غاية الجمال، وكانت في سلوكها ومشاعرها، وأفكارها إنكليزية تماماً. وكان السيد ف. محظوظاً في اكتساب ودّها ومشاعرها، وتلا ذلك زواجه منها.

وخرجت مدام ف. من غرفتها الداخلية وهي متألقة بجمالها وبالمجوهرات التي تضعها، ولم يجرؤ أحد منّا على التطفل عليها، ثم كشفت الأميرة عن وجهها.

" هل رأيت مدام ف. بهذا الجمال من قبل؟" سألت ج. التي لم يسبق لها أن زارت أوروبا لتتعلم بساطة الذوق.

وقلت: " إن كلّ هذه البهرجة تقلل من الجمال". وقد ارتجلت الأبيات التالية بعد حديثنا:

" تزيّن الشعر الأسود المصقول المجدول،

مجوهرات أميرة بلاد فارس،

لكن من يمكنه أن يضاهي بريقها،

بتألق وبريق عين إغريقية!

فالمجوهرات الإيرانية لا تضفي على الجمال الإغريقي سوى سحر سطحي، لكن لا توجد ثمة كنوز أغنى من مزايا قلب إنكليزي.

"بعيداً، أيتها الماسة المتلألئة من غولكوند

ومن ساحل الهند المرصّع بالجواهر،

لأن الطبيعة كلما كانت أقل بهرجة

كانت أجمل وأكثر زيّنة وزخرفاً".

الفصل الرابع والعشرون

تجارة حلب - الصناعات البريطانية الواردات - ندرة السبائك الذهبية المحكمة التجارية - المناصب

يذكر الدكتور براونينغ في تقريره القيّم عن التجارة في هذا البلد، أن مدينة حلب "تعد أهم مركز تجاري على الإطلاق في المناطق الداخلية في سورية"، وذلك لأنها تتمتع بموقع محليّ ممتاز بالنسبة للتجارة من نواح عديدة. وقد دهشت لصحة هذه الملاحظة، لا للأسباب التي أوردها الطبيب فحسب (كقربها من نهر الفرات، الذي سيسهم في ازدهار المدينة عندما يصبح صالحاً للملاحة)، بل بسبب تفوق موقعها "كمدينة ملائمة كمركز لتجمع مختلف القوافل القادمة من الشرق".

يشمل ساحل غرب آسيا (باستثناء الجزيرة العربية) أولاً، الساحل الشرقي للبحر الأسود؛ وثانياً، جميع سواحل شبه الجزيرة الكبرى لآسيا الصغرى؛ وثالثاً، الساحل السوري. وتغلق منطقة القوقاز أول هذه التقسيمات، وتفصل البادية السورية الكبرى الجزء الجنوبي من الجزء الثالث عن باقي آسيا: هذا مع الحاجة إلى وجود ميناء جيد يقع جنوبي الإسكندرونة، مما يجعل إزمير وحلب وتربيزوند المراكز الرئيسية الثلاثة في غرب آسيا.

كانت معظم التجارة التي تتناولها الشركات التجارية البريطانية القديمة تتمثل في استيراد القماش الأحمر من إنكلترا، وإعادة تصدير الصناعات الهندية إلى إنكلترا، التي تصل براً من بغداد. وبدءاً من أواخر القرن الماضي

حتى قبل ما يقرب من اثنتي عشر سنة، كانت إزمير تحتكر التجارة الأوروبية، وذلك لأن تربيزوند كانت مغلقة تماماً. وشيئاً فشيئاً توقفت التجارة بين حلب والهند، وكانت الشركات التجارية البريطانية في هذه المدينة التي حققت ثروات للعديد من النبلاء الأكثر ثراء في المملكة المتحدة، قد اختفت تماماً. وفي عام ١٨٣١ انتعشت التجارة المباشرة، وبدأت ترد إلى حلب مباشرة، بالإضافة إلى سورية بشكل عام، المصنوعات البريطانية، بدلاً من ورودها من ليغورن، وفي الوقت الحالي، تعمل أربعة بيوت بريطانية في هذه التجارة. وأصبحت القوافل القادمة من الداخل تنحو للذهاب إلى حلب، وتنحو أقل للتوجه إلى إزمير، الأمر الذي يضطرها إلى عبور جزيرة آسيا الصغرى كلها، وتتكبد في عملية النقل تلك نفقات باهظة. بالإضافة إلى ذلك، بدأت ترد إلى حلب منذ عدّة سنوات مجموعة كبيرة جداً من الصناعات، بحيث أصبح بوسع التجار من المناطق الداخلية الحصول على كل شيء يرغبونه. وكان صعود حلب وتربيزوند يعني سقوط تجارة الاستيراد في إزمير. ورغم أن طرسوس تتمتع بمناخ ملائم لسكنى التجار الأوروبيين، لا لأنها تستهلك جزءا كبيراً من تجارة صادرات آسيا الصغرى الواردة من إزمير فقط، بل لأنها توفر حمولة في طريق العودة (وهذه من أمنيات التجارة السورية)، ولا ريب في أن هذا سيجعل حلب، بدلا من تربيزوند، المركز التجاري للصناعات الأوروبية المتوجهة إلى بلاد فارس، وذلك لأن السفن القادمة من الغرب، بسبب وضوح الرؤية بالنسبة للملاحة، وسهولة الوصول، والرياح السائدة، تصل إلى خليج الإسكندرونة قبل وصول السفن القادمة من المكان ذاته والمتجهة إلى تريبزوند التي يتوجب عليها أن تعبر الأرخبيل والدردنيل، ناهيك عن الأخطار التي يمكن أن يحدثها البحر الأسود.

والتجارة الرئيسية في حلب تتمثل في استيراد الصناعات البريطانية التي تزيد على ٥٠٠٠ بالة في السنة. أما تجارة السلع الاستعمارية فتقع في يد الفرنسيين. وفي عام ١٨٣٦، انخفض حجم الواردات القادمة من بريطانيا عن الواردات القادمة من فرنسا بنسبة الربع. وفي عام ١٨٤٣، بلغت أربعة أضعاف الواردات الفرنسية: وحدث ذات الشيء بالنسبة للبن والسلع الاستعمارية الأخرى.

كان القماش المادة الرئيسية التي سلمتها إنكلترا إلى منافستها. فقد تعرضت التجارة في هذا المجال إلى ثورة غير معهودة، لأنه كما ذكرنا أعلاه، كان القماش المادة الرئيسية في التجارة الإنكليزية لمدة قرنين. أما الآن فقد شهدت إمكانيات الصناعات في إنكلترا توسعاً لم يسبق له مثيل، وقد تفوق علينا الفرنسيون في هذه المادة، إذ إن جميع أنواع القماش الأجنبي تقريبا المستخدم في المدينة كان يورّد من مرسيليا، ولم تكن تصل إليها من إنكلترا سوى كميات ضئيلة، أو لا يصل شيء منها على الإطلاق.

إن أسوأ ميزّة في تجارة حلب، وتجارة سورية بشكل عام، الحاجة إلى الصادرات: فقد كان حرير إنطاكية كله طويل البكرة، والقطن لا يصلح إلا لصنع فتائل الشمع، أما أصواف جبال طوروس والصحراء، رغم جودتها، فهي وسخة وغير نظيفة، ولا تلائم السوق الإنكليزية. وهكذا، فإنه رغم أن ولاية حلب والمناطق المحيطة بها تنتج بوفرة المواد الأولية للصناعات الرئيسية لبريطانيا العظمى، وبسبب عدم توفر المهارات ورأس المال بسبب عدم توفر الأمن، فإن ثمن وارداتها الإنكليزية تدفع كلها نقداً تقريبا وبالسبائك الذهبية، في حين خسرت فرنسا وإيطاليا في تجارة الاستيراد، بسبب قرب موقعها وانخفاض أجور الشحن للحصول على القطن الخشن والصوف الوسخ في سورية. وأدى كل ذلك إلى إصابة المبادلات التجارية

بحالة شديدة من الفوضى. وكان ثمة استنزاف دائم للنقد والذهب، مما أدى إلى ارتفاع قيمة العملة رغم كلّ الجهود التي تبذلها الحكومة سنويا للتحكم في ذلك. وأسفرت هذه الجهود عن بروز نوعين من العملات، العملة المطروحة في السوق، وتدعى صاغ، والأخرى، وهي العملة الفعلية، وتدعى شيريك أو الشراكة. ولبيان قلة الأموال، التي نجمت عن استنزاف النقد والذهب، أقتبس هنا سعر العملة في عام ١٨٣٨، وفق ما ورد في تقرير الدكتور براونينغ، ووضعت إزاءها السعر في عام ١٨٤٣.

	الأسعار الحالية في عام ١٨٣٨	الأسعار الحالية في عام ١٨٤٣
	القروش	القروش
الدينار الذهب الإنكليزي	١٠٣	١٣٥
الدولار الألماني	٢٠ ٣/٤	٢٨
الدولار الإسباني	٢١ ٣/٤	٢٩
الدوكات الهولندية	٤٧	٦٠
دولار البندقية	٤٧ ١/٢	٦٤

وفيما عدا من ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ كيس من الصفراء في السنة، فإن الصادرات إلى إنكلترا لا تكاد تذكر. أما صادرات الصوف والحرير من حلب إلى أوروبا فكانت في عام ١٨٤٢، على النحو التالي:

	إلى فرنسا	إلى ليغورن	إلى تريست
صوف (بالة)	١٩٦٣	٦٨٥	٢٠
حرير (بالة)	١٢٤	٤٠	١٥

وكانت كمية من هذا صوف تجد طريقها، عن طريق ليغورن، إلى إنكلترا وأمريكا. ولم يكن يستخدم في إنكلترا إلا في صناعة السجاد والجوخ، أما في أمريكا فكان يستخدم في صناعة جوخ كيرسي الخشن.

وبصورة عامة فإن وضع تجارة حلب في حال أفضل مما كان عليه عندما قام الدكتور براونينغ بزيارة سورية. فرغم أن الأرباح أقل الآن، فقد ألغي نظام الائتمان الطويل الأجل، الذي كان من آثاره المفيدة خروج معظم المشترين غير الثابتين من السوق - الذين يفتقرون إلى رأس المال والأمانة، والذين أغوتهم القروض الحرة أملاً في ارتفاع الأسعار، وهكذا ظلت السوق في حالة من ارتفاع الأسعار بشكل خيالي. وتم إلغاء "الشورى"، أو المجلس المحلي الخاص الذي يقوم بتسوية النزاعات التجارية، الذي كان خلال عهد المصريين، محكمة مغرقة في الفساد، وأصبح ينظر في جميع الدعاوى التجارية إمّا في المحكمة أو في المجلس العام. وبقدر سوء مجلس الشورى، لم يعد هناك تفضيل للأقوياء على المسلمين المساكين أو أفراد الرعية: بل أصبح الآن من شبه المستحيل الحصول على حكم قضائي فعّال ضدّ مسلم ثري ويتمتع بصلات قوية.

إن إنشاء مؤسسة البريد يعد أفضل إجراء اتخذته الحكومة الحالية من أجل تسهيل عقد الصفقات التجارية، التي تربط بين العاصمة وسورية مرّتين في الشهر. وتقوم بنقل الرسائل والنقد بسرعة كبيرة. فعندما يكون الطقس جيداً، فإن متوسط الفترة التي تستغرقها رحلة الططري من دمشق إلى استنبول عشرة أيام. ويتوقف الططري في طريقه نصف يوم في حلب، وبضع ساعات في قونية التي ينطلق منها البريد إلى إزمير.

كنت أحياناً أطرح هذا السؤال: هل أنت أفضل حالاً في نظام فوضوي، لكنه نظام سياسي حر في ظل الأتراك، أم في ظل نظام اعتيادي، لكنه مستبدّ في ظل المصريين؟ وكان الموالون للعثمانيين يقولون إن زيادة الواردات لهو برهان قاطع على أن حكومة السلطان، رغم مثالبها، أفضل بكثير بالنسبة لتطور التجارة من حكومة محمد علي، وأنه منذ إزالة النطاقات العسكرية، التي كانت تفصل حلب عن آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين وكردستان وأرمينيا، فإن الصناعات المحلية في انتعاش. أما مؤيدو المصريين فيجيبون بأن التجارة الإنكليزية السورية المباشرة نشأت في عهد المصريين، وبما أنها كانت في ازدياد مطّرد حتى مغادرتهم البلاد، فلا توجد إثباتات تفترض بأنها لن تزداد بنفس النسبة لو طال بقاؤهم. وأن الحصار البري على سورية، ونظام الجمارك على الحدود التركية، كان نتيجة لحالة الحرب التي وجد إبراهيم باشا نفسه فيها. وبالتأكيد فإن هذا ليس عذرا مقبولاً. وفي رأيي (أتكلّم هنا عن شمال سورية، وليس عن وسطها)، فإن النظام الحالي جيد للتجارة تماماً كما كان في عهد المصريين، لكنه ليس مواتياً تماماً في حال وجود نظام سلمي، كالذي يوجد حالياً في مصر.

هناك حقيقة جيدة تتعلق بتسريح عدد كبير من الجنود المتمركزين في المنحدرات الشمالية من جبال طوروس، وهو أمر لا يمكنني أن أغفله. وقد أصبح سعر الخبز في حلب الآن نصف السعر الذي كان عليه في السابق، وبلغ سعر العلف أقل من ذلك. ففي عام ١٨٤٠، كان سعر الشنبل من القمح ستّين قرشاً، أما الآن فهو خمسة وعشرين قرشاً، في حين يتراوح ثمن شنبل الشعير من خمسة وثلاثين قرشاً إلى ثلاثين قرشاً؛ أما الآن فهو يتراوح بين سبعة وثمانية قروش.

الفصل الخامس والعشرون

السويدية - جبل الأقرع

مغادرة سورية

تعرضت إلى حادث مؤسف اضطرني للبقاء في حلب حتى مطلع حزيران. ففي أثناء جولة كنت أقوم بها في المدينة، انفلت سرجي الذي لم يكن مثبتاً بإحكام كافٍ، فسقطت عن ظهر حصاني، وأحدث ذلك رضاً في ركبتي جعلني أعاني من الألم لما يقارب عشرة أيام. وأخيراً، انطلقت إلى اللاذقية، بدعوة كريمة من السيد جون باركر، القنصل العام السابق في مصر، والذي لا يزال معروفاً منذ سنوات عديدة بصفته القنصل الإنكليزي العام في حلب. وقد أقنعني السيد باركر بالذهاب إلى السويدية لأشاهد مصب نهر العاصي في طريقي.

كان خادمي في رحلتي أرمني من بلدة أرابكي، ولأنه لم ير البحر طوال حياته، ظل يسأل السائس متى يستطيع أن يراه. وعندما وصلنا إلى قمة آخر هضبة كانت تحجبه عن أنظارنا، توقّف قليلاً وقال للسائس بنبرة تنم عن شعور كبير بالإحباط:

"هل هذا هو البحر؟

"نعم".

"يا إلهي إنه يشبه السماء. من كان سيظن ذلك؟".

قضيت في السويدية أسعد ثلاثة أيام في حياتي، حيث أدخل جمال المناظر الطبيعية المحيطة بنا متعة فائقة إلى نفسي، فضلاً عن البهجة الصادقة التي حظيت بها من الاستقبال الودّي الذي لقيته من عائلة محبوبة ورائعة. ويمكنني القول بدون تردد أن وادي العاصي الأدنى هو أفضل جزء في سورية. فبالإضافة إلى الأشجار الكثيفة والمياه الجارية التي تملأ المكان، فإن المناخ صحّي وبارد ويلائم المزاج الأوروبي، والتربة خصبة، ومعظم الأراضي مزروعة جيداً.

بعد ظهر اليوم الأول، اصطحبني السيد باركر وصعدنا إلى مشربية عالية فوق بيته، حيث وجدت متعة كبيرة من المشاهد الطبيعية أمامي: ففي المقدمة كانت هناك الحدائق والشجيرات المحيطة بالبيت، المزروعة بنبات الصبار والبرتقال والسفرجل الصيني ونباتات شبه استوائية رائعة أخرى. ومن هذا البساط العشبي، يمكن للمرء كذلك أن يجد نفسه في مرج في أحد المنتزهات الإنكليزية، التي لا يعرف عنها الناس في مصر أو في جنوب سورية شيئاً. وتكسو الجزء التالي غابات متموجة كثيفة. ويعد جبل روسوس الذي تكسوه الغيوم، الدعامة الشمالية لتلك البوابة الطبيعية العظيمة التي تفتح مجازاً لنهر العاصي عبر سلسلة الجبال السورية، ويعد جبل كاسيوس إلى الجنوب، الذي يشبه الهرم، وينحدر بشدة وبشكل مستوٍ باتجاه البحر الأبيض المتوسط أو جبل الأقرع، كما يسميه العرب، أجمل شيء في هذا المشهد الطبيعي: فالقمة عارية، وتتلألأ الشمس في هذه القمة البيضاء الصخرية المجدبة، أما الجزء الرئيسي من الجبل فهو أخضر وممتع للنظر، كما لو أنه لا ينتمي إلى سورية، بل إلى مناخ أكثر برودة. وإلى الغرب

يهيمن البحر على المشهد، ويمنح جدول يجري بين جبل الأقرع والبساتين المنتشرة في السهول العين شريطاً بحرياً رائعاً مما يزيد من جمال الصورة وروعتها.

وفي اليوم التالي، رافقت السيد باركر لزيارة بيته الجبلي في بيتياس، الكائن تحت جبل روسوس. ورحنا نسير عبر أشجار التوت لمدة تقارب الساعة، وفجأة بدأنا في الصعود. وبعد ساعة ونصف وصلنا إلى مناخ مختلف تماماً. وبعد أن مررنا بقرية أرمنية محاطة بأشجار ضخمة، تضفي عليها جداول مائية برودة، حيث كانت تجري في سواقي من حولنا، وصلنا إلى منتجع رائع فوق تل لم أشهد أجمل منه في حياتي. وكان البيت أصغر من بيته في السويدية، وبُني فوق بقعة محدودبة شديدة الوعورة إلى درجة أن الأرض فوقنا وتحتنا كانت قد جُعلت في مصاطب. وانبثق "جدول تجري فيه أنقى المياه وأكثرها صفاء"، ينبثق من بين الصخور الرائعة في الأعلى ويندفع باتجاه حوض صخري عند باب المنزل. "تذوق ذلك"، قال مضيفي الفاضل، ودفع لي كأساً كان قد ملأه بالماء، الذي أخذت أسناني تصطك من شدة برودتها، رغم أننا كنا في شهر حزيران.

سار أمامنا وصعدنا إلى الشرفات العلوية، حيث كانت نباتات التنّوب التي تنتشر عادة فوق السفوح الإسكتلندية، تزدهر بين أشجار ونباتات أخرى دائمة الخضرة وشديد القدرة على الاحتمال جُلبت من الشمال. وكانت هناك عليّة تشكّل شرفة دائرية، تشابكت فيها نباتات الكرمة والنباتات الزاحفة، يوجد في وسطها حوض من الماء يبلغ قطره خمسة عشر

أو عشرين قدماً، تبرز من وسطه نافورة كبيرة. إن البحيرة والمدينة وأسوار إنطاكية وسهول التركمان ونهر العاصي الذي يلتف ويلتوي كالثعبان باتجاه البحر، والجبل الأقرع، والساحل الشديد الانحدار حتى رأس زياريت، تضفي كلها حولك وتحتك مشهداً في غاية الروعة.

لدى عودتنا إلى البيت، صادفنا غجرياً يضع العمامة الخضراء التي يضعها الأشراف، وبلغت به الوقاحة أن يطلب منا صدقة باسم مريم العذراء! ولا شكّ أننا لو كنا نضع عمائم بدلاً من القبعات، لطلب منا صدقة كرامة للنبي محمد.

يسود اعتقاد بين الناس في السويدية بضرورة أن يفقدوا قليلاً من الدم في الربيع من السنة، ولم يكن للكوب أو المبضع أو الحلاق أيّ دور إيجابي في هذه العملية. إذ يخلع الرجل ثيابه ويغوص في بركة من العلق توجد في الجوار، فتطبق عليه الحيوانات، وعندما يظن أنه فقد ما يكفي من الدمّ يخرج من البركة.

إنّ غطاء الرأس الذي تضعه النساء المتزوجات هنا غريب الشكل: فهو يتدلى مثل صحن، يبلغ قطره حوالي أربع بوصات، فوق الإذنين، ومرصّع بعشر قطع من فئة البارة، مثل حراشف السمك، بحيث يبدو أشبه بطرف خوذة جندي صليبي. وقال السيد باركر مازحاً: "لا يوجد شيء لا فائدة له"، "فربما كان الهدف منه حماية الزوجة من تلقي لكمة على الأذن من زوج فقد أعصابه".

انطلقنا من السويدية باتجاه الجبل الأقرع، ومن هناك إلى بيروت عن طريق اللاذقية. وصادفنا في طريقنا النصيريين الذي يقيمون في المناطق

الجبلية التي تمتد بين إنطاكية وطرابلس. وهم يضعون عمامة بيضاء. وهم أميون وقلة منهم يستطيعون القراءة أو الكتابة، وقد اقترن ذلك بالجهل المستحوذ عليهم. وهم يحترمون التجار الأوروبيين الذين يمرون عبر هذه الجبال. وشأن السكان في السهول، فهم يتعرضون إلى جور شديد من قبل الحكومة. فعندما كنت في اللاذقية، كان وكلاء المحصل يجوبون القرى، وكانوا يطلبون ضعف، وأحيانا ثلاثة أضعاف الضرائب القانونية. وفي مكان يدعى القرداحة، أخذوا ٢٤,٠٠٠ قرشاً من القرويّين، وأعطوهم إيصالات بمبلغ ٨٠٠٠ قرش فقط. ومن الغريب القول إنهم يسكّون قروشاً يتداولونها فيما بينهم وهي تحمل دمغة "دروب في عين الكروم".

ويعتبر الكرم وحسن الضيافة من أبرز فضائلهم العملية. وعندما يولد لهم طفل، يطلقون عليه اسم زين. وبعد مرور سنة، ينظر رجل مسن أو شيخ في كتاب، ويتم اختيار أول اسم تقع عليه عينه ليطلق على الطفل. ولا أعرف شيئاً عن مراسم الزواج عندهم. والمرأة تعمل والرجال كسالى، وكنت تجد أن الرجل يمتطي دابته والمرأة تسير على قدميها.

وبعد سبعة أيام من وفاة الميت، يتجمع عدد كبير من الناس، وتذبح الخرفان، ويُطعم الفقراء من أجل روح المتوفى. وهذا يدعى "الأسبوع"، وهم لا يتناولون لحم أنثى الحيوان أبداً.

قبل مغادرتي سورية، أمضيت بضعة أيام مع عدد من الأصدقاء الفرنجة في بيروت، الذين لن أنسى ما حييت رعايتهم وكرمهم غير

المحدودين خلال زياراتي إلى ذلك المكان. وأتوجه بالشكر الخاص إلى القنصل العام ممثل صاحبة الجلالة، والقنصل الكولونيل روز، والسيد نيفن مور لشديد اهتمامهم بي، ولما قدّموه من تسهيلات كبيرة إليّ. وفي الثالث من آب ١٨٤٣، أقفلت عائداً إلى استنبول.





السّوريون المعاصرون

أثناء زيارتي مكتبة نيويورك العامة، بحثاً عن كتب دوّنها رحالة زاروا منطقة الشرق، لفت اهتمامي كتاب طبع في لندن عام 1844 عنوانه:

"The Modern Syrians، or The Native Society in Damas-cus، Aleppo and the Mountains of the Druses"

وما أثار اهتمامي، أكثر، هو عدم وجود اسم للمؤلف، إذ اكتفى الناشر بأن ذكر على الغلاف «بقلم طالب دراسات شرقية». وكان مؤلف الكتاب قد قام برحلة إلى سورية وجبل لبنان في الأعوام 1841 و1842 و1843. والأمر الذي يثير الاستغراب، هو السبب الذي جعل المؤلف لا يذكر اسمه، ولا هدفه من هذه الرحلة، التي استمرت طوال ثلاث سنوات، انطلاقاً من الاسكندرية، ووصولاً إلى بيروت، التي انطلق منها إلى جبل لبنان ودمشق وحلب والساحل السوري وصولاً إلى السويدية وأنطاكية والاسكندرونة. فإذا كان الهدف من رحلته، هو الاطلاع على أحوال الناس والأوضاع السياسية السائدة في جبل لبنان وسورية عامة، وتدوين ملاحظاته وانطباعاته عنها، فلماذا لم يذكر اسمه لكي يُعترف بفضله، أم كان هدفه تعلم اللغة العربية، أم غير ذلك من الأهداف غير المعلنة للرحّالة؟ في الأحوال كلها، ستظل هناك أسئلة كثيرة وتكهنات أكثر. ولكن ما يهمنا، هو مادوّنه الكاتب من أحداث وانطباعات، قد تلقي الأضواء على فترة لم تحظَ بالكثير من عناية الباحثين. ولعل الكتاب يوفر للباحثين والدارسين المهتمين مادة هامة عن تلك الفترة التاريخية.

